قميص من نار

رواية وطنية ، تتضمن تاريخ نهضة الترك بعد الحرب العظمى

تعريب : محب الدين الخطيب



صورة المؤلفة ❁ خالدة أديب ❁ وزيرة المعارف في انقرة

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان



﴿ آخر صورة لخالدة أديب ـ مؤلفة هذا الكتاب ﴾

قميص من نار

رواية وطنية : تتضمن تاريخ نهضة الترك بعد الحرب العظمى

تأليف

خالدة أديب

وزيرة المعارف في انقرة

قالت جريدة (اقدام) التركية الشهيرة :

رواية « قميص من نار » من أمتن ما كتبته أديبتنا الكبرى السيدة خالدة أديب . وان الذين ارتفعت أصواتهم بالشكوى من تقصير المؤلفين في تدوين مآثر الجهاد الوطني في الاناضول سيجدون في هذه الرواية أقصى ما كانت نفوسهم تصبو اليه

وفي اعتقادنا أن رواية « قميص من نار » تمثال علوي نصبته السيدة خالدة أديب في ميدان الأدب ليكون ذكرى خالدة لشهداء الاناضول و غزاته

تعريب

محب الدين الخطيب

عنيت بنشرها

المطبعة السلفية ومكتبتها

لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة - ١٣٤١

صورة المؤلفة



خالدة اديب

وزيرة المعارف في أنقرة

مذكرات ضابط جريح

«كان الضابط (بيامي) في مستشفى أنقرة عقب وقعة سقارية مبتور الرجلين، مصاباً في رأسه برصاصة بقيت فيه. وقد شعر بخطر الموت، فهم بأن يدون ذكرياته منذ وضعت الحرب العظمى أوزارها الى ذلك اليوم، فكان من ذلك هذا الكتاب. وهو بشكل مذكرات يتكلم فيها عن نفسه»

— ١ —

جمال واحسان

ـ ٢ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

لقد كنت ـ الى الوقت الذي ابتدأت تجري فيه حوادث هذه القصة ـ موظفاً في وزارة الخارجية بوظيفة لاحول لي فيها ولا قيمة. وان ما أسطره هنا لا يتعلق بشخصي بقدر مايتعلق بحياة أشخاص أحببتهم أكثر من محبتي لنفسي. ولكني عشت ـ على كل حال ـ بين هؤلاء الاشخاص الذين تبتديء حياتي الحقيقية بالقصة التي أكتبها عنهم. واني شارع بتسطير ما أسطره في هذه الصفحات وأنا متخوف من أن أدخل نفسي بين حين وآخر في حوادث هذه الرواية ، رواية الدم والنار

أظن أني قد غسلت شخصيتي بالنجيع الاحمر السخين ، فطهرتها من أدران الماضي ، فلن تشم منها بعدالآن رائحة الديوان وأوراقه البالية ، وان في عزمي أن لا أعود اليه مرة أخرى ، فهل أنا فائز بهذه الأمنية ياترى ؟

ومما أعترف به أيضاً أني أتلهف شوقاً الى أن أبوح بما انطوى عليه قلبي من آلام الهم وخطوبه ، وما مرّ بي من كوارث البؤس على اختلاف ضروبه ، ولكني لن أفعل ذلك في هذه القصة التي وقفتها على سيرة أناس لهم صلة بمن في هذا العالم الدنيوي ، أما أنا فأطلب لنفسي شريكاً في هموم أطول بقاء وأشدّ

تخليداً . لاني أشعر بأن مدة سياحتي في هذا العالم الفاني أضحت قصيرة ، وكنت أحب أن أجد روحاً آخر يقوم مقامي في التحديث عني . فأنا من أولئك البسطاء الذين يؤمنون بالآخرة . وبأن في الآخرة أرواحاً ، ولا بد أن يكون وراء حدود المقابر رفيق واحد يماثلني ببساطته ، فيبوح لي بمثل ما أبوح له به من آلام وهموم

أنا الآن في غرفة صغيرة من غرف مستشفى (جبه جه) في أنقرة . واني أطل من نافذتها ناظراً الى ماتقع عليه عيناي من آكام صفراء بعيدة المدى ، يعلو بعضها وينخفض بعضها ، فلا يدرك طرفي آخر هذا المشهد الاّ عند حمرة الأفق السماوية : تلك الحمرة التي صبغت بلونها القاني كل ماوقعت عليه مما هو تحتها ، فكل شيء أحمر ، وشديد الحمرة . والظاهر أن دمَ ...

لا ، يجب أن لا أفكر في ذلك . أين ما قاله لي الطبيب ؟ هو يقول ان الرصاصة التي في رأسي تثير في نفسي أوهاماً وخيالات . واذا قلت له «أخرجها !» نظر في ذراعي قميصه نظراً عميقاً . ومنذ بضعة أشهر بتر فخذي بآلاته الجراحية فصرت وأنا في سريري أنظر الى نصفي الادنى فأرى ماتحت اللحاف من ذلك فارغاً ، فياله من منظر مضحك : أما الرصاصة التي في رأسي فانهم لايجرأون على اخراجها منه لئلا يفرغ ، ولعلهم يجتنبون مسها لئلا ينتزعوا ما هنالك من الذكريات فأبقى وحيداً . واذا اشتدت عليّ آلام رأسي قال لي الطبيب : « سأعمل لك عملية جراحية بعد شهر » . وهو الآن يصرّ عليّ بأن أكتب الى أهلي في الاستانة . وماذا أكتب لهم ؟ أراني قد نسيتهم . ان لي هنالك أمّاً ذات وجه أسمر رقيق ، وشعر خشن . وهي لاتريد أن تصير عجوزاً . وانها هي أيضاً رفضتني لما سرت سيرتي هذه . ماذا قلت ؟ اذن فالذي مضى عليّ حتى الآن كان حقاً . على انه قد يكون بعضه غير صحيح ، وأيّ ضرر في ذلك ؛ وربما يفرغ رأسي وأنا في منتصف هذه القصة ، فأنتقل من هذا العالم الى عالم آخر ، وأي ضرر في هذا أيضاً ؟

أريد أن أبدأ بالقصة . واني متلهف على أن أبدأ . ولكن من أين أبدأ ؟ ان مثلي كمثل الطفل الذي يريد أن يتناول الفاكهة قبل الطعام ، فأنا أودّ لو اجعل آخر القصة فاتحة لها خوفاً من أن يفرغ رأسي قبل أن أبلغ النهاية

*

تبتديء قصتي في اليوم الذي حضر فيه جمال الى منزلنا ، وهو اليوم الذي قالت لي فيه أمي « ان بلغاريا عقدت الهدنة مع الحلفاء » ، فلماذا أزعجني هذا يومئذ ؟ ولماذا أقلقتْ هدنة البلغاريين راحتي ؟ ذلك مالا أعلمه . ولكني أعلم اني كنت أتنقل في منزلنا على مقاعد القاعة المفروشة بالطراز الاوربي ، حتى أني أفسدت نظام القاعة على أمي التي كان بين شفتيها كلام آخر تريد أن تقوله لي فلم أصغ اليها

على أنه لم تكن المهادنة والصلح مما يسوءني ، بل كنت قبل ذلك لا أرى معنى لاشتباك الأمم في حرب اشتركت فيها الملايين من بني الانسان وقد أنشب كل منهم أظافره في عنق الآخر يمزق بعضهم بعضاً . وكنت بوجه خاص متشائماً من دخولنا نحن في الحرب ، ثم لم تحدث سنوات الحرب الطويلة عاطفة جديدة في نفسي . فاني ندبت للسفر الى برلين غير مرة لشؤون رسمية ثم كنت أعود الى الاستانة . وكنت أرى أن الحرب لم تحدث شيئاً غير زيادة مقادير الاوراق السياسية . نعم ، ان الحرب قد جرّت على الناس وبالا ، وبات الفقراء بسببها جائعين . ولكننا نحن لم نشعر بشيء من ذلك في منزلنا . لان أمي سليلة أسرة مثرية في ازمير ، وقد نشأت في نعيم الاستانة . ولا تزال مزارعها تفيض المال عليها ، فلم تتغير لنا بسبب الحرب عادة من عادات النعيم قط

لقد أذكرتني هذه القصة أمي ، انها سيدة مسنة ، ذكية ، متفرنجة ، كسائر سيدات حي شيشلي الذي نقيم فيه . رباه ! كم ذا بين (شيشلي) و (جزيرة الامراء) من مغاني للهو ومسارح للصبى ، واذا لم تكن قاعة أمي في بعض الاحيان مصدراً لبدع اللهو وبدائعه في هذه العاصمة فان اليها منقلبها وفيها

مثواها . فكم يتردد على منزلنا من سادة متفرنجين ، وسيدات وأوانس هن بهجة الدهر ، وزينة الورى

ولما رأتني أمي مُعرضاً عن سماع خبر الهدنة البلغارية أخذت تدخن سيجارتها ، واستلقت على أحد المقاعد مفكرة مضطربة . أما أنا فضغطت بأصبعي على (الجرس الكهربائي) وطلبت من كاتينا أن تحضر لي فنجان قهوة . ثم أخذت أدخن سيجارتي المذهبة . وفيما أنا كذلك سرّي عني ضيقي ، وسررت سرور الرجل الذي كان يعاني آلام ضرسه ثم سكنت آلامه بغتة ، وزالت أوجاعه . وفي تلك اللحظة جاءت كاتينا بفنجان القهوة ، وأعلنت مع ذلك حضور جمال . والظاهر ان أمي كانت ـ بعد ان ذكرت نبأ الهدنة ـ تريد أن تخبرني بذلك . ولكن مالي ولهذا : ان امبراطور الالمان لو حضر في تلك الساعة ما كان حضوره ليفسد عليّ تلك السكينة المنبعثة من تلك السيجارة

ان جمالا ابن عمة أمي . وكان ضابطاً مدة الحرب العظمى . فتنقل في الاقطار . والظاهر انه جرح في الحرب مرات كثيرة . ولكنه لما كان يأتي الى الاستانة جريحاً كنت أكون في المانيا . واذا كنت في الاستانة في بعض جيئاته لا أبالي بذلك لقلة اتصالي به من قبل . وانما كنت أتذكره اذا تذكرت شقيقته . فان أمي أرادت قبل نحو اثنتي عشرة سنة أن تزوجني بها فدعتها الى الاستانة . وهي فتاة ازميرية اسمها عائشة . فلما علمتُ بذلك يومئذ وضعت ثيابي في حقيبتي وسافرت الى أوربا هرباً من هذا الزواج . وكان ذلك ابان اعلان الدستور ، فتسهلت لي يومئذ أسباب سفري الى أوربا بلا جواز . ثم علمت بعد ستة أشهر ان عائشة تزوجت رجلاً اسمه مقبل بك ، من أقارب والدي . وحينئذ عدت الى الاستانة . وكانت أمي ترى أني على جانب من البلاهة لاني أضعت من يدي ثروة هذه العروس الغنية . على اذ أمي أيضاً ما لبثت أن نسيت تلك الحادثة ، لانها تنفر مثلي من بنات الارياف . وتبتعد عن

الاسر التي لا تزال تعيش عيشة تركية . والقد حاولت أن تزوجني باحدى أوانس (شيشلي) المتفرنجات . وكنت يومئذ في الرابعة والعشرين من عمري . ثم مضت الايام . وأنا الآن كهل في السادسة والثلاثين

فلما حضر جمال الى منزلنا يوم هدنة البلغار كانت أخته قد مضى على زواجها سنوات غير قليلة . فتصورتها في ذهني امرأة غير حديثة السن كثيراً . وكان زوجها مقبل بك قد ترك وظيفته في وزارة الخارجية . وانتقل الى مزارع زوجته في ازمير . وكان اكبر همه في السنوات الاخيرة الاتجار بالعنب والتين وشحن طرودها بالسكة الحديد

قبل جمال يد والدتي . وكنت أريد أن أسلم عليه بتصنع وتكلف ، على عادتي التي ألفتها ؛ غير انه لم يمهلني ؛ ومدّ اليّ يداً قوية وضعها في يدي المحلاّة بخاتم جميل ، والمنبعثة منها رائحة البوماد وضغط عليها بشدة اضطرتني – على غير ارادة مني – لان أفتح عينيّ جيداً وأنظر باهتمام الى هذا القروي

آه ... لقد اضطرب رأسي . اني لن أستطيع الآن مواصلة الكتابة

* * *

– ٣ نوفمبر ١٩٢١ –

تبتدىء حياتي الجديدة بعيني جمال . فقد كانت له تحت أهدابه السوداء عينان زرقاوان ممتلئتان ثقة وتفاؤلا . ومما يلفتني النظر اليه بعد ذلك من أجزاء وجهه – الذي أكسبته الشمس لوناً نحاسياً – فمه المدور الصغير الذي لا تفارقه الابتسامة . وكان جسمه العالي الرقيق يدل على ما اكتسبه من قوة ورشاقة ، في خلال ماعاناه من المشاق ، وما خاضه من معارك الحروب وأهوالها . وعند ما يقبل على شخص ما ليحييه يضرب أحد حذاءيه الضخمين الواسعين بالآخر ضرباً سريعاً لا يحسنه الا الجندي ، ثم يتكلم بلهجة مشبعة وموزونة . ولما سحب يده من يدي أزاح قلنسوته الى الوراء وأخرج من جيبه منديلا مسح به جبهته الجافة ، صنيع من يمسح عرقه . فقلت له :

ـ لما ذا تمسح جبهتك ، وما بها من عرق ؟

فافترّ ثغره عن أسنان بيضاء جعل يحرّق بها ، ثم جلس على أحد المقاعد متمهلا ، وأشعل سيجارته بثقاب ، وقال :

ـ لقيت وأنا قادم الى هنا بالترام صديقاً لي ، وتجادلنا طويلا في أمر الهدنة البلغارية . فلحقني مثل التعب الذي يكون فيمن يتصبب جبينه عرقاً

ثم انتقل فجأة الى طور الجد ، وحدّق عينيه في عيني ، وسألني بمثل صفاء الطفل ووثوقه :

ـ ان البلغاريين عقدوا الهدنة ، ومعنى هذا أنهم اعترفوا بانكسارهم ؛ فما ذا يكون موقفنا نحن يا ترى ؟ لابد أنك تعلم ذلك من وزارة الخارجية

لست أذكر الآن أي جواب تفلسفت في ابدائه له يومئذ ؛ ولكن الذي لا أزال أذكره هو انني كنت قد أحببت جمالاً . فهو الذي كان البادىء في حملي على توديع حياتي الاولى التي لا معنى لها ؛ والتي كانت أشبه شيء بالرؤيا . ومما قاله :

ـ ان خالتي وعائشة ومقبل بك يريدون أن يأتوا الى الاستانة ؛ ولكن دنفلهم حسناً مصاب بالحصبة ؛ فهو لا يستطيع أن يتحمل هذه السياحة

وأخذ يسهب في وصف هذا الطفل : ابن أخته عائشة . وما له من جمال وصحة

ليس في استطاعتي أن أدوّن تاريخ صداقتي لجمال ؛ واذا كنت أعرف شيئاً من تاريخ هذه الصداقة فهو أني شعرت ـ لأول مرة في حياتي ـ شعوراً شديداً يشبه الجشع بأني أحببت أخاً مخلصاً قوياً غير أناني . فقد كنا نكون معاً كل يوم ؛ فاذا أزفت الساعة الرابعة بعد الظهر مرّ بباب وزارة الخارجية وأخذني معه الى القهوة التي تحت (فندق المسرّة) فنجتمع هنالك برفاقه ضباط الجيش . وكانوا كلهم فتياناً طيبين ؛ ولم يكن لاحد منهم ميزة يمتاز بها ، الاّ جمالاً فانه مع مشابهته لهم بالبساطة كان لنفسه سلطان قوي على نفسي

كانت الاستانة في تلك الايام كأنها ساحة قتال . فما من نهار ولا من ليل

الاّ ونرى الطيارات الانكليزية فيهما محلقة فوق رؤوسنا تقذفنا بقذائفها . والناس جميعاً قد ازداد تهيج أعصابهم . والضباط الذين في قهوة المسرة يتجادلون في موضوع الصلح والقتال . ويتناقشون في أسباب دخولنا الحرب : فبعضهم حانق على أنور باشا ، وبعضهم يشتم الالمان تصريحاً لا تلميحاً ، وبعضهم يرفع صوته قائلا اننا غير صالحين لأن نستقل بعمل . وبين هؤلاء ضابط متحمس اسمه سيفي لا يزال يزعم أننا سوف ننتصر . ويقص على رفاقه قصص البطولة الخارقة في حربي الدردنيل وصحراء سيناء . أما أنا فبالرغم من هذه المناقشات الحماسية كنت أشعر بكسل عميق يستولى عليّ ، وأحس بحنق خفي متولد عن جهلي بأسرار الانكسار الذي يصاب به جيشنا في نهاية كل حرب بعد أن نكون الفائزين في بدايتها

ولا أنسى يوماً من الايام الاولى في هذه الحياة الجديدة . فقد كان جمال يذهب كل يوم الى مدرسة أركان الحرب . فلما جاء ليأخذني في أحد الايام قال لي :

ـ تعال نذهب معاً الى ميدان بايزيد ، فان الجوّ صاف

وكان جمال يومئذ منقبض النفس مقطباً ، فهو يبحث عن محمل يحمل عليه هذه المصائب التي أصبنا بها . وأخيراً قال لي :

ـ لو كانت حكومتنا جمهورية لما أصبنا بهذا

وكان لصدور هذا الرأى الجمهوري فجأة من فم جمال وقع لطيف . فقلت له :

ـ وكيف يكون لو تناقشت في آرائك الجمهورية هذه مع أبناء الاسرة السلطانية الذين هم زملاؤك في المدرسة ؟

فلم يحلّ هذا السؤال عقدة لسانه . وانطلقنا حتى اذا بلغنا في مسيرنا باب وزارة الحربية لم يشأ أن نواصل سيرنا وقال :

ـ لننزل من منحدر (مرجان) يابيامي

وتربصنا قليلا لنلتقي بضابط متأنق كان مقبلا علينا من داخل وزارة

الحربية ؛ وهو شاب استنبولي لطيف نحيل الخصر ، في قدميه حذاءان ضيقان ولماعان ، وعلى رأسه قلنسوة مائلة ، وله شاربان صغيران . فلما وصل الينا انحرف قليلاً ومدَّ يده الى جمال بعد أن جردها من قفازها بلطف ؛ فضرب جمال أحد حذاءيه الضخمين بالآخر ؛ ومدَّ اليه يداً خشنة صافح بها يده البيضاء ، وسأله :

ـ من أين أنت قادم يا احسان ؟

ـ من الفيلق الثالث ياجمال

ثم قدمني اليه ، ووقفنا قليلاً نتحدث : وكان موضوع الحديث الهدنة البلغارية والصلح . وفهمت من ملامحهما أن جمالاً كان يتململ ـ على غير قصد ـ من الرقة الاستنبولية التي يراها في صاحبه . وأن احساناً كان ينظر الى زميله أنه فتى ريفي ، وهو يحتمله لان ذلك من مقتضى المجاملة المدنية . أما أنا فأنظر الآن الى العاصفة التي عصفت على عاصمة المملكة وأريافها جميعاً فألقت المدنيين والقرويين بعضهم في أحضان بعض ، وأفكر كيف كنت أرى الايام التي نحن فيها بعيدة منا جداً . وفيما نحن على عزم أن نفترق انتفخت آذان الضابطين ، وأخذا يصغيان ، ثم قالا بسكينة ورزانة :

ـ طيارات انكليزية ! . . فلنبتعد عن منطقة وزارة الحربية

فانحدرنا في طريق مرجان بخطوات واسعة . أما أنا فشعرت بعارض غريب عرض لي في ركبتيّ وفي قلبي ، وازداد اللين في جوفي ، وكأن عظام ظهري قد أخذت تذوب . ومع ذلك فاني كنت أسير متحملاً هذه الآلام محاولاً اخفاءها . وكذلك كان سائر الناس يسيرون مثلنا بسرعة ، يريدون الابتعاد عن تلك المنطقة ، فكانوا ينحدرون من حيث انحدرنا . ولست أدَّعي أن أحداً كان يعدو في أول الامر ، وانما كان الباعة يعودون من الشارع حاملين زنابيلهم ، وبضع سيدات كن يجررن أولادهن بخطوات واسعة ، وكان الناس قد اختلط حابلهم بنابلهم

ثم ازداد لغط الناس واضطرابهم فجأة في مكان تزدحم فيه أقدام المارّين. نظرنا، فرأينا خمس طيارات تدنو من الارض. ومن حولها سحائب القنابل تتساقط كالثلج، أو كأنها نسيج التول

ثم سمعنا هزيماً عظيماً فجائياً، وأحاطت بنا غيمة من الدخان الاسود القاتم يخالطه التراب. وكان الناس يتراكضون ويتصادمون تحت ذلك الدخان مدة طويلة، وانك لا تكاد تسمع لهم حسيساً لو لا ما تشعر به من تصاعد أنفاسهم. أما أنا فأذكر اني أسندت ظهري الى باب دكان، وأحسست بأن ركبتيّ وعظام ظهري صارت جوفاء كالكراع المطبوخ

ولما فتحت عيني لم أر غير ما تقذفه مدافع وزارة الحربية من قنابل رمي الطيارات فتمزق بها طبقات الجو. ورأيت على الارض أنقاض منازل ودكاكين وبعض بقايا البشر من سواعد مكسورة وأفخاذ مقطوعة. وهنالك على رأس الشارع المرأة التي كانت تجر ابنها بسرعة، فهي الآن واقفة الى جانبه تلطم رأسها بيديها. وفي جهة أخرى أرض ملطخة بالدماء، والطفل يحتضر بصوت مختنق. ورأيت عجوزاً أرمنية ذات شعر أبيض ورداء أسود مستلقية على الارض وقد سقط نصفها على الرصيف ونصفها الآخر في الشارع، والى جانبها شيال ذو صدر أسمر عريان كثير الشعر يسيل الدم منه. وهكذا كنت أسير في طريقي ونظري لا يقع الا على الدماء، فأشعر بالغثيان في معدتي

ذلك أول عهدي بالدم!

استولت السكينة على جمال واحسان، فجثا أحدهما الى جانب ابن تلك المرأة، وانصرف الثاني الى مساعدة الذين يضعون الشيال الجريح في عربة الاسعاف. فلم أتمالك أن أغمضت عيني. وبعد مدة شعرت بيد جمال القوية تامس كتفي وهو يقول لي:

ـ قم يابيامي! انك ستفسد كيّ ملابسك

فتحت عيني، فرأيت احساناً قد جاء أيضاً. وهو ينظر الينا بوجه أصفر،

تبدو عليه ملامح الهدوء . فقلت :

ـ أظنني قد استولى عليّ الخوف

فابتسم جمال وقال : ـ وأنا أيضاً

ولما قال جمال ذلك ازددت حباً له ؛ لأني قد تعلمت من دروس الحياة ان أجبن الناس اكثرهم ادعاء للشجاعة . ومد الي الجنديان يديهما فتناولتهما ونهضت . ثم مشينا وسط الموت حتى اجتزناه . ولم نركب عربة النفق التي نقلتنا الى الشطر الاوربي من الاستانة حتى عاودتنا المسرة . فكان لابسو القبعات ينظرون الى الضابطين ـ جمال واحسان ـ نظرات غريبة يقابلانها ببهجة الانتصار الممتزجة بشيء من المرارة ؛ غير ان مخائل الجدّ لم تكن لتفارق وجهيهما . فلما خرجنا من النفق دعانا احسان الى شرب الشاي في قهوة (لوبون) فأجابه جمال :

ـ أود أن أطوف بين هؤلاء الأغيار الى الصباح وأنا ضاحك . ولكن ما بال ساعدي العاطل قد تحرك عليّ جرحه القديم ؟

تناولنا العشاء في بك أوغلي مساء ذلك اليوم ؛ وأمضينا السهرة في بار (تبه باشي) ؛ وعدنا في الليل بحالة قريبة من السكر

ولكن لماذا أنا أذكر كل هذه الامور ؛ وليس ذلك من قصة اولئك ولا من قصتي . . .

***

ـ ٤ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

نظرت صباح اليوم في وجه الجندي الذي يخدمني ؛ وقلت له :

ـ أريد أن أخرج الى الشمس يا سالم

فاغرورقت بالدموع عيناه الخضراوان المتقاربتان كعيني القرد ؛ وقال :

ـ أنقلك ياسيدي

ما أشد سروري بتركهم لي خادمي الجندي . انه لم يبق لي أحد غيره يعرفني

ويحبني . وها قد قطع ساقاي ، وهم يتربصون قليلا ليفتحوا دماغي ، وهي العملية التي أخشى عواقبها . واذا خرجت منها حياً فما حاجتي للحياة وأنا فيها وحيد ؟ لقد كانت والدتي في الاستانة أم شاب موظف في وزارة الخارجية ؛ وأما أنا الآن لجندي أضاع ساقيه على ضفاف سقارية ، ومزق الرصاص رأسه ؛ واذا تركني خادمي الجندي يوماً ما لا يبقى لي أحد

ولكن لماذا أنا أفكر في كل هذه الامور ؟ ألست حاصلا على سالم فأطوق عنقه الاسود بساعدي لينهض بي كما كانت أمي تنهض بي زمن الطفولة ويذهب بي الى سريري لانام ؟ واذا حكم الله علي بمصيبة الحياة مدة طويلة فاني سأعتنق سالماً بذراعي وأقول له وأنا أبكي « ليكن لك كل ما أمتلكه في هذه الدنيا ، فاذهب بي الى كوخ من أكواخ قريتك ، ولا تتركني بعيداً عنك » . ثم لعلي اذا طالت بي مدة الحياة تجيش في نفسي ذكريات الايام القديمة فلا أستطيع انتظار الآخرة وأبوح له بكل أسراري . ولم لا ؟ أليس هو أقرب مني أنا الى قصة عائشة وجمال واحسان والآخرين ؟

ها قد جاء سالم الى غرفتي ، وأخرج منها معطفي وبطانياتي ، ووضع لي سريراً في الممشى الحجري الذي تقع عليه الشمس . وسيعود ليحتضنني ويذهب بي الى هناك فأشعر بشمس الايام السالفة ودمها وهما يغليان في عروقي

لقد نمت في الشمس نوماً طويلا . أما غرفتي فباردة . وان سالماً قد لفني بالخرق والبطانية كما يصنعون بالطفل ، فأنا الآن في سريري ، وفوق رأسي سراج ، وفي يدي دفتري ، وأشعر كأني في سكينة غريبة

*

أين وصلنا ؟ ها ، اني بدأت يومئذ أحب احساناً أيضاً . وكانت سلاسل الديوان وأوراقه قد بدأت تنحل . أما جمال واحسان فلم يكونا يتبادلان حباً بليغاً ، ولكن كلا منهما كان يحبني الى حد اننا نحن الثلاثة لا نكاد نفترق . وكانت أسرة احسان أيضاً من الاسر النبيلة والقديمة في شيشلي .

وعلمت فيما بعد ان بينهم وبين أمي صداقة . ومع ان والدته من السيدات المتمدنات فانها لم تكن تخاطب الرجال . فهم من بيت تسود فيه تقاليد الباب العالي القديمة ، مع النظافة والافراط في اللطف وقليل من التقيد . أما ابنهم فمن عالم آخر . فهو لم يكن يتكلم بقدر ما يتكلم جمال ؛ ولم يكن يجيب جمالا على ما ينتقد به الاستنبوليين وتقاليدهم متوخياً بذلك اغضابه . وسكوت احسان عن ذلك لم يكن من باب المجاملة والاغضاء ؛ بل لان في نفسه معقلاً لا تؤثر عليه هذه الامور . كان احسان مفطوراً على الصلابة . وهو ذو وجه صغير فيه بعض الكلف ؛ وفي وسطه أنف رقيق جميل ؛ وله أسنان بيضاء . وعينان عميقتان مشقوقتان من وسطهما كأنهما العيون التي نراها في الصور القديمة . وكنت أستشف من روح هذا الضابط الشاب المتفرنج انها مثقلة بشئون أخرى خاصة به . على انه لم يكن يبوح بشيء من ذلك ؛ بل كان انموذج الضابط العثماني الذي يحرص دائماً على أن يكون رقيقاً وراغباً في راحة الذين حوله . قلت الضابط العثماني ولم أقل الضابط التركي لان الفتى التركي الحديث النشأة أشد مزاحمة للناس بمنكبيه ؛ فلا يبرح متلاطم الامواج . وكثير الطموح والمطالب

لم يكن لاحسان مطلب معين . ولقد كان يسرع التنقل في الحرب من ميدان الى ميدان مدفوعاً الى ذلك بعاطفة الشرف والغيرة ؛ ويقدم على التضحية بلا تظاهر ولكن بشيء من الغرور

ومع انه كان يفضل الجلوس في قهوة لوبون فانه يأتي معنا الى قهوة أخرى في حي (السركه جي) كان جمال يستحسنها ؛ فنجلس معاً لتناول الخمرة ؛ ثم نعود منها فنجتاز (الكوبري) ونحن نتحدث ونضحك . وقد كنت أرغب كثيراً في أن يتحاب هذان الشابان ؛ غير اني في الوقت نفسه كنت أشعر ببعض الغرور عند ما أراهما مجتمعين لاجلي . وعندي أن الشاب الانضولي — أعني جمالاً — كان على قلة نضوجه أحدث من صاحبه وأمضى . ولقد استطاع

أن يجعل لارادته الحازمة سلطانا ضـعيفاً على احسان بدرجة لعلها غير ظاهرة الآن . فهل كان هذان الشابان مفترقين الى هذا الحد ؟ أم أنهما مثل وجهي الدينار كل واحد منهما غير الآخر وكل واحد منهما متمم للآخر ؟ أليست هنالك قوى أولية عميقة تحملهما على أن يعملا عملاً واحداً ويشعرا بشعور واحد ؟

لا أزال أذكر جيداً أننا كنا نحن الثلاثة نازلين معاً من الباب العالي بعد الهدنة بثلاثة أيام ، وكانت السكينة سائدة على الشوارع والازقة . فكنا نقرأ على وجوه الناس معنى عميقاً من معاني الحزن يحاولون اضماره في حنايا الضلوع . ولـكن لماذا ، ألم يكن الناس قد سئموا الحرب ؟ وماذا يحزنهم ياترى : الدماء التي سفكت في الحرب عبثاً ؟ أم . . .

عدنا في ذلك المساء دون أن نتناول شيئاً من الخمرة ، وكنا نسير ساكتين لاينبث أحد منا ببنت شفة . ولما صرنا أمام قصر (بشـكطاش) شاهدنا المدرعات الاجنبية الضخمة تمخر فوق زرقة الماء ؛ فوضع جمال يديه في جيبيه وقطب حاجبيه من فوق وجهه المصفرّ وتقدم الى ساحل البحر . أما احسان فكان وجهه أشد صفرة من وجه صاحبه ؛ ولـكنه كان أكثر منه تماسكاً فيما يظهر . فتقدمت معه نحو هذه المدرعات التي لم تعد عدوة لنا ، والتي تخفق عليها أعلام أجنبية ظافرة ، لنراها وهي تخترق مياه البوسفور بلونها الاخضر الفيروزي الخادع ؛ ومايحف بها من حباحب الزبد الابيض . فيالها من ساعة كانت ثقيلة علينا وطويلة الامد

لم يكن حولنا في تلك البقعة حس ولا أنس ؛ وكنا ننصت فنسمع في آذاننا دوياً كأنه منبعث من جهات (غلطة) و (الطوبخانة) . ولم يكن ثمة دوي في الحقيقة ، بل هي ضربات قلبي أسمعها في أذني ؛ أوهي جروح رفيقيّ الضابطين قد تجددت فأنا أصغي الى صوت آلامهما . وهنالك أخذت ترفرف أرواح الذين قتلوا في ألف معركة ومعركة مدة الحرب العظمى . فأبصرها جمال

بعينيه الباردتين الثابتتين ، وقال كالذي يتكلم في حلمه :

ـ ألم نحارب في الدردنيل فيقتل في الساعة الواحدة مائة ألف جندي من لمنع هذه المدرعات من الدخول الى هنا ؟

فأجابه احسان : ـ ولكنها في النهاية دخلت

والتفتنا فجأة فرأينا جندياً أنضولياً طويل القامة بمثل جسم المارد ، في ساقيه سروال ممزق ، وفي رجله نصف حذاء ، وعلى صدره شريط مقطع لتعليق مدالية الحرب . . . فتوجه احسان وجمال نحو الجندي ، فتمثلتهم في ذهني ثلاثة في العدد وهم في نوعهم واحد ، وكأنما تعدُّد وجوههم وأجسامهم سيتلاشى فيكون منهم جميعاً شخص واحد . على انهم اذا لم يتحدوا بالفعل فقد اتحدت نظرات أعينهم ، ثم حنوا رؤوسهم ، فلست أدري ماذا قال بعضهم لبعض ، لأني شعرت وأنا على مقربة منهم كأنهم من معتنقي دين مقدس غريب أنا من جاحديه ، فابتعدت عنهم نحو الساحل كما يفعل الغريب ، وتلك هي المرة الاولى التي أحسست فيها بألم الحرمان من الاشتراك معهم في أعمالهم المقدسة . ومن ذلك الحين حُببت اليّ الجروح والدماء والموت ، وصارت لهذه الاشياء مهابة في نفسي لاسبيل الى بلوغها . بل صرت أرى في تلك الساعة أن هذه السفائن الفولاذية الظافرة أقل وأصغر في عينيّ من هؤلاء الرجال الثلاثة الواقفين ورائي . ولما التفت لانظار الجماعة رأيت احدى يدي الجندي في يد احسان ويده الاخرى في يد جمال

لقد جاشت الآن هذه الذكرى في نفسي ، فناديتهما قائلا :

ـ يا جمال ، ويا احسان ! تعالا فانظرا كيف انقطع ساقاي ، وكيف تمزق دماغي . لقد كان في بنيان محبتكما لي ركن ضعيف ، فلماذا ذهبتما من هذا العالم قبل أن تريا ما أنا فيه الآن ؟ ها أنا ذا قد تمزّقتُ في سبيل الراية ، في سبيل الشرف ، وفي سبيل تلك الامور المقدسة

ولما رأى خادمي الجندي مابي أخذ يمسح رأسي بماء الكولونيا ، وينظر

الي بعينين كأنهما كانتا تقولان لي :

ـ لا تبك عينك يا مولاي ، فهما سعيدان بما نالاه من نعمة الشهادة

وحينئذ أمسكت بيد سالم وجذبتها ، ثم نظرت في عينيه وسألته :

ـ هل ترى خطيبتك فاطمة تزداد محبتها لك لو فقدتَ ساقيك ؟

ففتح سالم عينيه كأنه لم يفهم سؤالي ، ثم عادت الى عينيه سذاجتهما الاولى وقال :

ـ وهل أنت تفكر في خطيبتك ياحضرة البك ؟

فسددت فم سالم بيدي ، وأصيب رأسي بدوار .

ترى لماذا هذا القميص الناري الذي ألبسنيه القدر يحاول النفوذ الى دخائل روحي ، ثم تبدو أردانه الحمراء من عيني ومن لساني ؟

* * *

ـ ٥ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

السماء مكفهرّة . وأنا أشعر اليوم بشيء من التعب في رأسي ، وان قلبي ليرتجف ، وكأنما البرق يوزثني ضيقاً فأنا في حاجة الى الراحة والسكينة . وعدا هذا وذاك فاني أحس في نفسي بدغدغة خفيفة تحملني على الابتسام . ولقد أخذت أذكر الآن مدينة الاستانة في أيامها الاولى بعد الهدنة . فان جماعة (قهوة المسرة) اجتمعوا في أحد تلك الايام عندنا في المنزل ، وقرروا أن نساعدهم نحن أيضاً في تكوين تيار الدعوة (البروپاغندة) . وكان جمال أشدهم اندفاعاً ـ بحماسة واخلاص ـ لاعتقاده الفائدة في هذا العمل . أما احسان فكان أكثر تشاؤماً ، غير انه يجاري اخوانه الضباط فيصنع ما يصنعون . وكنا يومئذ نرى ان (بث الدعوة) هو الدواء الاكبر لامراضنا القومية

واني أرجع الآن بذاكرتي الى تلك الايام فأذكرها وأنا أرتجف : ان الانسانية في مجموع الدنيا وسمت جبهتنا بميسم سوء مظلم ، فنحن الذين ارتكبنا مذابح الارمن ، ونحن أعداء المدنية حلفاء الالمانيين أعداء المدنية ، ونحن

الظالمون الهمجيون الذين ينبغي للانسانية أن تزيلهم من الوجود

لم نكن يومئذ يائسين ، وكانت لنا نفوس جديدة غضة كروح الطفل قررنا بها أن نصحح رأي العالم المتمدن . وقد خيل الينا اننا اذا أقمنا البرهان على اننا لسنا ظالمين ، وعلى ان ما قيل فينا كان كذباً ؛ فان أوربا ستسلم لنا حينئذ بحقنا . ولقد أفرغنا حقنا في شكل متواضع يمكن قبوله . ومما قررناه أن تكتب الصحف والمجلات مقالات في هذا الموضوع ونحن نترجمها الى اللغات الاجنبية ونرسلها الى صحف أوربا حتى اذا نشرت فيها نحاول الاجتماع بمن يأتي الاستانة من الاجانب فنقرأها لهم

كان كل فتى من فتياننا يبحث عن واحد من مراسلي الصحف الاجنبية ، وكل سيدة أو آنسة تجتمع بمن يزور زوجها أو أخاها من الاجانب ، فيلقنونهم هذه الحقائق . هذا هو العمل الذي أخذته الاستانة على عاتقها مع ما فيها من عناصر متخالفة ومتعادية

وكنت ترى منزل أمي في مقدمة منازل حي (شيشلي) التي أعدت لنشر الدعوة . فان سنها ومكانتها في المجتمع قد جعلا منزلها ملائماً لهذا العمل

ذلك كان الشغل الشاغل يومئذ لجميع شبان مدرسة دار الفنون ، ولكثير من الضباط ، ولأعضاء الجمعية التركية . وذلك كان عملنا أنا واحسان وجمال . وكانوا يرون أن يستفيدوا من مركزي في وزارة الخارجية . وينظرون الي كأني رجل ممتاز ، لأني أحسن لغة أجنبية

لم يكن أحد منا يومئذ منتبهاً الى ان ما نفعله انما هو ألاعيب صبيانية مضحكة . حتى ان الصحافة التي كانت تنفث سمومها ـ بمناسبة وبلا مناسبة ـ كانت متحدة معنا في الرأي . ولم يشذ عنا في مشروعنا غير الذين ألهم اليهم بعد الهدنة أنهم ليسوا من أصل تركي ؛ فان هؤلاء لم يشتركوا معنا في هذه المساعي ؛ بل كانوا يمثلون دوراً آخر من أدوار الدعوة مع اخوانهم الارمن والروم . . . هذا هو حديث الناس يومئذ في كل منزل وفي كل مجتمع

واذا أرجعت اليوم بصري كرة الى ما كنا نعمله يومئذ أرى ان ما قمنا به من الدعوة لم يكن لاقناع الاغيار، بل لاقناعنا نحن. فقد كان الغليان منا وفينا. أما حركة النشر بالفرنسوية والانكليزية فان ما كان منها لمصلحتنا لم يكن لينتشر في الاستانة فضلا عن أوربا. ومع ذلك فان ما تنشره صحف الاستانة من مقالات المعارضة لايخرج من تحت يد الرقيب الا مثل فم العجوز وقد سقطت أسنانها [1]. وليس هذا مما يجدينا نفعاً. لان الدعوة التي كانت جماعتنا تريد القيام بها هي أعظم وقاراً وأكثر رزانة وأعلى مكانة. فكنا نكتفي بأن نجتمع معاً وننظر في الخطيئات والجرائم التي ينسبونها الينا فنبحث لهم عما هو أعظم منها ونطلق به ألسنتنا، ثم نفترق ساكتين صامتين، كأنما الدنيا كلها قد أصغت الى ما قلناه، واقتنعت به واعترفت لنا بالحق. وكلما ازداد اقتناعنا بحقنا وشعورنا بقوتنا نظن ان الدنيا صارت على علم بذلك؛ ولعل هذا كان أجمل ما في دعوتنا الصبيانيـة المكتومة؛ لان احتمال ما احتملناه في حرب الاستقلال لم يكن ممكناً الا بتوطين النفس على الرضاء بالموت؛ والنفس لا تقدم على مثل هذا العزم الا بعد أن تؤمن بحقها وقوتها

كانت الاستانة يومئذ شطرين: أحدهما أشـبه بالعضو المتقيح؛ فهو ما برح كقلب هذه الامة ينز صديداً ومِدّة. وأما الشطر الثاني ــ وهو عضوها الغض الفتي ــ فكان يؤمن بالخيالات التي يستحيل تحقيقها؛ ويتكلم بمثل كلام الاطفال؛ وهو يعيش بروحه كلها في رؤيا عالم استقلالي جديد

أما حركة الدعوة النسوية في حي (شيشلي) فكانت تديرها الردوسيات، وكلهن متفرنجات يعرفن لغات أجنبية. واني لا أزال أذكر كبراهن حتى في آفاق انقرة المكفهرة: فهي طويلة القامة، قوية الجسم، حسنة الملابس، ذات ارادة وسلطان. ولها عينان سوداوان، ووجه زاهر ذو تقاطيع جذابة. وان أنفها الاقنى ينتهي بفتحتين تشم بهما دائماً من يتهافت حولها من نساء

[1] تشير المؤلفة الى البياض بين الاسطر في المقالة التي تمر عليها يد الرقيب

الاتحاديين الضعيفات القلوب فتصطادهن ؛ فهي من أشد خصوم الاتحاديين تبغضهم من صميم قلبها ، حتى لقد يكون في شدتها هذه شيء من الاخلاص الانساني أحياناً . وانها لتتكلم في ذلك وهي على ظهر الباخرة . أو في قاعة الاستقبال ، أو في أي مكان آخر ؛ فتراها كأنها تمثل دوراً من مأساة ؛ فلا تضطرب ملامحها في شيء من هذه المواقف ، ولا يتغير صوتها ؛ سواء كانت مع شخصين في غرفة صغيرة ، أو تجاه مائة شخص في محفل حافل . وكنت اراها أحياناً وهي مارة وحدها بالسيارة ، فألمح أحد جانبي وجهها الحازم الجميل ، فأتمثلها كأنها مستمرة في القاء خطبتها – في نفسها – بمثل القوة والعزم المعهودين فيها ، فتصب لعناتها على الاتحاديين بخطابة كأنها مطرقة دائمة الحركة

ورأيتها مرة في منزلنا بين عدد كبير من نساء الاتحاديين اللائي يجمجمن في اتحاديتهن ، فكانت تخاطبهن واحدة بعد واحدة بصوتها العالي قائلة :

– أننا سنمسك زوجك الباشا من لحيته فنربطه الى جذع شجرة ثم نحرقه حياً . وأنت سننتزع أعضاء زوجك البك عضواً عضواً . وأما انت فسنصب الرصاص في فم زوجك الباشا . أيتها السيدات ، ان دوركن قد انقضي فلننصب نحن أيضاً تلك المشانق مرةً على رأس (الكوبري)

وكم كانت تجد مالا أتذكره الآن من أمثال هذا القول المخيف مهددة هؤلاء النسوة المسكينات بما ستفعله بأزواجهن . وقد كانت حولها طائفة من نساء (شيشلي) المتعصبات يصغين الى مقال الظلم والفتك الذي يصدر من فمها ، وكان فيمن التف حولها بعض نساء الاتحاديين الضعيفات القلوب ، فهن لا يبرحن مجاسها مهما علا صوتها خشية ان يظهر انتسابهن الى الاتحادية

فكرت بعد ذلك في هذا الامر فعلمت أن الجامع لهؤلاء النسوة هي رابطة حي شيشلي . أما نساء حي استنبول فكن في عالم آخر غير هذا العالم ، وكانت لهن دعوة أخرى غير هذه الدعوة . على ان جميع نساء شيشلي – وعلى رأسهن السيدة سالمة هذه – كانت أعصابهن تكاد تتقطع من شدة توترها

أستعداداً للبطش بأي دعوة يحاول نساء حي إستنبول ان يقمن بها

لقد كنت أنا واحسان في معزل عن كل سلطة معنوية للسيدة سالمة علينا ، ولكنها كانت ذات سلطان عظيم على قلب جمال ؛ فنتشاغل بتدخين سيجارتنا اذا هي تكلمت ؛ ويصغي جمال اليها بكل ما في زرقة عينيه من اخلاص الطفولة . واذا ازدادت ثائرة الغضب في نفسي من أقوالها أراه يزداد حلماً بالاصغاء اليها ؛ ويطيل المناقشة معها ساعات ، وقد تتحول مناظرتهما الى منازعة في بعض الاحيان ، ولكنهما لا يلبثان طويلا حتى يتصالحا

ان الاتحادي الوحيد الذي كانت السيدة سالمة تحتمله هو جمال ؛ اذ لا نكران أن جمالا يعد ـ نوعاً ما ـ اتحادياً

وكانت وراء الجانب الآخر من (الكوبري) حركة نسوية أخرى ، فهنالك مساعي يقوم بها عنصر آخر من العناصر النسوية أحدث شباباً وأنضر فكراً ؛ واعني بهن فتيات دار الفنون من معلمات وشاعرات . فهذه الفئة النسوية لم تكن لتهتم كثيراً بالعنصر المسن من النساء . على انهن كن يدعين الى اجتماعاتهن بين حين وآخر بعض النساء الأسن منهن قليلاً ؛ احتفاظاً بشيء من الشكل الظاهري ليس الا . فكانت قاعة دار الفنون والجمعية التركية مظهر نشاط دائم للشباب من ذوي الطرابيش ولابسات الملاءات . وما أكثر من ترى هنالك من الطلبة الحديثي السن ، الحمر الشفاه ، الذين تقدح النار من عيونهم ؛ وما أكثر من ترى هنالك أيضاً من المعلمات الجميلات . بأحذيتهن ذات الكعوب العالية . ولكن مهما صنع هؤلاء الاستنبوليون والاستنبوليات فهم في نظر أهل الجانب الآخر من الاستانة (حي شيشلي) معدودون من الطبقة المنحطة ومن الطراز التركي . فاذا أرسلت فتيات دار الفنون مذكرة الى احدى السفارات فيما يلائم الدعوة التركية جمع نسوة شيشلي شملهن وأرسلن الى تلك السفارة مذكرة تناقض تلك يوقعن عليها جميعاً من زوجة أصغر موظف في وزارة الخارجية الى أجودهن معرفة باللغة الفرنسية ؛ ويزعمن

في تواقيعن أنهن وجيهات تركيا ونبيلاتها ، وأنهن كن وما زلن صديقات للحلفاء ومبغضات للالمان ، ويكذبن في مذكراتهن ما جاء في مذكرات الفتيات بنات الطبقات المنحطة . وكان التنافس سجالا بين الجانبين : فاذا عقد أحدهما اجتماعا أقام الآخر اجتماعا مثله ، واذا كتب احدهما مذكرة نقضها الآخر بمذكرة تقابلها . أما جماعة شيشلي فتكثر بين افرادها العناصر الاجنبية ، وأما النشء النسوي في استنبول فلا يتصل بالاجانب الا عند تقديم المذكرات الى السفارات : فشابات الاستانه تقتصر مساعيهن في الاكثر على اقناع أنفسهن بأنفسهن ، غير أنهن من عالم أحدث سناً وأنشط حياةً

كانت فئة استنبول ميالة الى احسان ، وكان هذا من المفارقات غير انه هو الواقع . فاذا ذهبن الى دور السفارات يطلبن اليه أن يصحبهن الى الباب على الاقل ، لان في دخوله معهن الى هنالك شيئاً من الغرابة . وكان احسان في روحاته معهن الى السفارات كثيراً ما يرى جمالاً مع الوفد المعارض الذي ترأسه السيدة سالمة . فاذا تقابل الشابان وجهاً لوجه افتر ثغراهما عن ابتسامتين لطيفتين ، غير أنهما لا يتبادلان السلام فيما يتعلق بشؤون السياسة الحزبية . على ان جمالاً كان مخاصاً في هذا الامر ، فهو ما برح يسعى — بمثل روح المبشر — لحمل جماعة شيشلي على الاقتراب من الفكرة القومية . وأما احسان فكان يتحزب للفئة الاخرى لانه رآها اكثر بساطة ، ولعل له في ذلك نصيباً من اللذة الحسية

يالناشئة الاستانة التي كانت تتكوّن يومئذ ما أشد اخلاصها ، وما أغربها وأحدثها ! انى أنظر اليوم في أمر اولئك الاطفال البسطاء وما كانوا يحاولونه من حل مشكلة الوطن العظمى بخطب يلقونها واجتماعات يعقدونها مقاومة لمقالات على كمال بك ومساعي السيدة سالمة ، فأذكرهم ببليغ الحب لهم وعظيم الاشفاق عليهم ، وأضحك قائلا « وما ذا يفيد كل هذا ؟ » ولكن تلك الدعوة التي بدأت في الاستانة بشكل استعراض هزلي ما لبثت أن تحولت الى ميدان دموي رهيب !

- ٢ -

بنت ازمير

- ٦ نوفمبر ، ١٩٢١ -

كان جمال أول من علم باحتلال اليونانيين ازمير ، فتلقى ذلك النبأ بعزيمة تحير العقول . وبقي مثابراً على حضور جمعيات الدعوة مدة يومين بعد ذلك ، غير أنه لم يكن يقرّ له قرار ، قلقاً من انقطاع أخبار شقيقته عائشة ؛ فكان يذهب في كل يوم الى مكتب التلغراف ثم يعود صفر اليدين

بعد مضي خمسة أيام طرق احسان في الصباح غرفة نومي دون أن يرسل لي خبراً مع الخادم ، وكان وجهه ممتعضاً ، فقال لي :

- يا بيامي ، ان اليونانيين مزقوا جسم مقبل بك ، وأصيب ابنه حسن برصاصة فمات . ويقال ان السيدة عائشة جريحة ، وقد التجأت من مزارعها الى منزل أسرة ايطالية في ازمير . ذلك ما علمته البارحة من ضابط شاب فر من ازمير . فكيف نحتال بايصال هذه الاخبار الى جمال ؟

قفزت - عند سماع ذلك - من سريري ، وأسرعت الى الباب فاوصدته ، كأني جزعت من دخول جمال علينا . ثم أشعلت سيجارتي وجعلت أتساءل في نفسي : رباه ، ماذا يجب أن نفعل . ثم قلت :

- يجب علينا أن نبرح هذا المكان قبل أن يستيقظ جمال ، فانا أفضل أن يسمع الخبر من غيرنا

وفي المساء نقلت فراش جمال الى جانب فراشي ، ولما جئنا لننام اقفلت الباب وجلست الى جانبه ولم أدع أحداً يدخل علينا حتى والدتي والخادم ؛ لأني أريد أن لا يرى أحد جمالا في تلك الحالة من الاضطراب والضعف ، على أني لم أدرك غور هذا الاضطراب ومبلغه ؛ فكنت أنظر اليه وقد تهدلت شفتاه ،

وانطفأت عيناه ، وبدت غضون الشيخوخة حول أنفه ؛ وارتخى ساعداه الطويلان الى جانبي ركبتيه وقعد بمثل سكينة الاموات. ونزلت في الليل مرة أو مرتين ، فكنت أمشي على أصابع رجلي لئلا أزعجه ؛ وفي كل مرة أرى والدتي قد احمرت عيناها ؛ وامامها احسان جالس كأنه ينتظر الموت. وكلما دخلت عليهما ينظر لي احسان نظرة كأنه يقول لي بها :

ـ اني هنا أيها الاخ

بقي جمال تلك الليلة راقداً لا يتحرك حتى الساعة الثانية عشرة كأنما هو نائم ، أو كأنه استنشق بنجاً. ثم عاد فجأة الى الكلام ؛ ولكنه لم يذكر مقبل بك ولا طفله الشهيد ببنت شفة ؛ لأنه كان رازحاً تحت عبء فكرة سيئة مخيفة

لا طاقة لي الآن على اعادة ما كان يسره الي من أقوال السوء ؛ وأذكر اني اجبته من روح كلامه اذ قلت له :

ـ لا ياجمال ، لاتدع هذا الامر يخطر على بالك ؛ ان عائشة ترضى بالموت وتفضله على ذلك . اني أقسم لك على ما اقول كأني حاضر معهم

ولحسن الحظ جاء تلغراف من ازمير في مساء ذلك اليوم بأن عائشة تصل الى الاستانه بعد ثلاثة أيام

كان يوم الخميس موعد وصول عائشة ؛ وفي يوم الجمعة كانت ستقام المظاهرة الشهيرة في ميدان السلطان أحمد . وان حركة الدعوة التي ابتدأت بشكل رواية هزلية مالبثت أن تحولت الى ميثاق تقدس بالدم والنار ؛ وبينما كانت الغاية من تلك الحركة أن يبرهن القائمون بها لاوربا على براءتهم مما يعزى اليهم اذا بها قد صارت تشبه صيحة المظلوم في وجه ظالميه

وقامت مظاهرة السلطان أحمد وانقضت ، فكانت الاندية الافرنجية في الاستانة واقفة موقف التردد بين أن تحكم على هياج الاستانة بأنه عمل جدي أولا تحكم . اذ ما يخافه الاوربيون من غضب أمة لا سلاح عندها ولا جيش ؟

ذهبنا مع جمال صباح يوم الخميس ، لاستقبال عائشة على الباخرة القادمة من ازمير ، وكان رصيف المرفأ مزدحماً كموقف الحشر ، والشوارع لا تزال مفعمة بنسيم العبوس والغضب الممزوجين بالذهول . وفيما نحن في ذلك الزحام لمحت احسانا من بعيد ، فتظاهر بأنه لم يرني ، وكنت أعلم انه ابتعد لئلا يكون معنا

صعدت الى الباخرة واستندت الى المرفأ أنظر الى تداعب الاروام من لا يعي القبعات . وأصغي الى قهقهتهم ، وذلك بشيء من حس القسوة أشعر به في قلبي . ثم انتبهت على صوت جمال وهو يقول لي :

ـ هذه عائشة يا بيامي ؛ ولكن بما ذا أنت مستغرق أيضاً ؟

نظرت ، فرأيت الى جنب جمال امرأة ربط ساعدها بضماد ، وتسربلت كلها بلباس أسود قاتم . فقلت في نفسي : ـ لقد جاءت ازمير !

ومدت عائشة الي يداً كبيرة طويلة بيضاء ، فصافحتها . ثم رفعت رأسها ومشت بيننا وهي ساكنة . وان عينيها الدعجاوين تحيط بهما أهدابها السوداء كانتا كمدينة (ازمير) الحزينة وهي ملتفة بأشجار الزيتون التفاف الثاكل بالسلاب [1]. ولم تكن تبدو على وجه عائشة قطرة دمع ، ولا أثر للجزع ؛ رغم ما تعانيه من بليغ الآلام ؛ وانما تبدو عليه ملامح الظلمة متأصلةً في غور عميق ... وكنت أنظر من جانبها الى ما تحت حاجبها الرقيق من اطار عينها ذي الأهداب السوداء ، وأنفها الطويل قليلا . ولما لفتت رأسها لتنظر الى الباخرة التي جاءت بها رأيت في وجهها ما هو أجدر بالتأمل من عينيها . أعني شفتيها اللتين يصدق فيهما قول (أوسكاروايلد) : « انهما كالرمانة الحمراء قطعت بسكين ذات قبضة من سن الفيل » . ففي هاتين الشفتين الواسعتين وما بينهما من أسنان قوية بيضاء كالصدف صفات ومحاسن لانهاية لها

ولما وصلنا الى أول (الكوبري) شعرت بيد من ورائي أوقفتني أمام عربة استغربت كثيراً كيف جيء بها الى هناك وسط ذلك الزحام العظيم ،

(١) السلاب (بكسر السين) الثوب الاسود تلبسه المرأة في حدادها

وكانت تلك اليد يد احسان الذي أشار الى العربة وقد فتح الحوذي بابها ؛ ثم أراد أن ينسحب فرآه جمال وناداه بصوت مرتجف :

ـ الى أين تهرب يا أخي احسان ؟

ثم عرّفه بأخته فقال : ـ عائشة

وقال لها : ـ صديقي احسان

واني أقسم بأن عائشة نظرت بعينيها الدعجاوين وهي لا تبصر احسانًا ، ومدت اليه يدها البيضاء دون أن تراه . وأما احسان فوضع على ظاهر أناملها البيضاء قبلة قدسية حارة كما كان قدماء العثمانيين يقبلون الاهداب المتدلية من ضريح سلطان قديم اذا جاءوا للتبرك بزيارته

واعتنقت والدتي ضيفتها عائشة فقبلت وجنتيها ، ثم صعدنا بها الى الغرفة المخصصة لها وتركناها مع أخيها جمال

وفي المساء نزلت عائشة ويدها في يد أخيها كأنهما طفلان . وكانت عيونهما حمراء منتفخة . وان ملامح جمال تدل على انه نزل على حكم أخته مذعنًا لارادتها ، وهي قد اشتملت عليه اشتمال الضارب في المفازة الشاسعة على أول رفيق يأنس بلقائه فيها

وكانت عائشة اذا نظرت في عيني جمال غيمت عيناها ، وجاش حزنها ، كالعاصفة التي ستثور . ولكن كل هذه الغيوم كانت تتبدد اذا نظرت في عيني احسان الزرقاوين فقرأت فيهما معنى قوة الرجولة وعاطفة الاخاء

وفي اليوم الثاني (الجمعة) ذهبت عائشة معنا لنشهد المظاهرة ، فكانت في الازقة سكينة ذات معنى . فالمسلمون قد التزموا الصمت البليغ ، غير أن الكدر بادٍ على وجوههم . أما المسيحيون فكانوا جميعًا في قلق ، وهم مترددون بين أن يتعرضوا للمسلمين فيستهزئوا بما هم فيه وبين أن لا يفعلوا ذلك . وفي الحقيقة ان القروح التي ظهرت في جسم هذا الوطن لم يكن بينها أبشع قبحًا من قرحة تطاول الوطنيين المسيحيين على مواطنيهم ، ومجاهرتهم اياهم

بالعداوة والبغضاء ، اعتزازاً بما يلقونه من مظاهرة انكلترا وفرنسا لهم . لذلك كان مما يستحق النظر والتأمل ذلك الازدحام الذي رأيناه عندما أردنا ركوب الترام في محطة عثمان بك ، ولكننا لم نستطع مشاهدة جزئيات الحوادث ، اذ كان لنا شاغل عن ذلك من عائشة المكسورة الساعد ؛ بل من المأساة القومية التي كانت مصيبة عائشة علامة لها . على أننا كم ذا رأينا في ذلك اليوم !

ولما نزلنا من الترام في (أياصوفيا) تعبنا كثيراً في فتح طريق لعائشة وسط الزحام العظيم ، حتى اذا وصلنا الى حديقة ميدان السلطان أحمد لجأنا الى موضع أمام الحاجز المحيط بها . ونظرت فاذا سطوح مدرسة السلطان أحمد وجميع المباني المتصلة بها مكتظة بجماعات الناس كأنهم العنب في عناقيده . وطريق الترام ينحدر منه الناس انحدار السيل ، وهم في صمت بليغ تسمع معه وقع اقدامهم

ذلك هو اليوم الذي رأيت فيه تركيا الحقيقية للمرة الأولى ؛ لأن الاحياء الوطنية ــ وهي سر الاستانة المكنون ــ فتحت يومئذ فمها وأفرغت سكانها في تلك البقعة ؛ فرأيت عجائز كثيرات وشيوخاً كثيرين ، وهؤلاء هم شيوخ الاستانة وعجائزها الذين مابرحوا حلفاء الكآبة والصمت والانزواء . ورأيت أعناقهم المتجعدة بادية من معاطف وثياب لا أدري من أزياء أي العصور هي ؛ فكانوا في هذه المظاهرة يبكون بدموع تنحدر على لحاهم البيضاء ، وعجائزهم ملتفات بملاءاتهن الحريرية الواسعة وقطرات الدمع تسيل في غضون خدودهن . وما أكثر من شهد هذا اليوم من النساء اللابسات ثياب الشيت بين صفراء وحمراء وقدتدلت ذيولها من تحت ملاءاتهن القصيرة ؛ وهن يسرن بعيون احمرّت من الحزن ، ووجوه تشبه وجوه النساء اللائي هاجمن قصر فرساي في الثورة الفرنسوية . ولم تكن الواحدة منهن تبصر ما أمامها ولا ماوراءها لشدة الزحام . وكان يتفق وجود الشيال بجانب الشاب المتعلم . والمرأة العاملة من ساكنات حي (قره كمرك) في جانب السيدة

المتأنقة الفتية ذات الكعب العالي . وبالجملة فان ذلك الميدان كان كالبحر المتموج ببني الانسان ، وان امواجه لتنحدر من أطرافه بهدير غير ذي صوت. أما أواسطه التي كانت متكاثفة جداً فكانت كأنها واقفة لا تتحرك . وكان بناء السجن والمآذن البيضاء المرتفعة فوق جامع السلطان أحمد تطل على هذا المركز الحي وكأنها تسير معه ، وعناقيد البشر متدلية من المباني التي حول الميدان ومن الاشجار القائمة في ساحة الجامع . والرايات السوداء الممتدة من المآذن البيضاء كانت في بعض الاحيان تمس رؤوس الناس ، وأحياناً تقع بين اسراب الحمامات البيضاء ، فتفزع منها طائرة في السماء الزرقاء . وهنالك عجوز استندت الى حاجز حديقة السلطان احمد ، وأخذت تعول بصوت عال تخرجه من فم سقطت أسنانه ، وتبكي بدموع تنحدر من عينين منطفئتين على خدين جعدتهما الغضون حتى جعلتهما كالحقل المحروث . وكل من كان يدخل من منفذ (أيا صوفيا) ويرى الراية العثمانية بلونها الاسود لا يتمالك عن البكاء

وان الفتيات ، حتى أشدهن عناية بصبغ بشرتهن ، نسين ما في عيونهن من كحل فكن يبكين وينحدر الكحل والاصباغ من وجوههن مع دموعهن

اخترقنا الجموع المزدحمة بصعوبة عظيمة ، وحاولنا الوقوف على درجات السبيل الذي أقيم تذكاراً لزيارة أمبراطور المانيا ، لنتمكن من سماع الخطب : فرأينا هذا الزحام العظيم ينفرج لمرور فوج من الضباط والجنود ممن شوهتهم الحرب : فبعضهم قطع ساقه فاستعاض عنها بساق من خشب ، وبعضهم فقد ذراعه ، وبعضهم عميت عيناه فقاده الى هذا المكان رفيق له أعرج . وكان هؤلاء أسبق الناس الى معرفة هذه الزلزلة التي أصابتنا في القلب والدماغ ، وأشدهم ادراكاً لهذه المصيبة الكبرى التي لم أكن بعد قد فهمت معناها جيداً . ولقد حضر هؤلاء المشوهون مظاهرة اليوم بعد أن استعدوا لها : فلبسوا أحسن ملابسهم ، وحلقوا شعر وجوههم ، وساروا صامتين منكسين رؤوسهم ، كأنهم ذاهبون الى حفلة دينية

ولما تمكنا من صعود درجات السبيل علت الاصوات الرهيبة بالتكبير ، فماج بها سطح هذا البحر الانساني . وبينما كانت موجة من موجات الصوت ترتفع من مكان منخفض ، وكأنها تمتد من تحت الارض الى ظاهرها بجمال جذاب بديع ؛ كان صداها يتردد في الاعالي ، في أعالي المآذن البيضاء ، المتدلية منها الرايات السوداء ؛ ولكن صدى موجة الصوت كان أشد حدة من الموجة نفسها ، وأكثر حرقة ، وألطف رقة ، تمازج ذلك كله رنة حنق وغضب لذيذة ذات حسن فتان ، فتملأ الاجواء حتى تضمحل فوق بحر مرمرة ؛ حتى اذا ملأ ذلك الصدى الاسماع تموج الناس واستداروا نحو مصدره . وكان ما بين المنارتين البيضاوين مفصولا بفاصل من زرقة الهواء ؛ وأمام ذلك شجرات قديمة من شجر الدلب وضع وسطها مقعد أسود صغير من فوقه تلك الاعلام السوداء ؛ فمن حول ذلك كانت تعلو موجة التكبير . وان صوت الاعالي الرقيق كان له مثل عظمة الدوي المتصاعد من أفواه جماعة (المولوية) على الارض . وفي هذا الوقت كان المشوهون من ضباط الجيش وجنوده قد وصلوا الى ناحية المقعد الاسود . فالتفوا حوله في نصف دائرة كالهلال ؛ لانهم كانوا قد فهموا كما فهمت الاستانة كلها ان من باب وضع الشيء في محله أن يجتمع بمحراب هذا الوطن أيام أحزانه وأعياده هؤلاء الذين تمزقوا في سبيله

أما أنا فلم اكن أفهم هذه المعاني . ولا أعلم ما اذا كان القوم في موكب جنازة لعزيز عليهم ؛ أم انهم يشتركون في حفلة زفاف دموي خالد . والا فكيف يتيسر اجتماع مائة الف شخص اجتماعاً لا يتيسر الا بمعجزة ، ثم تسقط من بينهم التكاليف . ويتجردون من أنفسهم ومما لانفسهم من الف علاقة وعلاقة ، ثم يكونون كرجل واحد ، ولما نفخ في بوق الحرب وسط ذلك الجمع استنشق واحد أو اثنان من الفرنسو بين ريح الثورة فانطلقا كخيل الحرب العتاق حتى دخلا من تحت الراية القومية السوداء بين جنودنا المشوهين وقد نسيا انهما كانا في الامس يتحاربان معهم وجهاً لوجه

ولم نكن في موقفنا هذا نستطيع تمييز الذين على المقعد ، ولا سماع اقوالهم ، الاّ مايرتفع احياناً من صوت حاد يخرج من فم احدى السيدات فيشق الفضاء ، او كلمات ضئيلة يقولها احد الرجال فيبددها الهواء ، غير اني تمكنت من معرفة محمد امين بك برأسه المشتعل شيباً ، فتمثلته قديساً من قديسي القومية ووليّاً من أوليائها ، وكان منحنياً الى جانب الجنود الذين كانت صدورهم الواسعة المعتلة ترتجف في هذا الموقف بعد أن كانت ملأى بالسكينة والثبات يوم كانت تقف تجاه المدافع ، ورأيتهم منكسي رؤوسهم يعولون بالبكاء

وشعرت بعائشة تعول هي أيضاً مع جمال بالبكاء وهي الى جانبي ، ولما التفت اليها رأيت وجهها مبرقعا بمعاني الآلام ، والدموع تنحدر من عينيها قطرة قطرة متصل بعضهن ببعض كسبحة من البلور الرقيق تسيل من اهدابها السوداء الطويلة على وجنتيها

آهٍ يابلادي البيضاء الجميلة ! لقد مرت بهذا الميدان مواكب كثير من الامبراطورين والامبراطورات فشهدوا فيه حلبات السباق واستعراض الجيوش ثم ذهبوا ، ولكن هذا الميدان الازلي لم تقدسه قبل الآن دموع الامة كلها في مواكب تحف بها مهابة البيزنسيين أو العثمانيين ، فهل روح الاسرار العلوية التي ولدت تركيا الجديدة هي التي علمت هذه الامة القيام بهذه المراسم ؟ أم ان زوبعة الاضطراب الدموي التي هبت في ازمير فمرت بروابيها الزمردية وفاكهتها الذهبية وكرومها العسلية ستعود فتهب في هذه العاصمة ؟

وفي خلال ذلك سمع حول المقعد صوت كأنه خارج من أعماق البحر ، فكان له في الهواء تموّج عميق خيل الينا معه أن أرواحنا اجتمعت في آذاننا عند اصغائنا اليه . لقد كانت طيارتان سوداوان تجولان فوق المآذن ، ولكن الذي كان الناس يشعرون به في تلك الساعة أشدُّ من الموت ، فلم يرفع أحد نظره الى الطيارتين ليراهما . ولم يبال أحد بوجودهما

وكان البرق يومض خلال دموع عائشة المتساقطة من عينيها ، ولعله كان يومض أيضاً في عيون خمسين ألفاً من لابسات الملاءات في ذلك الاجتماع . ثم افترقنا وقد تزوّدنا من اجتماعنا بقوة عجيبة وعزاء غريب

وفيما نحن منحدرون مع ذلك السيل العظيم من البشر ، سالكين في الشارع المتسع الذي يؤدّي الى (البارك) ، التحق بنا من قهوة المسرّة ثلاثة شبان من معارفي الضباط ، وهم خيري وسالم وأحمد سليم ، وكانت وجوههم المستديرة قد انعكس عليها وميض النور الذي كان بادياً ساعتئذ على وجوه الناس جميعاً . ولم يكن هنالك سبب واضح يبعث في الناس هذا الامل ، ولكن الامة كانت في هذه الحملة قد تتوجت بتاج الام المظلومة فشعرت بأن كل انسان سيكون بعد الآن ظهيراً لها ، ورأت في ذلك العزاء الكافي ، فقالت « ان الشعوب صديقة لنا ، وأما الحكومات فعدوّة لنا »

تناول الضباط الثلاثة يد عائشة فقبلوها ، ولا بد أنهم علموا بالكارثة الحيوية التي أصابتها فأثارت في النفوس من الهيبة والرهبة مثل الذي أثارته الرايات السوداء المتدلية من المآذن ، ولا غرو فان يد عائشة المكسورة أصبحت علماً حياً لما أصاب الامة من المصائب المؤلمة ومانزل بها من الذل الدموي

مشينا كلنا معاً في موكب المظاهرة حتى اجتزنا الكوبري ، فلما بلغنا حي (بك أوغلي) وجدنا أهله الاقوياء المسلحين قد تواروا من كل الشوارع اذ قيل « جاء الترك » ، فسرنا حالمين ـ ولو الى وقت قصير ـ أننا في بلادنا حتى وصلنا الى حي (شيشلي)

* * *

ـ ٧ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

مابرح الثلج يهطل اليوم بكثرة ، وما أشد البرد الذي أشعر به في النصف الباقي من ساقيّ ، حتى أني لم أنم في الليلة البارحة ، فتذكرت الايام العصيبة التي مرت علينا بعد مظاهرة السلطان أحمد . أيام كانت عينا عائشة الخضراوان

ترمقاننا باحزانهما كأنما هي تطلب منا شيئاً ، فتتفتت قلوبنا بنظراتها . اجل ، ان عائشة تطلب منا أمراً ، وانه ايجابي ورهيب ! فماذا تريد ياترى ؟ ان في عينيها كارثة حمراء سوداء ، فما ذا تريد ياترى ؟ لقد كان كل واحد منا يبحث عن ذلك في ذهنه على حدة ، ويرسمه بشكل من الاشكال ، ولكن لم يكن شيء من ذلك بالبساطة الرهيبة التي أعربت هي لنا عنها في أحد الايام

كانت عائشة لاتكاد تتكلم . وكان على جسمها ثوب أسود لاتفارقه . وان ساعدها الايسر لايزال ملفوفاً بضماد ابيض . وفوق قبتها المفتوحة قليلاً عنقها وشعرها الاسود المقصوص ورأسها الذابل الذي يرى كأنه تمثال من سن الفيل القديم . وان عينيها الخضراوين الحزينتين وشفتيها الحمراوين الكبيرتين كانا كنغمتين من نغمات الالوان في هذا التمثال النسوي المؤلف من البياض والسواد . أما عيناها فانهما بما عليهما من حجب حريرية سوداء يبعثان في الذهن ذكرى ازمير المحترقة . وأما شفتاها فتذكرانا بزهرتي القرنفل والرمان الاناضوليتين ، وبنوع من فاكهة جزيرة سرنديب التي هي مجلى أنضر النباتات الزاهية الالوان

وكنت أنظر اليها في بعض الاحيان فيخطر في بالي ان رأسها الصامت غير جميل ، وان فمها كبير ، وان في أنفها طولاً ، وان عينيها كثيرة الاحزان . ثم أنظر الى ما لها من التأثير على كل من تراه فأعترف بأن من وراء أشكالها هذه ناراً تتلظى ، أو نوراً يسطع . وقد يخيل لي في بعض الاحيان انها امرأة اتكالية بائسة قد كفنت في أحزانها ، وأعود فألمح نظراتها الصامتة الملتهبة وشفتيها المبدعتين فأراها حينئذ مخيفة في بساطتها السوداء من فرعها الى قدمها

ان سكوتها قد جعل آلامها وأسرار قلبها كبيرة في عيوننا ، وأودع في قلوبنا حرقة الشوق الى كشف تلك الاسرار . حتى أن احساناً لما صحبنا مع اخوانه الى باب المنزل في يوم المظاهرة اومضت عيناه وميضاً غريباً وهو ينظر الى دخولها المنزل في ظلالها السوداء الواسعة فقال « سر اسود »

وكنا أنا واحسان وجمال وامي جالسين ذات مساء نشرب الشاي ؛ وكان ذلك بعد المظاهرة بخمسة أيام أو ستة ؛ فكانت عائشة تقوم بين حين وآخر فتقف حول مائدة الشاي تساعد بيدها القوية الكبيرة . وهي اليد الواحدة التي تستطيع العمل بها . وكان احسان الرجل الوحيد بيننا الممتاز برقته وخدمته للنساء . فقام أخيراً وأقعد عائشة ووضع لها شايها أمامها ؛ حتى أنه قطع لها المعجنات . أما جمال فكان على مقعده يمزج دخان سيجارته ببخار السماور

في خلال ذلك طرق الباب ، وبعد دقيقة دخلت علينا السيدة سالمة بالمعهود من عظمتها وكبريائها ؛ وكانت لابسة كسوة كلها من الطراز الفضي . ومن عادتها أن تعرض عني وعن احسان بدعوى أننا ضعيفا الرأي خاملان . وكانت تعرف مكانة أمي وأهمية منزلها بين منازل شيشلي فهي تريد أن تبسط عليها سلطانها . ولما كانت تحب جمالاً أكثر من غيره فقد كانت في تلك الليلة توجه اليه كل التفاتها. وكان اجتماعها بعائشة لاول مرة ، فبعد أن تبادلتا التحية نظرت الى عائشة نظرة بملء عينيها وبطول قامتها وقالت :

ـ مثل هؤلاء النسوة البريئات يتحملن الآن عواقب جرائم الاتحاديين!

أما عائشة فكانت كأنها غيرشاعرة بوجود السيدة سالمة ، وكان من عادتها أن تتبادل التحية مع المترددين على قاعة أمي ؛ وأن تجول بينهم ، غير انها تظهر بأطوار المرأة الغريبة عنهم ؛ ولم يكن ذلك ناشئاً عن سذاجتها ، ولا عن اعتقادها بأنها دونهم منزلة ؛ حتى ولا عن شدة أحزانها ؛ وانما كان فيها من الاخلاص البعيد الغور ما يجعلها في معزل عن هؤلاء الناس الذين لا ينفذون الى أعمق من سطح عينيها . وكانت أطوارها هذه تحول دون توجعهم لها ومزاحهم معها أو محاولة الظهور بمظهر الحماية عنها . ولم تسبر السيدة سالمة غور عائشة ، فكانت في نظرها امرأة ساذجة لا تتكلم لغة أجنبية . ولا مكانة في نظر السيدة سالمة للمرأة التي لا تعرف الفرنسوية أو الانكليزية

ان كلمات السيدة سالمة عن العاقبة المؤلمة التي آل اليها أمر مقبل بك قد

أخافت جمالاً اكثر مما أخافت عائشة . فكان يروز عائشة محدّقاً فيها بعينيه الزرقاوين ومستفهماً . أما عائشة فكان وجهها هادئاً كالبحيرة التي لاموج فيها ولا نسيم . وكانت السيدة سالمة لا تزال تجيل بصرها اللامع في أعالي رؤوسنا ، ثم قالت :

ـ ياعزيزي جمال بك ، يوجد الآن مراسل لبعض الصحف الانكليزية يجمع الانباء عن بلادنا . وقد فهم منا أنه لم يبق أحد من الاتحاديين ، وان الناس كلهم أصدقاء للانكليز ، وان احتلال اليونانيين ازمير كان له وقع سيء علينا . وأعلمناه بوصول احدى نزيلاتنا من ازمير بعد أن قتل اليونانيون زوجها وطفلها وانها هي نفسها جريحة . واننا سنأتي به الى هنا لتقص عليه السيدة عائشة ما شاهدته من أعمالهم هناك

فقالت عائشة : ـ ليس في طاقتي أن أقص عليه شيئاً يا حضرة السيدة

فأجابتها : ـ لا بأس ، دعيه يجتمع بك ، ونحن نفهمه تفاصيل الكارثة التي وقعت في ازمير كأننا نترجم له أقوالك

لم يصل غضب عائشة الى درجة الخطر عند سماعها هذا القول ، وانما لاحت موجة حمراء على جسمها الذابل الضعيف ، وقالت :

ـ أنا لا أريد أن ينقل شيء عن لساني

ولما لفظت كلمات التمرد هذه من فمها بدأ جمال يشعر بالخوف من نتائجها ، وقام من مقعده قلقاً مضطرباً . ونظر بعينيه الزرقاوين الى عائشة ، فعادت اليها السكينة في الحال ، ولم تكن لتعود اليها الا بمعجزة ، ثم قالت :

ـ ان كان جمال يريد فاني سأكون معكم اذا حضر الضيوف

فاستشاطت السيدة سالمة غيظاً وقالت :

ـ عفواً ياحضرة السيدة ، فاني لم أشأ أن ألحق بك شيئاً من الاذى . وانما الذين أوصلوا المملكة الى هذه الحالة السيئة هم أزواجكم البكوات والباشوات . ونحن الآن في حاجة الى استمالة الممالك المتمدنة . واكتساب عطفها ورحمتها ،

لنخرج من المصيبة التي وقعنا فيها . واذكري ان الاتحاديين شنقوا أزواجنا واخواننا على رأس الكوبري . فماذا نصنع ؟

أجابتها عائشة : ـ أنا لا أعرف السياسة يا حضرة السيدة ; ولكني لا أطلب من أحد عطفاً ولا رحمة

قالت هذا ولم تعد تجيب السيدة سالمة على ما ألقته من الخطب الضافية ، وعلى ما أبدته من حدة وغضب

وانتهت العاصفة أخيراً . فعينت السيدة سالمة وجمال أسماء الذين سيدعون للحضور ، وكان منهم أمير الألاي حشمت بك

* * *

ـ ٩ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

لا أزال أذكره بكل ما يثور في دماغي من غضب وألم : فقد كان جالساً في الغرفة كأنه لم يكن معه أحد . وكانت ساقاه الطويلتان وركبتاه تبدو هيأتهما من تحت سراويله ، وهو لا ينفك يحرّك رجليه الكبيرتين الرقيقتين . أما رأسه الخفيف الشعر فكان أشبه بالباشق اذا نتف ريشه . وله أنف كبير معترض . وعينان عكرتان صغيرتان زرقاوان كالخرزتين يرسل منهما في الهواء نظرات بليدة . واخص سماته شارباه المسبلان على شفتيه وليس لشعرهما لون يعرف ، وانك لا تستطيع أن تعلم ما اذا كان يبتسم أو يهزأ أو يتكلم من فمه المستتر وراء ذلك الشعر الشنيع . وأكثر ما يشغل فكر الناظر اليه أسنانه الصفراء القليلة العدد الشبيهة بالفؤوس ، فكأنها كانت تبدو من فمه المستتر وهو يضحك ضحكة الاستهزاء القاتلة . ذلك هو أجهل وأحط نموذج لظلمة المستعمرين في الامبراطورية البريطانية : فهو متغطرس ، أناني ، مستخف بغيره ، سكران بخمرة الدهر ، يسحق تحت حذائه ـ في سبيل هواه ـ أبناء المستعمرات الذين يدعوهم « السكان المحليين »

وكان أمير الألاي حشمت بك قاعداً برأس ذي فودين ابيضّ شعرهما ،

وهو منتصب شأن الجندي المتين . وأحد الباشوات كان يتكلم عن مبادىء الرئيس ويلسون . والسيدة سالمة ؛ تلك التي كانت تنظر الينا برأس النسر من أعلى الى أسفل ؛ ذابت امام ذلك الرجل المتغطرس كأنما هو في نظرها أقدر انسان في الكون ؛ فكانت تحاول استمالته واستلانته بأساليب الرقة والتواضع . أما جمال فكان صامتاً يصغي وكأن في عينيه الوقورتين المخلصتين صبراً لا نهاية له . وعائشة قاعدة بعيداً وعلى رأسها حجاب أسود وكأنها لم تكن تفهم شيئاً . وان ذراعها المكسور كان للمرة الاولى مجرداً من ضماده الابيض وقد استطاعت أن تظهره بشكل لا يدل على انه مكسور ؛ كأنها لا تريد أن تبعث في النفوس حس الاشفاق عليها والتوجع لها

يالذلك اليوم من يوم ضنك وعبث وألم ! فقد كان المراسل يتلطف أحياناً فيقابل بيانات السيدة سالمة بتحريك رأسه ؛ وكان يقول بلغة فرنسوية تخرج كالصفير القاتل من بين شفتيه المتواريتين :

ــ تحاولين عبثاً أيتها السيدة ؛ فان انكلترا لن تغتفر اساءتكم اليها . انكم قتلتم في الدردنيل ستين الف انكليزي

فتجيبه السيدة سالمة : ــ ان الاتحاديين هم الذين فعلوا ذلك يامستر كوك ، فنحن لم نرغب في الحرب . واننا مستعدون لتقديم كل تضحية في سبيل الحصول على صداقة الانكليز

فاعترضها حشمت بك قائلا بسكينة :

ــ لا ياحضرة السيدة لم ينفرد الاتحاديون في الدفاع عن المملكة والمقاتلة في سبيلها

فلمعت عينا المستر كوك بوميض المكر وقال :

ــ تريد أيها الكولونيل أن تفهمنا انك من غير الاتحاديين . انكم جميعاً تتكلمون بنغمة واحدة من باشواتكم الى نسائكم . فأين كنتم اذن عند ما أعلنت الحرب ؟ ولما ذا أسأتم الى الاسرى الانكليز ، ولما ذا ذبحتم الارمن ؟

ثم كيف تعرضتم للوقوف في وجه أمة عظيمة كالامة الانكليزية ، فأضعتم أموالها ودماءها وأوقاتها طول هذه السنين . ان انكلترا لن تغتفر ذلك لكم

فقال حشمت بك :

ـ لم أكن يا مستر كوك أحسب انني في محكمة نصبتها انكلترا لمحاكمتي . فنحن قوم نحاول ازالة سوء التفاهم ، وقد أخبرتنا السيدة سالمة بأنكم أردتم الاجتماع بنا ، فجئنا الى هنا لهذه الغاية

فقال مستر كوك : ـ نعم ، نعم ، أيها الكولونيل ان التفاهم ضروري . فيجب اسدال الستار على ما مضى وأن تتفاهموا معنا . ان الحماية البريطانية ...

وقبل أن يتم كلامه قرع الباب ودخل احسان وأربعة من زملائه الضباط الشبان . فاستمر مستر كوك في كلامه :

ـ أجل ، ان الحماية البريطانية هي ما يجب أن تطالبوه جميعاً قبل كل شيء . انظروا الى الهند ما أعظم السعادة التي هي فيها ! كلهم يضرعون الى الله بأن لا يحرمهم سلطة الرجل الابيض . ولست أدري ما اذا كانت انكلترا تابي طلبكم فتتولى هذا العمل الشاق ، ولكنكم أنتم أنفسكم لا مخرج لكم مما أنتم فيه الا بذلك . ثم ان هناك ستين الفاً من الانكليز قتلوا في الدردنيل ، فاذا أخلصتم في ندمكم على ذلك فلا يبعد أن تغتفره انكلترا لكم

ولما قال مستر كوك ما قاله سادت في القاعة سكينة باردة ، حتى كأنّ برودة الجو نزلت الى ما تحت الصفر ، واني لم أستطع أن أنظر الى وجوه العسكريين . أما السيدة سالمة فقد اشتدت حمرة وجهها ، وشرعت تقول بفرنسوية رقيقة جداً :

ـ آه أيها السيد ، اننا سنحمل انكلترا على اغتفار ذلك لنا بلا ريب

وسمعنا صوتاً يقول :

ـ من شاء من الانكليز عفواً فليمنحه الانكليز عفوهم !

فدهشتُ بغتة من هذا القول . ومشى احسان قاصداً عائشة . كأن هنالك

خطراً يهدد أحبّ الناس اليه . والتفت اليها حشمت بك والضباط الشبان بل والباشا الملكي

ان عائشة هي صاحبة تلك الكلمة . ولم تتزحزح عن مكانها ؛ ولم تظهر حركة ما على وجهها . وقد لفظت كلمتها بلغة فرنسوية صحيحة ، وهي تحدق بحدقتيها السوداوين ؛ فيرى فيهما الرائي اعتماداً على النفس بعيد الغور ؛ ومقدرة لاقرار لها . ثم استمرت عائشة في كلامها كأنها لم تشعر بالحركة التي حدثت حولها فقالت :

ـ اننا يوم كنا نحارب في الدردنيل لم نكن ثواراً ولا عبيداً . بل كنا نحارب كأمة شريفة ؛ فقتلنا منكم وقتلتم منا . ومتى كانت الامة التي تحارب ثم تنكسر تسمى قاتلة ؟

فقال لها مستر كوك :

ـ وهل الدم الانكليزي والدم التركي شيء واحد أيتها السيدة ؟

فأجابته عائشة :

ـ انني لم أنثار الى الدم الانكليزي بالجهر ؛ ولذلك لست أدرى أهو أحمر كدمنا أم أزرق . أما الدم التركي فاني أعرفه : انه أحمر وحارّ كالجمر

ـ حسن أيتها السيدة ؛ واني ما أهنت الدم التركي ؛ وانما أردت أن أقول انكم في حاجة الى أن تحملوا الانكليز على أن يعفوا عنكم

فقالت عائشة :

ـ والذين قتلوا ولدي ؟ ذلك الطفل الصغير المسكين الذي أصابوه في قلبه فمات ولم تجف الدمعة من عينيه السوداوين . لقد سدّدوا البندقية الى قلبه تسديداً محكماً ؛ فلم يتمكن من أن يشكو عملهم بكلمة « ماما » يخرجها من بين شفتيه الصغيرتين !

قالت هذا واحسان جالس وراءها ممسكاً ظهر مقعدها بشدة تكاد تقتلعه ؛ وكان الجموح بادياً على وجهه المخيف :

ولست أدري هل علم مستر كوك في تلك الساعة أن المظلومين قد يكونون في بعض الاحيان أقوى من الظالمين ؛ ولكنه قد شعر على كل حال بأن جوّ هذه القاعة قد ازداد برودةً وهولاً ، فنهض برزانة غريبة ، وقال بمثل صفير الحية المحصورة :

ـ لقد أسمعتموني الليلة أقوال « بنت ازمير » فشكراً لكم

فخرج وخرجت معه السيدة سالمة دون أن يمدّ أحد يده لمصافحته ، فمشيتُ معهما الى الباب

ولما عدت الى الغرفة رأيت الضباط الشبان جاثين على ركبهم حول معقد عائشة . وانهم ـ ومعهم حشمت بك والشيخ المسن صبري باشا ـ قد وقفوا سيوفهم على بنت ازمير . وسمعت احدانا يقول بصوت فيه شيء من البحح :

ـ اننا لن نعيد سيوفنا الى أغمادها دفاعاً عن ازمير حتى نفقد كل أعضائنا

أما عائشة التي كانت مظهر القوة والانتصار آنفاً فقد أخذت تشهق بالبكاء كالطفل الواني ، بل كالأم الثاكل . فقلت لها :

ـ ماذا يبكيك ؟ ان العزّل مثلنا في هذه الامة أكثر من حملة السيوف. ولقد انتهت الحرب ، وفهمنا من مستر كوك نعمة الصلح المدني . فهل تشربين الشاي على ذكر ذلك ؟

أعترف الآن بأني لست قائل هذا القول . ولكن الديوان وأوراقه البالية هما اللذان قالاه . ولقد رقدت تلك الليلة بوجه بليد ، ونفس دون نفوس الآخرين . فأنا أنادي الآن من صميم قلبي :

ـ حتى أفقد كل عضو من أعضائي ياعائشة ! لقد جفّ الدمع من عينيك الدعجاوين ولم تعلمي ، وكنت تنظرين اليّ بشفقة ورحمة قبل أن تعلمي : ها ان ساقيّ قد قطعا . ولكني لا أزال أملك ساعدين أقاتل بهما . افتحي عينيك ياعائشة ، فأنا لست أقل من هؤلاء الشهداء الراقدين حولك . واني سوف أقاتل لاجلك . لاجل ازمير . حتى أفقد كل عضو من أعضائي

٣

انتقال عائشة الى منزل جديد

ـ ١٠ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

لم يعد للمستر كوك والسيدة سالمة موضع في اجتماعاتنا بعد تلك الليلة . وقد ثارت حماسة اخواننا الضباط رغبة في السفر الى ازمير

وكان جوّ الاستانة يهب فيه نسيم ثورة غريب ، والناس راغبون في أن يلقوا بأنفسهم الى الكارثة الواقعة في ازمير ، وهم يبحثون عن الواسطة التي تعينهم على السفر الى هناك . أما الاجتماع بمراسلي الصحف ، واقامة حفلات الشاي بقصد نشر الدعوة ؛ فصار مما لا يهتم به غير طلبة المدارس وسيدات شيشلي . وفي الوقت نفسه كان في الاستانة شيء اسمه « الدفاع عن حقوق ازمير » ينفخ الناس في نفيره

وفي خلال هذه الحوادث كانت حياتي المنزلية معرّضة لانقلاب جديد ؛ لأن أصدقاء السيدة سالمة وزوجها أخذوا ينقطعون عن قاعتنا واحداً بعد واحد ، فكان لذلك وقع سيء في نفس والدتي . وزادها خوفاً وقلقاً ما كان يقال من أن الانكليز يراقبون منزلنا ، وأن السلطة ستقبض عليّ ، وأن الاتحاديين ينفون الى مالطة . فاقتنعت أمي بأننا استرسلنا في حركاتنا ، وأن حياة التهوّر التي حالت بينها وبين الناس قد ابتدأت بوجود عائشة بيننا ؛ ومع أنها لم تكن تتظاهر علناً بما في نفسها فانها كانت تتساءل عما اذا كانت عائشة وجمال سيلبثان كثيراً في منزلنا أم لا ؛ وجعلت تضايقني بهذا الامر

وبعد مرور أسبوع على اليوم المشهور الذي سميت فيه عائشة باسم « بنت أزمير » ظفرت أمي بي وباحسان وكاشفتنا بهذه القضية . وكان جمال ساعتئذ خارج المنزل وعائشة في غرفتها . فكانت أمي تتكلم بحرية . ومما قالته

انها لاترى صلاحاً للأمة في أي عمل يستلزم سفك الدماء ؛ وانها لاتريد في شيخوختها هذه أن تقيم ضجة حول منزلها وحول شخصها . ثم انها لاتحتمل ضياع مكانتها في حياة (شيشلي) الاجتماعية ، ولاتطيق أن ترى الناس ينفضون من حول قاعتها . وقالت أيضاً :

ـ وان ابنة عمتي عائشة ، تلك المرأة الريفية ، قد سلبت عقولكم جميعاً ؛ وأخشى أن نندفع في طريقنا هذا زيادة على اندفاعنا فيه حتى الآن

ولست أدري كيف ولماذا صار احسان يومئذ كواحد من أسرتنا . وكانت أمي تنظر الى زيه وطوره الاستنبولي ، فتراه أبعدنا عن الدخائل والاندفاع ، فتفضي اليه بسرائر نفسها . ولقد قالت له :

ـ انظر في هذا الامر يا بني ، وابحث لنا عن مخرج مما نحن فيه . نعم ، ان مزارع عائشة احترقت ، ولكنها تملك نقوداً . فليستأجر الشقيقان منزلاً ينتقلان اليه ؛ فان لم يفعلا فلا ريب ان ببامي سيكون نصيبه النفي الى مالطة

وفيما أنا أريد أن أكلمها فتح الباب ودخلت عائشة . وكان احسان ساكتاً ، غير ان التأثر باد على وجهه ، فنهض مسرعاً وتوجه نحو عائشة

ولم تكن عائشة رأت احساناً منذ أقسم الضباط يمينهم على يدها . فاقترب كل منهما نحو الآخر وهو ينظر الى صاحبه . أما عائشة فانها من يوم وصولها الى الاستانة لم تنظر الى احسان بعين عقلها الا في هذه الساعة ، وكانت عيناها الذابلتان محمرتين . فبدأت أمارات الحياة تبدو فيهما ؛ لان احساناً كان ينفذ كشعاع الشمس الاصفر الضعيف من عينيها الى روحها ، حيث هي رهن المحبسين : اليأس والظلام . بل ان الغرفة كانت كأنها استنارت ؛ وكأنها دفئت ، من تبادلهما النظرة الاولى ، والتقاء يديهما بالمصافحة . وفي تلك الآونة كنت قد برحت المكان أنا وأمي وهمومها

لم تكن المصيبة ساعتئذ حالكة الظلام ، ولكن الدعابة التي بدأنا بها غير مفكرين بعواقبها قد تحولت الى جد . فلما جلس احسان وعائشة أحدهما تجاه

الآخر كان كل منهما يرى صاحبه ويشعر بما عنده دون أن ينظر اليه . ولست أزعم ان ذلك الشعور كان جلياً ومتأصلاً في عائشة ؛ ولكن لا ريب ان احساناً كان قد ملأ بها قلبه وناظريه منذ فتح لها باب العربة على رأس الكوبري يوم وصولها ، بحيث لم يبق في قلبه وناظريه موضع لغيرها

ولعل عائشة أدركت الانقلاب الذي بدا لوالدتي . فانها لما دخلت الغرفة علينا انتبهت لسكوتنا ، وعلمت اننا كنا نتداول في شيء له علاقة بها ، ونحاول كتمانه عنها . غير ان ما كان بينها وبين احسان من الامر الذي لا اسم له قد شغلها عن تقديم الاهتمام بمعرفة ما كنا فيه

بعد مرور شهر على هذا اليوم حدثت ثلاث حوادث كبرى . فان عائشة انتقلت الى منزل ذي غرفتين في حي (كدك باشا) وانقطعت الصلة بينها وبين والدتي . والذين أقسموا اليمين ليلة زيارة مستر كوك فروا جميعاً الى ازمير فلم يبق منهم غير احسان ؛ وكانوا قبل سفرهم في حاجة شديدة الى النقود فتقرر باصرار عائشة اعطاؤهم جانباً من نقودها التي في المصرف ، وهي ثلاثة آلاف ليرة ؛ وكانوا عشرة ضباط وعلى رأسهم جمال ، فوضع كل واحد منهم في جيبه مائة ليرة وسار مندفعاً الى الموت . أما الحادثة الثالثة فهي التطوّر الفكري الذي طرأ عليّ ، حتى انهم لما جاءوا ليودعوا عائشة لاحظت هي هذا التطور. ولقد كنت أراهم يتعمدون تقبيل يدها اليسرى التي كسرها اليونانيون ، والتي اتخذها هؤلاء الشبان راية لحرب الانقاذ ، فيثير ذلك في نفوسهم ثائرة كربلاء ، ويبعث فيهم شوقاً الى نيل الشهادة . وكلما كان واحد منهم يقبل تلك اليد كانت هي ترمقه بعين قلبها التي رمقت بها احساناً بمنزل والدتي في الشهر الماضي ، وهي الآن كما كانت يومئذ ذات وجنتين حمراوين وعينين تضيئان بشعلة الرجاء . فلما رأيتها كذلك تبدد من ذهني ذلك الخاطر الذي خطر لي قبل شهر فأزعجني طول هذه المدة . وتساءلت في نفسي : وهل كان احسان الاّ واحداً من جنود ذلك الجيش الموهوم الذي سيجاهد في سبيل عائشة . في سبيل

ازمير الخضراء ؛ وفي سبيل تربة ذلك الطفل الشهيد ذي العينين السوداوين ؟ ألا يحتمل أن اكون مخدوعاً فيما كنت ظننته ؟ ولكني على كل حال لم أكن مخدوعاً في عاطفة احسان ؛ فالسراج الذي يضيء في عينيه لا ريب انه لاجل عائشة ؛ ولا يضيء الا اذا وقع نظره عليها

* * *

ـ ١٥ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

ان هذه الايام الباردة في انقرة تذكرني بحرارة ومتاعب الايام الثقيلة المشئومة التي مرت عليّ في آخر صيف قضيته في الاستانة . فقد كنت أخرج كل يوم من الديوان . فأتسلق طريق الباب العالي قاصداً منزل عائشة في (كدك باشا) . وكان محيط شيشلي ومنزلنا قد تناسيا عائشة التي أذاعت أمي عنها بين الناس انها عادت الى ازمير ؛ ولم تحاول قط أن تعرف أين هي ؛ ولا أنا كنت أكاشفها بشيء من أمور عائشة . ولقد آليت يومئذ أن أتخذ جمالاً وأخته أخوين لي ؛ فبررت بقولي

وكانت عائشة تتراءى لي كل يوم بمرأى جديد يدعو الى العجب : فان هذه المرأة التي هربتُ الى أوروبا قبل عشر سنوات خوفاً من أن يزوجوني بها ـ زاعماً انها ريفية ـ صارت تبدو لي عليها سمة ذاتية خاصة بها لا أرى مثلها لنسائنا المتفرنجات . وكانت تربيتها الفكرية مبنية على حقائق بسيطة صحيحة منتزعة من تجاريب الحياة ؛ ولا شائبة فيها من الرياء . وهي مع ذلك غير عاطلة من حلية المعارف ؛ ومن التكلم بلغة أجنبية

وأعظم ما كان يدهشني من أحوالها أسلوب معيشتها : فقد كانت منفردة في منزلها ذي الغرفتين . ولا تعرف في ذلك الحي أحداً غير زينب بائعة الخضرة . وان الرقع التي كانت تضاف الى ثوبها الاسود جعلته مزدوجاً . ولم أجد يدها فارغة من ابرة تنسج بها . أو قماش تخيطه لاولاد مهاجري ازمير . أو لتعيش بثمنه كما تعيش من أجرة التعليم ؛ أما نقودها فكانت ترى انها وقف على قضية

ازمير فلا تنفق منها على غير ذلك ما استطاعت . لذلك كانت تذهب الى بعض المنازل بضع مرات في الاسبوع فتعلم بالاجرة ، دون أن يعلم أهل تلك المنازل حقيقتها : اذ كانوا يظنونها أرملة ضابط قتل في الحرب العظمى ؛ ولم تكن أطوارها تلفت اليها انظار الناس ، لايثارها السذاجة والبساطة على الظهور . وفيما عدا هذه الاعمال كانت عائشة تخدم الحركة القوميـة التي بدأت تظهر يومئذ في ازمير ، وتعضد مساعي جمال واخوانه الذين كانوا يراسلونها كلما سنحت لهم الفرصة

ومع كل ما كان في عائشة من صفات المقدرة والاستعداد والتضحية والعيشة المنظمة التي لابد منها المرأة الوطنية فقد كان لها الجاذب الذي يكون في الطفل فيغري الناس بمحبته ، ويدفعهم الى حمايته . وكانت في معزل عن رؤية جانب الشين في المجتمع ، أعني الامراض القبيحة القذرة التي تجاهد الاستانة لتتخلص منها . واذا لمحت عيناها الجميلتان شيئاً من تلك الامراض الشائنة أبصرتها بعين الشفقة . وابتسمت لها ، وفهمتها على حقيقتها . واقد كان لذلك تأثير عظيم في نفسي يحملني على تصحيح رأيي حتى في الامور التي كنت أراها في منتهى القبح . على ان هذه الصفة الحسنة فيها كانت تثير في احـدى زوايا قلبي عاصفة تزعزع أفق الحياة ، في ذات الوقت الذي أكون مقتنعاً فيه بوجوب الاخلاد الى السكينة

لقد كان من دأبي ـ وأنا أتسلق طريق منزلها في كل مساء ـ أن أحدث نفسي بفضائلها . ثم أتصورها في ذهني وهي تبتسم لي ابتسامة الاخاء وتقبل عليّ من صدر غرفتها الصغيرة بعد أن تدع نسيجها من يدها . وكان سماور الشاي فوق منضدتها لا ينقطع بخاره قط ، والى جانب السماور مقعد يملأه في كل مساء شخص لا يبرح قط من ذهني منذ أخرج من الباب العالي الى أن أبلغ منزلها ، ذلك هو احسان . فانه اذا جلس في ذلك المقعد وضع قفازيه في زاوية المنضدة وأخذ يدخن سيجارته وهو صامت مستغرق في التفكير . ثم

نشرب الشاي ونخرج كلانا معاً . وان هذا الامر الذي يشغل ذهني طول الطريق كان يزول منه تماماً اذا بلغت المنزل ورأيت احساناً جالساً هناك أمام عائشة الساكنة القوية يحف بهما صفاء الاخاء . وقد اكون في الدقائق العشر الاولى منتبهاً لهما أراقبهما وألاحظ أنظارهما وأطوارهما فلا أجد بساطة طبيعية تفوق تلك البساطة . ورغماً عن ذلك كنت أعلم ان احساناً يحب عائشة . ثم أقول : وعائشة ؟ حقاً انني لا أدرى ماذا كانت تحبه اولا تحبه . وبقيت أجهل ذلك الى الدقيقة التي دفنتها فيها الى جانب احسان ، ثم لا ازال في مرية من هذا الامر

وانما بقي احسان في الاستانة لان اخوانه رأوا بقاءه فيها مفيداً ؛ لذلك كانت عيناها تومضان لاحسان وميضها لاخوانه الذين ذهبوا الى ازمير . وكنت أظن في بعض الاحيان ان الزاوية الخاصة باحسان من عينيها أشد وميضاً ، ثم أعود فأتهم نفسي بأن ذلك قد يكون من مبالغات الهواجس

علقت عائشة أملها بثورة الشعب ؛ فهي تحب شباب ازمير وأهل الفتوة من أفراد العصابات التي تقاتل في الجبال . أما احسان فكان ينظر الى القضية نظرة الجندي فيقول :

ـ ان هذا المشكل لا يحله غير جيش نظامي . فالجيوش المنظمة غلبت الانكليز فضلا عن اليونانيين

أما عائشة فكانت ترى ان وجود الجيش النظامي لا يكون الا بمعجزة ؛ ومع ذلك فان ثورة الشعب هي التي يجب أن تجعل اليونانيين في حال لا طاقة لهم معها بالعودة الى الانضول . وبالجملة فان عائشة ترى ان الايام التي يتم فيها تأليف الجيش لا تزال بعيدة . وأما احسان فكان يهز رأسه مبتسماً ويقول لها :

ـ اذا اقتضت الحال فان الذين يقودون ثورة الشعب يكونون من الجيش أيضاً . وأظنك تعلمين ان العسكريين هم روح هذه الثورة ؛ أليس كذلك ؟

كان احسان يتكلم وفي عينيه شعلة تعبد واذعان لعائشة ؛ بقدر ما كان في نفسه من ألم ؛ لانه يرى أن من التضحية بل من الظلم أن يقود ضابط راق

مثله عصابة ثورية . أما عائشة فلم تكن تفهم ذلك لانها لا تفرّق بين أحد من العاملين لانقاذ ازمير ؛ فكانت ترسل الى قلب احسان نظرات نارية هائجة تصوّبها من بين اهدابها الحريرية السوداء ذات الظل الازرق القاتم في عينيها الخضراوين . ولاحظت في تلك الساعة اضطراباً على وجه احسان الذي كان يخشى أن تبدو وسيلة جديدة تدفعه الى النار

وكانت هذه الامور تخطر في بالي اذا سرنا معاً في كل يوم قاصدين المدافن ؛ فأفكر في الاصفرار الذي اعترى وجه هذا الجندي الساكن المتين ؛ والحرقة التي نفذت الى داخل عينيه ؛ وبركان النار الذي يثور في جوفه ؛ وحينئذ أقول في نفسي : ان تحت شعار أركان الحرب المرسوم على قبة هذا الشاب قميصاً أحمر منسوجاً من نار ؛ واني أعلم كيف تنفذ النار من ظاهر جسمه الى جوفه . لان على جسمي قميصاً نارياً مثل قميصه ؛ ومن دأب عائشة أن تلهب النار في هذه القمصان الغريبة لئلا يخمد ما في النفس من جذوة الثورة ؛ ولئلا يسكن ما في القلب من عاصفة ؛ فهي قمصان تلتهم نارها كل ما في الانسان من كسل وتعب ؛ وكم من أناس غير احسان سيلبسون مثل قميصه !

ان عيني المرأة اللتين تقيدان الناس بأدهش وأوثق قيود الاستئناس ؛ وتدفعان بهم هنا وهناك ؛ قد تقذفان بهم في بعض الاحيان الى هاوية الجحيم

استمرت هذه الحال الى اوائل مارس ؛ وكانت حركات الانضول قد اطلق عليها اسم « الحركات القومية » واقيم لها زعيم يقودها ؛ فكان مركز الزعامة كالخميرة الجامدة تنحدر اليها المايعات لتجمد حولها . ولم تكن عائشة تعرف زعماء هذه الحركات ؛ ولا هي على علم بجانب التفكير والتدبير من هذا العمل ؛ وانما كان هنالك شعب أشعل نار الثورة وقذف بنفسه في لهيبها ليموت أو يميت ؛ فعائشة كانت من هذا الفريق ولا تعرف فريقاً غيره . وكنت أحاول اغضابها فأقول لها :

ـ وما قيمة فتياتك وضباطك الذين تتألف العصابات منهما : انهما ساقان تتحركان بارادة دماغ مفكر

فتجيبني بحماسة : ـ انهما العظم الفقري في هذا الجسم ياييامي . وليسا ساقين . وان الرأس يسير بهما بعد أن اضمحل المزاج ومات القلب

ولما دخلت منزل عائشة في اليوم العاشر من شهر مارس رأيت هناك حشمت بك جالساً مع احسان يتحدثان بحماسة حول منصة الشاي . وان الحركات القوميـة وان تكن لم تكتسب أهمية الى ذلك الحين فان حشمت بك كان عضواً نشيطاً فيها . وقد كان له دماغ ناضج لا يقاس به رأسا جمال واحسان بمعنى من المعاني ; ولا ريب ان حشمت بك كان نموذج الكمال العسكري في السلطنة العثمانية بماله من منكبين عريضـين ويدين متناسبتين وعينين كعيني النمر وقامة طويلة ورأس حازم شاب فوداه وبقي سائر شعره أسود . ولم يكن هـذا الرجل من ضباط الحرب العظمى ; بل ولد جندياً في زاوية من زوايا بلاد السلطنة ولعله ممن أنجبتهم جبال بلاد الارنؤوط الصعبة المرتقى. وتدل أحاديثه ونظراته على انه قرأ كثيراً وفكر كثيراً ورأى كثيراً . لذلك كانت عائشة تحادثه وتتبادل معه الرأي باخاء واهتمام اكثر مما يكون بينها وبين احسان . ولقد كنت أراقب هـذا الرجل الذي كان قليل الزيارة لعائشة وأحاول مايحاوله احسان من اكتشاف ما في نفسه ; ولست أدري ماذا كان هو أيضاً مشغول الذهن بنا كما نحن مشغولو الذهن به . لأننا لم نستطع اكتشاف شيء من أمره

وكان مما قرره جماعتنا ارسال احسان الى (اضه بازار) ليؤسس لجاناً تنقض عمل اللجان التي أسسها الآخرون لتشويش الانضول . وهذا القرار يقضي بأن يفرّ احسان بطريق البر ; وكان يظهر ان لعائشة صلة بهذا العمل من أصله الى كل مايتفرع عنه

وبعد أن انتهينا من العمل الجدّي شربنا الشاي ; وكانت عائشة تحاول

أن تظهر بمظهر النشاط والسرور ، فقصت علينا قصة اجتماعها فجأةً بالسيدة سالمة في أحد المنازل التي تعلم فيها . قالت :

بينما أنا في منزل بعض التجار في (مودا) اذ حضرت السيدة سالمة الى ذلك المنزل على باخرة انكليزية صغيرة ، فاضطرب المنزل لمجيئها . وان الآنسة الصغيرة التي كنت أعلمها أرادت الانصراف من الدرس ، وفي الحقيقة اني شعرت بالخوف . وفيما نحن كذلك أدخلوا السيدة سالمة الى غرفة الدرس فنكست رأسي متظاهرة بالعمل ، فشمخت السيدة سالمة نحوي بنظرتها العالية المعهودة وقالت :

ـ لماذا لاتأتون بمربية انكليزية لهذه البنت ؟

وبعد أن أخذ كل منا يفكر فيماذا كانت تفعل السيدة سالمة لو عرفت عائشة انتهينا من ذلك الحديث . فقال احسان موجهاً الكلام الى عائشة :

ـ سأتناول العشاء في استنبول ، وقبل أن أجتاز الكوبري الى الجانب الآخر سأجيء الى هنا لاتلقى أوامرك الاخيرة

فاحمرت وجنتا عائشة قليلا . وظننت انها نظرت اليّ كأنها تطلب مني شيئاً ، فقلت :

ـ وأنا سأتعشى في استنبول لاعود في الليل مع احسان

فسكت احسان . وخرجنا نحن الثلاثة . فلما قربنا من حي (بايزيد) بدا القلق الشديد على وجه حشمت بك ، وبينما هو يضغط على يدينا كانت عيناه متأملتين في بناء وزارة الحربية ، ثم قال :

ـ لعل هذه الدائرة ستتولى ادارة سفينة هذه الامة مرة أخرى

فودعناه وركبت أنا واحسان احدى عربات الترام . وكانت المصابيح تضيء الشوارع ، وأشباح النساء تتراءى مسرعة في الزوايا والمنعطفات فقال لي احسان :

ـ اذا لم تكن مدعواً في مكان آخر فتعال نتناول العشاء معاً

أجبته : ـ لست مدعواً
فقال : ـ اذن لنذهب الى مطعم استنبول
قلت : ـ حسن

ولاحظت ان احساناً اما أن يكون في كرب شديد أو أن يكون مستاءً من وجودي معه . وأنا واثق من ان عيني عائشة أفهمتاني أنها لا تود الانفراد باحسان في هذه الليلة . هذا اذا لم أكن مخطئاً فيما فهمته !

تناولنا العشاء في مطعم استنبول حيث ننظر من نوافذه ازدحام الناس الذي يكون عادة في حيّ (سركه جي) . وعدنا في الليل الى منزل عائشة ، فلبث احسان هنالك قليلا ، وتكلم قليلا . وكنت في خلال ذلك ألمح في عينيه اضطراب نفسه ، ثم أرى انسانيهما في جمود . ولما قالت له عائشة وعيناها نديتان وفي نفسها آلام الاخاء الصريح : ـ سنفتقدك كثيراً يا احسان بك !

ارتعش واضطرب ، ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه ، وتناول قفازيه وهو مستغرق في الافكار ، ثم قال لها : ـ ان حشمت بك و يامي بك لا يتركانك . ومن يدر فلعلك تلتحقين بنا . وحينئذ سنعتني بك حتى في رؤوس الجبال

لم أدرك المعنى المبهم الذي لاح في وجه عائشة . فلما افترقنا شعرت بأن الوداع كان بارداً ، وأن نفوسنا كانت مفعمة بالقلق والألم

ولما كان الترام يجتاز بنا الكوبري كان احسان يتأمل في مياه الخليج المظلمة وما يتلاطم فوقها من سواري السفن الشراعية ، وكانت هذه السواري تتراءى كأنها دغل في غابة عريت من أوراقها . ووصل بنا الترام الى امام حديقة (تپه باغچه) ، فلفتُ نظر احسان الى الموسيقى التي تصدح فيها ، والى آثار الحياة التي تطفو من جوانبها ، وقلت له :

ـ الساعة لاتزال في الحادية عشرة ، فدعنا من الاسراع في العودة الى المنزل

فاعتذر بانه مضطر الى النزول في (پانغالتي) ليودع بعض صديقاته . وشعرت بأن قميصي الناري برد قليلا في ذلك الحين ، فأردت أن أعتنق احساناً وأقبله ونحن غارقون في بحر هذه الكوارث المطبقة علينا

— ٤ —

الى الانضول

ـ ١٧ نوفمبر ١٩٢١ ـ

لما كان يوم ٢٥ مارس بدأتُ أنقه من المرض الذي أصبت به منذ فارقت احسانًا . وذلك أني استيقظت في صباح الليلة التي كنت فيها معه فوجدت حرارة جسمي بلغت أربعين درجة . وحاولت أن أخفي مرضي فلم أستطع : وظل الاطباء مصرين ثلاثة أيام على أني مصاب بالحمى الاسبانية . وكنت قبل ذلك اشعر من نفسي بفتور وانحطاط مدة اسبوع ، فلما عدت مع احسان في الليلة الاخيرة أصابني برد جاء ضغثاً على ابالة ، فظننت أنها الحمى الاسبانية . وكان من أعظم بواعث ألمي واضطرابي ما أعلمه من انفراد عائشة وحدها بلا معين ، ثم لم يطل أمد هذا الالم كثيراً لأن الحمى التيفوئيدية ـ التي كنت مصابا بها في الحقيقة ـ ازدادت بعد ذلك شدةً ، فذهبتْ بارادتي ومشاعري ، فصرت لا أعي شيئاً

ومن غرائب هذا المرض أني كنت أرى نفسي كأني في فراش تحمله طيارة تطير بي في جوّ الاستانة بسرعة هائلة ظننت أنها انتزعت فؤادي من جوفي ، فصرت أحاول اغماض عيني وأنا طائر بهذه السرعة . وكان رأسي يخترق الغيوم البيضاء فيقطعها اربا اربا . وهناك طائفة من ذباب الفرس كبيرة الحجم ذات أجنحة خضراء وحمراء تتألق حواشيها وهي تطير بين السحاب . وكنت أضغط بيديّ على بطني كأني أمنع نفسي بذلك من زيادة الاندفاع والتمادي في السرعة . ورأيت رأس مستر كوك قد ظهر من بين الغيوم بصلعته وشاربيه المسبلين وأسنانه الكبيرة الصفراء ، وهو ينظر الي بعينيه الصغيرتين الغارقتين في الدماء . وأظنني صرخت عند ما تخيلت صورته ، فسمعتُ صوت أمي تقول :

ـ آه يابيامي ، آه ياولدي !

ثم شعرت بأشياء باردة تلامس رأسي . وبأن الهواء شديد الحرارة ، وهو يخفق مع قلبي قليلاً قليلاً في زرقة الفضاء الفسيح وأسمع جريَ أناس على الارض يطلقون الرصاص ، فكنت أقف وسط الطيارة لاطل منها عليهم محاولاً أن أراهم . ثم بدا لي رأس ستركوك مرة أخرى من بين أشباح جموع لانهاية لها رأيتها تتحرك في ميدان وزارة الحربية ، ثم اشتعلت عيناه كما تشتعل عينا الشبح في رواية (بيبركفت) ، وما زال يعلو ويرتفع حتى لمس الطيارة برأسه ، فانزويت في طيارتي ، ثم لم أرفع منها رأسي ، وأغمضت عيني فلم أعد أفتحهما . ولكني شاعر بجري الناس على الارض ، وعالم بأن مستركوك ما برح من تحت الطيارة التي كانت تهتز فيهتز قلبي معها . وكنت أشعر في حالات نادرة جداً بأن في دماغي زمردتين منيرتين ، تحيط بهما هالتان سوداوان ، فتضيئان تارة وتنطفئان تارة ، فاود دائماً أن أحجبهما وأن لا أراهما

وأخيراً رأيت امرأة ملفوفاً رأسها بخمار أسود ، وهي تتمشى في غرفة مملوءة بالدخان . وبينما كانت هذه المرأة تطيل النظر اليَّ في أحد الايام أخذت أتأمل الغضون التي حول عينيها السوداوين الصغيرتين ، وأنفها الطويل الضيق قليلا . وكانت المرأة أمي ! وهي الى جانبي ترطب رأسي بالماء البارد . ولم ألبث أن علمت أني كنت في غيبوبة الحمى ، وأنني بدأت أصحو الآن منها . فسألت أمي :

ـ أي يوم هذا من أيام الشهر ؟

أجابت : ـ انه اليوم السادس والعشرون من شهر مارس يابني

ولما قال لي الطبيب ان الانكليز احتلوا الاستانة ، وأن مجلس المبعوثان قد أقفل ، وأن كثيراً من أعضائه نفي الى مالطة ، وأن طائفة كبيرة من الوطنيين التحقوا ببلاد الاناضول وفيهم عدد من النساء ، أصيب رأسي حينئذ بدوار ، تألماً مما أنا فيه من عجز ، وتوقعاً لما قد يكون أصاب عائشة من هلع

واضطراب . ولم أكن أستطيع أن أكاشف أمي بأمر عائشة بعد ان كنت قلت لها انها سافرت الى ازمير ، قاصداً ازالة ما ازداد في الايام الاخيرة من شبهاتها ، وما كثر من صخبها وغضبها

وخصت وجه الطبيب بعيني فحصاً دقيقاً لأرى ما اذا كان من الصواب توسيطه في ايصال خبري الى عائشة والوقوف منه على خبرها . ثم ضحك لما سألته : ـ متى أستطيع مبارحة المنزل ؟

أما أمي فكانت تقول لي بأطوارها ولسان حالها : « آه منكم أيها الشبان الطائشون ! انكم أنتم سبب كل هذه المصائب »

ولم يشأ الطبيب أن يزيد ثورة أشجاني ، فلم يخبرني بتفاصيل الاحتلال وسائر ما كان يجري في الاستانة . وفي الواقع ان رأسي كان مضطرباً وضعيفاً ، غير اني كنت أشعر بأنه اذا استمر انقطاع أخبار عائشة عني فاني سأعود الى تلك الطيارة ثم لا أنزل منها قط . فيالتلك الايام من أيام بؤس وعجز وآلام !

وفي أوائل شهر أبريل دعوت (كتينا) فوضعت في يدها نقوداً وطلبت اليها أن تذهب الى وزارة الخارجية فتدعو لي أحمد أغا الفراش . وكم كان سروري عظيما عند ما رأيت احمد أغا في بعض الايام داخلا عليّ يزعم انه جاء ليسأل عني . وكنت أعلم ان احمد أغا خصم لدود لجميع الاغيار ، وكانت له أيام مع الارمن يوم قدموا ارضروم مع الجيش الروسي . فما زلت أملأ رأسه ، وافهمه ان عائشة امرأة ثائرة على ظالمي الترك ، وأذكر له مصائبها في ازمير ، حتى غدا متشوقاً لخدمتها من تلك الساعة في كل كبيرة وصغيرة . وأرسلته ليسأل عن عائشة ، فجاءني في صباح اليوم الثاني ، وقال لي وهو يتنفس الصعداء :

ـ لم أستطع أن أتعمق بالبحث عنها في حي (كدك باشا) لكثرة من هناك من الروم والارمن . وسأذهب مرة أخرى غداً أو بعده فأتوسل بذريعة من الذرائع للبحث عن زينب بائعة الخضرة ، وبواسطتها أمسك بيدي رأس الحبل ،

فكن مطمئن البال

ولم يبطيء أحمد أغا في انجاز وعده ، فجاءني بوجه مشرق كوجه العيد ، وأخرج من تحت معطفه أوراقاً وقال :

ــ اليك هذه الرسائل فاقرأها ، أما عائشة فعلمت انها تكتم مكانها ، وانها تركت هذه الرسائل عند زينب لتسلمهن اليك عند ما تأتي لتبحث عنها . وقد حضرت زينب الى هذا المنزل وسألت عنك فردّوها من الباب قائلين لها انك مريض

أخذت الرسائل بشوق ولهفة ، وكان أحدها مكتوباً على ورق المكاتبة . وسائرها على ورق أصفر مقطوع من أحد كراريس التلاميذ التي تستعمل في المدارس . وكانت هذه الاوراق تتعلق بعائشة ولها أهمية عظيمة . وقد عزمت الآن على أن أنسخ ما فيها في مذكرتي هذه وأن آمر خادمي الجندي باحراقها على مرأى مني حتى لا يقع نظر انسان آخر من بعدي على خط تلك الراقدة في تربة (كوكجه بينار) !

من رسائل عائشة

١٨ مارس : كدك باشا

« أخي يامي ،

لست أدري ماذا صنع الله بك منذ يومين . لقد تولاّني القلق عليك في باديء الامر ، ثم اعتقدت بأن خالتي منعتك من مبارحة المنزل . ولا غرو فانت ابن استنبول ، ومثلك لا يخرج عن طاعة أمه . على أني بالرغم من كل ذلك استغربت انقطاعك عني في هذه الايام الاستثنائية ، ورأيت ذلك غير طبيعي

أتى على الاستانة يومان من أيام ازمير البائسة : فقد استيقظتْ هذه العاصمة صباح يوم الثلاثاء ١٦ مارس الجاري بشعور غريب . فالشوارع لم ينقطع فيها وقع اقدام الذاهبين والآيبين ، غير أن القلق بادٍ على الوجوه . والناس قد

التزموا الصمت فلا ينبس أحد ببنت شفة ، ولم أر الاستانة صمتت هكذا الاّ في يوم المظاهرة

وخرجت من منزلي في (كدك باشا) سالكة الى شارع الترمواي الازقة الضيقة في هذا الحيّ . ثم وقفت أمام منزل صغير وجدت خارج بابه مهداً ، والى جانب المهد امرأة شابة ملتفة بملاءتها وفي حجرها طفل رضيع . هل تتذكر ياترى ؟ لقد كنت حدّثتك كثيراً عن هذا المنزل الصغير الذي كان ـ الى وقت قريب ـ تنبعث منه نغمات العود ، وأحيانا صرير مهد ، وأغاني أم تنيم طفلها . وقبل احتلال هذا المنزل كان يسكنه زوجان حديثا السنّ . فلما دنوت من المرأة لا كلمها سمعت من أعلى المنزل غناء انكليزياً . وأخبرتني المرأة الفتاة ان زوجها ـ وهو ضابط شابّ ـ تطوع في احدى العصابات فبقيت هي وحيدة . وان لها عماً في (اسكدار) فساعدتها وبحثت لها عن عربة ، ثم جمعت حوائج الطفل الذي كان لا ينقطع عن البكاء ، وان له جسماً ممتلئاً وعينين سوداوين تذكرت بهما طفلا آخر له مثل عيني هذا الطفل ولكنهما جمدتا برصاصة أطلقت عليه . ورافقت المرأة الى الباخرة (احسانية) حيث ركبنا معاً . ولما سارت الباخرة بنا شاهدنا فوهات المدافع الموجهة نحو الاستانة من السفن الحربية الراسية في البوسفور

وكان في عزمي أن أعود مع آخر باخرة تقوم من اسكدار في الليل ، فآتيكم متحملةً غضب خالتي ، وتبرّمها بوجودي ، ولم يكن لي مناص من ذلك لاني بقيت في الشارع . ولكني لما نزلت في (ميدان دوغانجيلر) رأيت الملازم (سيفي) مرتدياً ملابس ملكية مبتذلة ، فبادرني مسرعاً ، وأخذ مني صرة ملابسي ، وكانت عيناه تشتعلان . ثم أخبرني انه كان عازماً على المجيء في هذا اليوم الى بيتي ، وأنه ساكن في مكان معتزل عن الناس ، ويرى أن ينقلني الى هناك ، لان كثيراً من الاخوان يأتون اليه ، وقد اتخذوا منزله مركزاً من مراكز النزوح الى الاناضول

ولا تسل عن سروري العظيم بأقواله التي كان لها وقع جليل في نفسي ؛ فذهبت معه توّاً ، ولا غروَ فاني أصبحت ـ كأمّي المسكينة ـ ليس لي مأوى آوي اليه

ووصلت الى منزل خشبي أصفر ، قائم في ظلال السرو ، على مقربة من المقابر ، ففتح لنا الباب بحبل مربوط به جذبته يد انسان من فوق . ومررنا في ساحة المنزل ، نمشي على لوح من خشب ممدود فوق الارض الترابية . والبيت كله غرفتان وصفة واحدة . وان لصاحبه زوجةً شابة كريمة النفس ، تمضغ اللبان بفمها ، وقلبها بمثل صفاء الماس . وله والدة نظيفة أمينة قد لفت رأسها بخمار . نقضيت ليلتي البارحة أنا وهذه الوالدة في الغرفة المقابلة لغرفة سيفي ، وحدثتها بكل مصائب ازمير ومصائبي

٢٠ مارس

بعثت برسالتي الاولى الى زينب . وقد علمت أنك لم تحضر بعد ! فهل أنت مريض يا ترى ؟ ان سيفي يريد اليوم أن يجتاز الكوبري الى الجانب الآخر ليبحث عنك ، ولكنه لايجسر على الوصول الى شيشلي

٢٥ مارس

تحققت أنك مريض . وقد بعث سيفي المرأة زينب الى منزلكم ، فمنعوها من الدخول ، وأخبروها أنك مريض جداً . فياهذه الايام ماأسوأها ! واذا صحّ ما قالوه من انك في غيبوبة فهذه الايام أيام خير بالنسبة اليك

لقد وجدت في المنزل الذي أنا فيه عزاءً وسلوى ، وان أصدقاء سيفي يأتون لزيارته من كل حدب وصوب حاملين الينا الاخبار

وان أمام المنزل الذي نحن فيه منزلا قديماً واسعاً يتصل بالمقابر وحديقتها ، ولهذه الحديقة رجل أشعث أغبر ، يلبس ثوبا طويلا من ثياب النوم ومن فوقه عباءة حيدرية ، ويشتغل في النهار بسقيّ الحديقة . ولما انتصف الليل جلست الى النافذة فلمحت أشباح بضعة أشخاص أمام المنزل

المهجور ، وأحدهم ينقر على بابه نقرات خفيفة . فأطل عليهم من الشرفة العليا ذلك الرجل الاشعث الذي كان يعمل في الحديقة نهاراً ، ولما خاطبهم نطقوا بكلمة « سر الليل » فجذب الرجل الحبل وفتح لهم الباب وتوارت الاشباح في الظلام

وأخبرت سيفي بما رأيت فقال لي ان ذلك يحدث في كل ليلة ، وهذه الاشباح أشباح المتطوعة الذين ينزحون الى الانضول . وكانوا أمس يتداولون في نزوح حشمت بك . فجلست في الليلة التالية امام النافذة وجعلت أراقب الاشباح فرأيت بضعة منها وليس فيها مايشبه قامة حشمت بك . وعدت فسألت سيفي فقال ان حشمت بك لم يسافر بعد

لقد عزم سيفي أيضاً على الهرب ، أما أنا فلا أزال منتظرة على أمل أن تهرب معنا . ما امرضك قد طالت مدته كثيراً !

١ ابريل

لقد تفاوضت الليلة البارحة مع سيفي والضباط الشبان الآخرين العازمين على الهرب . فقالوا ان السفر بقطار (بروصة) غير ممنوع . آه ، لو وصل اليّ خبر منك ! ولكني أخذت أفكر في الايام الاخيرة أنه ليس من الصواب الاعتماد كثيراً على استمالتك بالتدريج الى ما نحن فيه . ان سيفي سيوصلني الى عند احسان الذى يتجول الآن في منطقة (أضه بازار) ، ويقال ان جمالاً ايضاً حضر من ازمير الى هذه المنطقة . وعلى كل حال فاني متى قفزت الى الانضول فان في امكاني ان أقوم بعمل »

*

ولما قرأت هذا القسم الاخير من رسائل عائشة اضطربت ولم يعد يقر لي قرار . اذ ماذا تكون حالي اذا هي تركتني وتوغلت في الانضول ؟ فكتبت اليها رسالة مسهبة وتذللت اليها كالكلب راجياً منها أن لا تتخلى عني . وقلت لها اني لا أريد شيئاً غير ان أعمل عمل جمال واحسان وأعيش عيشتهما . ولقد

كنت معهما غير ان المرض حبسني عن سلوك سبيلهما . ورجوتها أن تعلمني بمكانها لالتحق بها في أول يوم أستطيع الخروج فيه من المنزل . ثم ذكرتها بحداثة سنهـا وأن من الخطأ أن تندفع في مشروع دموي دون أن يكون معها أخ لها يرافقها

أرسلت رسالتي وانتظرت يومين بفارغ الصبر فلم يأتني جواب عليها . نعم ، ان سيفي اجتمع بزينب وأخذ الرسالة منها ، ولـكنه لم يعد بعد ذلك اليها ؛ فرأيتني كالطفل البائس التائه في الشوارع . وكانت تأتي أخبار كثيرة من الانضول ، والصحف تنشر حوادث سيئة لا أدري ما اذا كانت صحيحة كلها . وهل صحيح ان احسان في (اضه بازار) ؟

وفي الاسبوع الاول من أبريل انحدرت الى استنبول على عربة ، وقابلت أحمـد أغا ، فهزّ رأسه وقال : ان زينب انقطعت الصلة بينها وبين الذين في (اسكدار) فلم يعد يتردد اليها أحد منهم

وأسوأ من ذلك ما علمته بعد أسبوع ، فقد جاءني أحمد أغا بوجه عبوس مضطرب ، ونقل لي عن مُواطن له من رجال البوليس ان الحـكومة علمت بوجود امرأة ازميرية في احدى جهات اسكدار هي واسـطة المخابرة بين الاستانة والانضول ، وهي التي تنشر المنشورات . وقيل عنها انهـا تشتغل بمهنة التعليم في المنازل ، والحـكومة تشدّد في طلبها . فقلت في نفسي انهـا عائشة بلا شك ، ولا بد أن يحكم عليها من المجلس العسكري بالاعدام ، أو على الأقل بالسجن خمس سنوات أو عشراً . وقد سبق للمجلس العسكري الحـكم على النساء . ولعل عائشـة لم تنتقل الى الانضول انتظاراً لشفائي فقامت بهذا العمل . ترى أين أستطيع أن أجدها ؟ هي تقول في رسائلها انهـا اجتمعت بسيفي في (دوغانجيلر) ، اذن فهو غير بعيد عن تلك المنطقة . ولـكن من المحتمل أن يكون سيفي أيضاً في جملة المطلوبين فآثر العزلة والانزواء ؛ فما هو السبيل الى هذه المرأة ؟ اليوم أدركت حق الادراك ان على جسمي قميصاً من

نار . وكنت أطوف كل يوم في تلك الناحية بين اكواخ اسكدار وخرائبها ، وأقف في الازقة المظلمة ، تحت المنازل المسقوفة بالعرائش ، وعند حنفيات الماء الملتفة عليها صنوف النباتات ، فأراقب النساء من تحت ملاءاتهن السوداء الى أن أسمع منهن كلمات التوبيخ والتكدير ؛ وقد قالت لي احداهن :

ـ مالك فقأ الله عينك ! أأنت جاسوس للافرنج ، أم أي شيء أنت ؟

وفي نهاية أسبوع قضيته بعظيم الآلام دنوت من اسكلة اسكدار لاركب الباخرة في وقت متأخر ، فلمحت سيفي يسير مسرعاً تحت أنوار المصابيح ، وعلى رأسه قلنسوة سوداء ؛ فأمسكت بخناقه كما يمسك الغريق أداة النجاة ، ومشينا معاً لنذهب الى اسكدار دون أن أطلق عنقه من يدي ، فقال لي :

ـ انك تلفت الانظار الينا بعملك هذا ، فدعني !

أما أنا فلم أكن أبالي بما يقول لاني أمسكت به ذيل عائشة التي ما برحت تهرب مني ، فكيف أفلته من يدي ؟ وعادت الينا السكينة بعد ذلك ، فركبنا احدى عربات اليد (١) حتى أتينا منزل صاحبنا سيفي . وكان سيفي قد انقطع عن الذهاب الى زينب لان البوليس يطارده ولانهم اكتشفوا أوصاف عائشة

ولما دخلت المنزل رأيت عائشة قاعدة فوق طراحة فرشت على الارض وهي تغلي القهوة لوالدة سيفي ، فقبلت يدها وبللتها بالدموع كما يصنع الآخرون ، ثم قبلت يد الوالدة أيضاً فكان بكائي باعثاً لها على أن تبكي هي أيضاً . ولاحظت ان وجه عائشة صار رقيقاً وأن عينيها ازدادتا سعة . على انها لم تبك قط ، بل كنا نراها أقوى الحاضرين وأكثرهم سكوناً

لقد كان علينا في ذلك الحين أن نسرع جهد طاقتنا في الرحيل عن هذا المكان . وكانت الخطة التي رسمناها أن نشتري من الفلاحين عربة وثورين يجرانها ، وأن نحصل على ثياب فلاحين لي ولسيفي وعائشة ، وأن نتوجه الى (اضه بازار) . واذا بلغنا (صماندير) نصير في منطقة نفوذ اخواننا وعصاباتهم.

(١) هي عربات تستعمل هناك لها أربعة دواليب وتجر باليد

ولم يكن يمكن تهريب عائشة بطريق سكة حديد (بروصة) لان أوصافها صارت معروفة عند رجال البوليس الذين يواصلون البحث عنها بشدة

* * *

-٢٠ نوفمبر ، ١٩٢١ -

أنا أفكر الآن برأسها الصغير الذي ألقت عليه خماراً أسود أدخلت أطرافه تحت ثوبها القروي ، وقد لفت ذقنها حتى رأسها بعصابة من الشيت وردية اللون . وكانت زمردتا عينيها تهتزان من الوجل في بعض الاحيان كما يصنع الطفل وهو في السنة الثانية من عمره . على انها في المواقف الرهيبة - التي أرتجف منها أنا وسيفي - كانت عيناها الدعجاوان تضيئان بوميض مدهش ، وتسددان من بين أهدابها السوداء نظرات الحزم التي ينظر بها أشد الرجال ارادة وأعظمهم مقدرة . وقد أثرت الشمس في وجهها فصار نحاسياً كالذهب المحروق . أما شفتاها فكانتا أشد حمرة ونضارة منهما في أي زمان آخر ، فيا لها من فلاحة حسناء ! وان ائتلافها المواشي في مزارع أبيها أكسبها ملكة وتمرناً في سوق مامعنا من الثيران ، وحسن التصرف فيها ؛ وسهل علينا السير معها في حرارة الشمس ، وتحت أنوار الكواكب ، وفي البر المقفر ، ووسط الحقول الخضراء في بعض الاحيان . وكنا اذا مررنا بالقرى نبيت دائماً في العراء . وكان معنا غرارتان وضعنا فيهما ملابسنا وحوائجنا وسترنا أعلاهما بقليل من الفحم . واتخذت أنا وعائشة فراشاً من حشيش فرشناه في عربتنا ، وكنا نتناوب الخفارة والسهر . وبالرغم من المخاوف والاخطار العظمى التي كانت تحف بنا فانه لم يكن أحد في الدنيا أسعد منا . وكنت ألاحظ أحياناً أن وجهها الصغير كان يعرق ويذبل ، وأن حدقتي عينيها تزدادان سواداً . وكانت في أحيان أخرى تنزع حذاءيها القرويين الضخمين وتهرع الى الماء الزلال الجاري فتغسل فيه رجليها البيضاوين الطويلتين كما يفعل الاولاد . وفي (قت دره) وقفنا نحن الثلاثة الى جانب ثيراننا وأرسلنا الى البحر نظراتنا الاخيرة . وان

فرضـة (ازميت) كانت تتراءى بشكلٍ منحنٍ تحفّ به من جانبيه خضرة أشجار الزيتون الصـغيرة ، ثم تلتوي ميـاهها الزرقاءَ السعيدة متجهة نحـو الاستانة البيضاء . وفيما كنا نتتبع هذه المشاهد بانظارنا انحدرت الدموع من عيوننا أنا وسيفي ؛ وكان ما أشعر به من الحزن على مصائب أو طاننا موجهاً الى الاستانة قبل ازمير . أما هي فكانت عيناها جافتين تنبعث النار منهما . ثم حيينا هذه البقعة الصغيرة الضيقة من البحر ، وقبلنا ساحلها ، وارتحلنا ، بعد أن أرسلت عيناي شعاعين من نور أخضر لامع حسرة على الاستانة وتلهفاً. ولقد أيقنت الآن بأني أصبحت مسيراً بارادة عائشة ؛ فهذا قميصها الناريّ على جسدي ، وسوطها الناري في كفها تسوقني به . وبينما كانت مياه البحر تنثني منحدرة بما يعلوها من الزبد الابيض كنت أنا مفكراً لآخر مرة بسواد عينيْ امرأة عجوز لاريب انها تدعو الآن عليّ قائلة :

ـ أرجو الله أن لاينقذك من نار تتقد في جوفك ، أرجو الله أن يبتليك بالحسرة والجوع طول أيام حياتك !

— ٥ —

أيام الثورة

ـ ٢١ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

كانت سيرة السابقين الاولين من رجال الحركة القومية منتشرة في جميع هذه الاصقاع : فكلما نزلنا قرية نسمع فيها حكاية عنهم ، أونرى فيها أثراً من آثارهم . ولقد تقدّمتنا في هذا الطريق سيارات من رجال ونساء ضاقوا ذرعاً بما ملأ الاستانة من بواعث التمرّد وصنوف الألم . فلجأوا منها الى هذه الديار

ورأينا في طريقنا مشاهد غريبة : فمن جندي تمنطق بجعبة سلاحه ؛ الى رجل او رجال يظهرون في سفوح الجبال ثم يختفون ؛ وقد شدّوا أوساطهم وصدورهم بمحافظ الرصاص ، ووضعوا على رؤوسهم قلانس لازية . وقد تبدو لنا القافلة الاستنبولية كلها من بعيد ولا تلبث حتى تتوارى . ورأينا ضباطاً بملابس الجنود راكبين خيلاً سروجها من خشب وأعنتها الحبال ، كما رأينا رجالاً من الملكيين عليهم معاطفهم

وكنا نسير معتزلين جميع الناس فلا نخاطب أحداً . وكانت القرى التي مررنا بها قد سادت فيها سكينة التردّد ، والناس يتناقلون الاخبار الواردة من داخل الانضول عن نشوب الثورة

ولما مضى علينا في سفرنا هذا ثلاثة أيام تمكنا من الوصول الى أول مناطق الثوّار ؛ فشاهدنا باعيننا نموذج هذه الثورة الجديدة : كان القوم مدججين بالرصاص من نحورهم الى خصورهم ، وفي مناطقهم المدى والمسدسات ، وكانوا يقفزون بخفة ورشاقة ؛ كأنما تحت كل رجل من أرجلهم (زنبرك). وهم يسيرون وبنادقهم على أكتافهم أو يهزونها في الهواء فوق رؤوسهم . وكلهم متشابهون فيما تقدحه عيونهم من نار وشرار ؛ وان كانوا مختلفين في المهن

والاعمال والمراتب التي جاءوا منها : ففيهم رجال العصابات الذين ظلوا يقاتلون الثوار البلغاريين سنوات كثيرة في جبال تراقيا ومقدونية حتى نضجوا . وفيهم الضباط ، وفيهم غير ذلك

ان اتصال عائشة بهؤلاء كان يحملها في باديء الامر على استغراب ما هم فيه ؛ غير أنها مالبثت أن استأنست برؤيتهم . واضطررنا أن نبوح في البداية بأن عائشة شقيقة البكباشي جمال بك ، وأنها جاءت هاربة من الانكليز . وكانت ملابسها القروية جعلتها كأنها أحدث سناً وأبدع حسناً ؛ ولكن كل من سمع قصتها كانت تشتعل في عينيه نيران الثورة المضطرمة ، حتى غدت عائشة في نظرهم كأنها الشارة القدسية للجهاد في سبيل ازمير

وكان القرويون تجاه هذا الموقف المبهم يعملون في مزارعهم وهم كالاوز النافر متخوفين من غمرة قاتمة يرونها من بعيد

ولما بقي بيننا وبين (أضه بازار) مرحلة واحدة مررنا بقرية من قرى (قنديره) وهنالك اجتمعنا بطليعة اخواننا في الانضول . ذلك بأننا نهضنا من تلك القرية مع صياح الديك في الصبح ؛ فلاح لنا القوم على المروج الخضراء ، في السفوح الصفراء المقابلة لنا ، تعلوهم حمرة السحاب ، وتحف باشباحهم ظلال بنفسجية اللون . ثم اقتربوا منا على خيولهم بسرعة عظيمة ؛ فرأيناهم فرساناً ثمانية يلبسون ثياباً سوداء من ازياء سواحل البحر الاسود ؛ ويتقدمهم واحد منهم ؛ وهو ضابط حديث السن قد احتفظ بقلنسوته على رأسه . وكانوا يريدون أن يتجاوزونا متقدمين في طريقهم ؛ لكنهم عادوا فوقفوا عندنا وحيونا ؛ فكانت عائشة تضحك بعينيها الدعجاوين . والتف الفرسان حول ضابطهم الصغير الذي كان له وجه وردي صغير مستطيل ؛ وفي كل من وجنتيه وذقنه نقرة « طابع الحسن » ؛ واسنانه ناصعة البياض ؛ وهو يتكلم بلهجة طربزونية خالصة . فسألونا عما اذا كنا رأينا في هذه المسالك رجلين وامرأة فارين من الاستانة . وقالوا ان اسم المرأة عائشة . فأرسلت عائشة الى قلوبهم

ابتسامة من وجهها الذي اكتسب في هذا الطريق نضارة وحداثة كوجوه الاولاد ، وقالت :

ـ أنا عائشة ، أيها الاخوان !

فأدهشتهم بلهجتها المدنية الموزونة ، وعكفوا جميعاً على يدها يقبلونها بخشوع ديني واحداً بعد واحد ويضعونها على رؤوسهم . وكان هؤلاء كوكبة من رجال احسان الذين يقاتلون في (كيوه) ، وقد أرسلهم لاستقبالنا . وكان أول ما اهتممنا به في تلك الساعة الحصول على ثلاثة من الخيل لتركبها ، وعلى دواب تحمل عليها حوائجنا . والنظر في أمر عربة الثيران . ثم كانت أيامنا الثلاثة التي أمضيناها بعد ذلك للوصول الى (أضه بازار) أروح ايام رحلتنا

وكنا نسير في قلب واد أهضامه عالية مائلة ، وعائشة ممتطية جوادها كجميع القرويات ، ورفيقنا الضابط أحمد رفقي سائر يتحدث مع رجاله اللابسين ثيابهم اللازية السوداء . وفيما نحن متأهبون لخوض مياه عميقة يتلوها مستنقع تراكمت فيه الاعشاب والكلأ الشائك ، ونبتت فيه أشجار الصفصاف ، سمعت دوي رصاصة انطلقت وراء أذني ، وفي مثل طرفة العين كان رجال أحمد رفقي قد ترجلوا وتحصنوا وراء صخور صغيرة وجدوها خلفهم ، وبادر أحمد رفقي الى عائشة فانتزعها من متن جوادها وذهب بها الى موضع في جانبه يدرأ الاذى عنها . وكذلك فعلنا جميعاً فاننا انبطحنا على الارض وراء تلك الاحجار . وسدد أصحابنا بنادقهم الى ما يليهم من منابت القصب ينتظرون ما يجب عمله ، وكنا نرى فوهة بندقية مسددة نحونا من بين القصب ، ثم سمعنا من هناك صوتاً أجش خشناً يقول :

ـ ألقوا بنادقكم بعيداً ، واضطجعوا على الارض !

فأجابه أحمد رفقي بصوت أعلى ، ولكنه صوت الحداثة الصافي كالبلور ، فقال :

ـ تعالوا خذونا اذا استطعتم أيها الانذال !

فازداد صاحب الصوت الابحّ اغراقاً في الشتيمة ، وقامت بينه وبين أحمد رفقي مبارزة بالسباب . وأخيراً صاح بهم أحمد رفقي :

ـ أذهبوا أيها الكلاب ، والا فاني سأسلخ جلودكم

وبادرهم باطلاق النار ، فكان الرصاص يدوي من الجانبين ، وكانت الشتائم على ازدياد بينهما . وصاح أحمد رفقي :

ـ حذار ان ترفعي رأسك ياسيدة عائشة !

وفي النهاية رأينا الضجر بدا على تلك الوجوه البليدة بين القصب النابت في الجانب الآخر ، فانتهز رجال عصابتنا هذه الفرصة وصاحوا صيحة كبرى هجموا معها على القوم ، وبعد أن رشقوهم بالرصاص مرات متوالية عادوا وقد قتلوا واحداً من الاعداء سقط جسده بين القصب ، وجرح من جماعتنا واحد برصاصة نفذت من فخذه ، فأسرعت عائشة الى حوائجها فأخرجت منها زجاجة صبغة اليود وقطناً وضماداً فشدت به جرح الرجل ؛ فالتفّ أفراد العصابة حولها وهم يشعرون بحب لها يشبه العبادة . ثم أركبنا الجريح وسرنا على مهل ؛ فلما مررنا بجانب العدوّ المقتول نظر الجميع الى وجه عائشة فلم يروا عليه علامة ذعر ولا أثراً للاصفرار . وان عصابة أحمد رفقي لم تنس قط هذه المزية لعائشة . وكنا كلما وصلنا الى قرية يذهب اليها بضعة أشخاص من جماعتنا ويرجعون حاملين لعائشة في جيوبهم البيض والجبن وكل مايجدونه ، ويقدم لها كل واحد منهم علبة سجايره يكرمونها بها ؛ فتغمض هي عينيها وتمدّ يدها فتأخذ سيجارة من العلبة التي تقع يدها عليها من غير تعيين لئلا تكسر قلب أحد منهم . وكان صاحب العلبة التي تأخذ عائشة السيجارة منها ينظر حوله بسرور وغرور كأنه نال وساماً . وكانوا كلهم بمنتهى السذاجة وبمنتهى الطيبة . وانهم ليحدّثوننا بأخبار المعارك الدموية الشديدة كأنها عندهم من الحوادث البسيطة المعتادة ، ويستقبلون المصائب الكبرى بشجاعة ، ويقدمون اكتافهم القوية لحملها . وكانت فلسفة ثورتهم

بسيطة ومشروعة . فهم يرون أن فريقاً من الاغيار خدعوا الترك باسم المدنة ، ودخلوا وطنهم بغير حق ، وأخذوا يبتزّون ما فيه . ومهما كان مبلغ الصعوبة في الحصول على الذخائر الحربية فان هؤلاء الثائرين وطنوا نفوسهم على أن يعملوا ـ برضىً وسرور ـ كل ما يجب أن يعمل لاجل الدفاع ، ولاجل الحاق الاذى بالعدوّ مهما كلفهم هذا الامر

ان عائشة فهمت جانب الفضيلة من نفوس هؤلاء أكثر مما فهمه غيرها . وان روحها الاستقلالية التي كبرت في جبال ازمير الفسيحة قد أحبت جنود الاستقلال بكل ما فيهم من فضائل ونقائص

وكان أحمد رفقي ولداً ذا قلب بلوري جميل أكثر من جميع الذين رأيتهم في طريق الانضول ، وهو أيضاً واحد من جنود ازمير الحقيقيين عند عائشة ، وقد آلى على نفسه أن يبقي كذلك الى أن تنطفيء عيناه . وكأني أنظر اليهما الآن وهما على ظهر جواديهما يسيران جنباً الى جنب وهما يتحدثان ساعات طوالا . وقد تنبهتْ لها في نفسه عاطفة حب تمازجها حرمة وعبادة وحماية ؛ وهي أيضاً قد أحبته حتى الساعة الاخيرة حب الاخت الكبرى لاخيها ، وحنت عليه حنان الام الشابّة على ولدها

واقتربنا من (اضه بازار) في عتمة المساء . وكانت لأضه بازار حالة ثورية تختلف في كل يوم بل في كل ساعة : فهي ميدان لعصابات الارنؤوط والشركس والابازيين والترك ، يتنازع بعضها مع بعض في كل يوم ، كما أن القرويين يتقاتلون من حين الى حين ومن ساعة الى ساعة ، فينتصر فريق على فريق ، ويكون له الحكم والسلطان ، ثم يتخلى عن كل شيء

وقال أحمد رفقي يصفهم وهو يضحك :

ـ والمصيبة الكبرى الفلاحون الذين يأتون بفؤوسهم . فاذا أهوى الواحد منهم بفأسه على رأس رجل ذهب شذر مذر . على أنهم لم يتهيجوا بعد تهيجاً شديداً ، وغاية أمرهم انهم يغضبون في بعض الاحيان من كلا الفريقين

فيلوحون بفؤوسهم . وأما اذا غضبوا غضبة صادقة فالموقف خطير . وسنرى ما ذا يكون من أمر (بولي) و(دوزجه) . وان أهل (أضه بازار) ما برحوا مختبئين في الكمين ليقتنصوا أبناء السبيل

وفي ساعة متأخرة من المساء وصلنا الى قهوة تبعد ساعة واحدة عن (اضه بازار) . وأرسلنا واحداً من رجالنا الى البلد ماشياً على قدميه . وهذه القهوة مظلمة مستطيله ذات رائحة عفنة وأرضها من تراب . وأراد الموجودون هناك أن ينيروا المكان فأوقدوا ناراً بحطب متين ذي ظل أسود فأضاء بها الموقد . وبدا عليهم التعب الشديد ، والظاهر انهم يشربون شيئاً أبيض من زجاجة واحدة كانت في زاوية القهوة ، فتظاهرت عائشة للمرة الاولى بان عينيها العميقتين لم تريا شيئاً مما يصنع هؤلاء . فقال سيفي متذمراً:

ـ ان الدفاع لا يكون بهؤلاء ، وانما يكون بالجيش فقط

فأجابه شاويش انضولي من جماعتنا ، وكان جنديا قديماً ففر من الاستانة والتحق بالجماعة :

ـ ان هؤلاء يهربون كلهم اذا رأوا ثلاثة من الجندرمة

فاصفرت وجوه الموجودين في القهوة ، ونظروا الينا بنفوس متألمة . ولولا عائشة لكان لسيفي والشاويش الانضولي موقف سيء معهم . على أن الذي قاله كلاهما لم يقولاه بلسانهما وانما قالاه بلسان جندي وضابط من جنود وضباط الجيش التركي الذي لم يكن قد وجد حتى تلك الساعة . فحسمت عائشة الامر اذ قالت بصوت عال :

ـ وهؤلاء أليسوا جيشاً ، وهل الجندرمة التي تحاول أن تمسهم هي شيء آخر غير الانكليز واليونانيين ؟ ان هؤلاء كلهم من جنود الاستقلال ، من جنود ازمير ، انهم الجيش الاول من جيوش الامة !

كانت تقول هذا وهي في ظلال النار المشبوبة ، فتتراءى عيناها الدعجاوان من تحت عصابة الشيت القروية كأنهما عينا الصبي ، لما فيهما من

وميض الشباب والحياة . وكان لكلمتها تأثير عجيب على هؤلاء القوم . فجاءوا اليها والتفوا حولها معربين عن ارتياحهم اليها وانقيادهم لارادتها

آه يا ازمير المحبوبة ، يا ازمير النارية ! هل نحن نراك في شخص عائشة اذ نقتحم النار لاجلاك ؛ أم اننا نسفك دماءنا الحمراء ، في سبيل ازمير الخضراء ، لان عائشة ابنة جبالها ، وربيبة دلالها !

وأخيراً فرشنا بطانية عائشة على مصطبة القهوة باعتناء واهتمام ؛ ووضعنا أمامها البيض المسلوق والجبن باعتناء واهتمام أيضاً ؛ فتربعت هي ، وأخذت تأكل بجدّ كما يفعل الصبي . وكان القرويون من جماعة القهوة جالسين امامها على التراب بشكل حلقة . وأحمد رفقي جالس امامها أيضاً على كرسي صغير ، وكان يرفع رأسه أحياناً ويلتفت الى ورائه فيتكلم

ولم تعد عائشة كما كانت من قبل تمثالا للالم الصامت ، بل هي تعيش الآن بشعلة نارية ، وبروح فتية ، وبقدرة لا تتسع لها الدنيا كلها . وفيما كانت نيران الموقد تتلظى بشدة امتدت اليها علب السجاير من ثمانية سواعد سوداء ؛ وكان أحمد رفقي قد أسند رأسه الى المصطبة ؛ ووجهه الورديّ يبتسم بما فيه من النقر الثلاث ؛ وحينئذ فتح الباب ؛ وسمعنا وقع أقدام ورنة مهماز ، فالتفتنا جميعاً لننظر الى القادم ؛ ووقف هو ايضاً وفي يده سوطه ينظر الى هذا المشهد الذي نحن فيه ؛ فصحنا :

ـ احسان بك ، احسان بك !

وكان احسان ، ذلك البكباشي الفتى ، قد حضر الينا ومعه فارسان من جنوده ؛ وكان ـ وهو معفر بالتراب ؛ وقد احترق وجهه اللطيف بحرارة الشمس ، فاكتسب شدّة وقسوة ـ أشبه شيء بتمثال الدفاع المخيف

ولما رآه جماعة القهوة صاروا يقفزون كالبراغيث هرباً منه ، فألقى بنفسه على يدي عائشة يقبلهما بتهيج ، وبالخشوع الديني الذي قبل به يدها يوم قابلها على مرفأ الاستانة عند قدومها من ازمير

وبعد المفاوضة والتفكير قررنا أن تذهب عائشة الى منزل مفروش واقع على مقربة من قرية (دوغان جاي) بعد (اضه بازار) ، وأن تقوم الآن بوظيفة ممرضة للقوات التي يقودها احسان ، وكانوا قد اعدّوا في تلك القرية مستشفى صغيراً لتمريض بضعة أشخاص . ولكن هنا لك مهمة ايصال عائشة الى القرية بامان دون أن تدخل (اضه بازار) . فرأى احسان أن اكون معها وأن نبقى كلانا بملابس القرويين . وأراد أحمد رفقي ورجاله الثمانية أن يقوموا بمهمة ايصال عائشة ، وان يقاتلوا دونها اذا اقتضت الحال . وقال أحمد رفقي وهو يبتسم بوجهه الغضّ :

ـ واننا سنجرح كلنا في هذه المرّة يا احسان بك ، فتضمد الاخت عائشة جراحنا

فاكفهرّ وجه احسان ، وحوّل نظره الى عائشة التي ربما كانت راغبة في اجتياز الطريق مع هذا الجمع كله : احسان وأحمد رفقي وفرسانهما . وظهر من نظرة احسان الى أحمد رفقي انه قائد حازم شديد ، ولو لا وجود عائشة لما بدت منه هوادة فيما تستلزمه طاعة المرؤوسين لرئيسهم . وأخيراً قال لي :

ـ قل أنت كلمتك الاخيرة يا بيامي ، بصفتك أخاً لنا

فقطبت عائشة ما بين عينيها الزمرديتين اللتين احلولكتا على نور الموقد المتأجج تحت ذلك الدخان الكثيف الذي كان يرسب في ظلام الطبقة الواطئة من جو القهوة ، وقالت :

ـ ألستُ ممرضة لقواتكم ؟ ان عليكم أن تعينوا في الحال ساعة الرحيل

ان بين المرأة الحقيقية وبين الخليقة الاولى رابطة وثيقة جداً . والنساء مهما تفاوتت درجة تعليمهن فانهن أطفال القوة ، وأطفال العاطفة المتهيجة ، وأطفال الارض

ولما قالت عائشة كلمتها تقرر أن ننتهز فرصة الليل ، وأن نسير الى أن ندع (اضه بازار) وراءنا . وركبنا خيلنا تحت الظلام ، وكانت عائشة قد أخذت

تخرج من يدي ، لانها دخلت في حماية أحمد رفقي واحسان . وتقدم امامنا فارسان ليكونا طليعة لنا ، حتي اذا شعرا بالخطر اطلقا رصاصة في الهواء اعلاماً لنا . وسارت عائشة بين أحمد رفقي وسيفي ؛ وسرت أنا واحسان وراءهم

لا أزال أذكر مروج (اضه بازار) الكثيرة الوحل ، وشجرات الصفصاف المتفرقة هناك وهنا بلا نظام . ولكن الذي أذكره زيادة على ذلك أني كنت أشعر بضربات قلب احسان وهو يسير الى جانبي وسط ذلك الظلام . فقد كان المسكين يعاني أشد عواصف القلق والاضطراب ؛ وآلى على نفسه أن يلتزم الصمت كانه الاسير المنقاد. وكان يخترق الظلام بنظراته ليرى الاشباح السائرة امامه . ولما رأى عائشة تميل الى أحمد رفقي لتقول له شيئاً وهو يحدثها بصوت منخفض كدت أرى ثياب احسان تنتفخ عند صدره لشدة خفوق قلبه ؛ فيالتلك الساعة التي قطعناها في الرطوبة والظلام ماكان أطولها ! لقد قطعناها بألسنة صامتة وعظام ترتجف !

وكنا كلما أردنا أن نخوض ماء يتقدم احسان بجواده الى الامام فيقود جواد عائشة ؛ ثم أسمع صوت حركة أرجل الخيل في الماء وسط ذلك الظلام الذي بدأ ينهزم أمام الضياء ؛ وكأنه كان يطارده ويرجمه بالحجارة . ولما أخذت تنقشع أواخر الظلمة بأوائل النور كان أول ما رأيناه أنا واحسان سواد ملابس الفلاحة الحسناء وعصابتها الزاهرة وكانت تغمز جوادها برجليها وتجيل نظرها في أنوار الصباح وهي تسير صامتة . واخترقنا طريقاً كالمضيق تكتنفه الاشجار من جانبيه ؛ فقال لي احسان بصوت خافت ووجه مضطرب شاحب :

ـ لقد علمتني السيدة عائشة معنى الخوف : ان هذا المضيق مشئوم ، فينبغي لنا أن نكون على انتباه

ثم أصدر أمره بأن يكون أحمد رفقي في الطليعة وأن يكون هو ساقة الركب وأن يحف الفرسان كلهم من حول عائشة ؛ بحيث اذا فوجيء الركب برصاص من كمين يكون الفرسان دريئة لعائشة

ولما انتصف النهار كنا قد اقتربنا من القرية التي نقصدها . وكانت الرحبة التي امام القرية مزدانة بالاشجار ، وطرقها كثيرة الغبار . وعلى أبواب القرية بضع نساء وضعن أكفهن فوق عيونهن يحجبن عنها نور الشمس ليستطعن رؤيتنا من بعيد . وما لبثن أن أسرعن الى المنازل فارتفعت الاصوات في جميع القرية منذرة بالخطر ، وانتشر الناس من بيوتهم ، وتراكض النساء والاولاد ، وصفق الاوز والدجاج بأجنحته يريد ان يطير ، ونبحت الكلاب . ورأينا هذا السيل من النساء والاولاد يدور حول القرية بسرعة مدهشة . فغمز احسان جواده وجرى مسرعاً اليهم ، ثم ناداهم :

ـ لا تخافوا ، فنحن من قوات البكباشي احسان !

وما سمعت النساء قوله حتى رأيناهن يتراكضن نحوه تتطاير معهن أطراف ثيابهن . ووصلت اليه فتيات القرية وهن حافيات فأمسكن عنان جواده ، وبعضهن استند الى مهمازه ، ولفتن وجوههن اليه بمحبة ، وأخذن يتحدثن معه كالاصدقاء بلا تكلف . وسكنت عاصفة « الخطر » في جميع القرية ففهم ذلك كل سكانها ، عدا دجاجتين طائشتين ، فانهما ما برحتا تصفقان بأجنحتهما تثيران بها غبار الارض في الهواء . وترجل احسان عن جواده ، ومشى من ورائه نساء القرية كلهن بين فتيات وعجائز ومن معهن من الاولاد والاطفال . وتسرب بين هذا الجمع واحد أو اثنان من جنودنا ، ولعلهما من أهل هذه القرية التي كانت ترى أن قوتنا هذه خاصة بها . ولم يكن ليحدث الاضطراب الذي حدث عند اقترابنا لولا أنهم ظنونا في باديء الامرة قوة أجنبية عنهم

ومما لفت نظري بوجه خاص فتاة من هؤلاء القرويات تلبس سروالا أحمر وعلى رأسها غطاء ضاف ولها عينان خضروان وهي لا تكاد تفارق احسان . ولما أقبل نساء الحي جميعاً يحيين عائشة ويعانقنها كانت هذه الفتاة واقفة الى جانب الصبي الذي يمسك جواد احسان وهي مستغرقة في التفكير .

فناداها احسان :

ـ لماذا أنت واقفة هنالك يا كذبان ؟ تعالي فقبلي يد الاخت عائشة !
فأقبلت كذبان على نداء احسان ، ولست أدري هل لاحظت عائشة هذا المشهد أم لا ، غير أنها كانت ساكنة ، وكانت كأنها متأثرة بما تبديه نساء القرية من مظاهر المحبة ؛ وعلى كل حال فاني رأيتها تقبل وجنتي كذبان الحمراوين الواسعتين كما تقبل الاخت الكبرى أختها الصغرى

***

ـ ٢٣ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

لقد اشتد البرد اليوم في الخارج ، حتى كأني أشعر برجلي المفقودتين قد جمدتا ، وكأن أصابعهما لا سبيل الى تدفئتها ؛ فأشرت الى سالم بأن يدلك يديّ وساعديّ . ولقد انجمدت المواضع الممسوحة بالماء من البلاط . فما أشد حسرتي الآن على ما أنا فاقده من حرارة تدفئني وانسان يكون ذا قرابة لي !

وحاولت ان أقرأ مذكراتي الاخيرة فلم أفهم منها شيئاً في باديء الامر ، ثم أخذت أفكر في قرية (صاريار) التي في (دوغان جاي) ، فأثار ذلك في نفسي ذكريات الماضي

أنا أذكر الآن ذلك المنزل الابيض ذا الشرفة الصغيرة الذي اتخذوه مستشفى يسيل الماء الزلال على مقربة منه وتؤدي اليه الطرق الكثيرة الغبار وتترنح وراءه أشجار الصفصاف الخضراء . فيالها من أيام تأنس بها النفس ، وتنتعش العواطف . لقد كنت أذهب الى ذلك المنزل كل يوم من تلك الايام الثورية الدموية ، فيبتسم لي هو وسيدته ذات الثوب الابيض والحجاب الاسود ، عند ما تكون مطلة من شرفتها الصغيرة وهي حاسرة كميها عن ذراعيها . وكان سيفي قد التحق بقوات احسان ، وأقمنا نحن في القرية مع رجال احمد رفقي . فكنت أرى كذبان حائمة دائماً حول المنزل بسروالها الاحمر وغطاء رأسها الطويل المنقوش ، فهي تقف هنالك وراء الاشجار

تنتظر ، وعيناها مستغرقتان . أما أنا فأعلم الشخص الذي تنتظره ، ولكن هل كانت المرأة ذات الثوب الابيض تعلم ذلك أيضاً ؟ وقد كان يحتمل أن يحضر احسان الى هنا في كل وقت ؛ غير ان كذبان كانت تعرف ذلك اكثر من عائشة

وكان دأب عائشة أن تروح دائماً وتجيء وهي حاسرة عن ذراعيها ، فتجتمع بأولئك الذين يخطرون بين أشجار الصفصاف متمنطقين بمحافظ الرصاص ومتأبطين البنادق ، فتعطيهم من عقاقيرها أو من حكمتها . وهم أيضاً كلما حزبهم أمر يهرعون اليها يستشيرونها . وكان من هؤلاء أحمد رفقي الذي كان يربط جواده كل يوم بشجر الصفصاف ويأتي اليها فيناديها بصوت مملوء سروراً وشباباً :

ـ أيتها الاخت عائشة !

وكانت عائشة تجلس في شرفتها على مقعد من خشب تمتع نظرها بالخضرة التي أمام منزلها . وقد يتراءى شبح احسان متطايراً بين الاشجار وهو على جواده الاسود ؛ فيكون أول من ينتبه الى قدومه الفتاة كذبان الملتصقة دائماً تحت الشرفة كأنها شبح ، فتنادي :

ـ جاء احسان بك . . .

أما احسان فانه يأتي متلهفاً وعيناه متوجهتان الى الشرفة . ومع ذلك فانه يميل بنظره الى عيني الفتاة الخضراوين ويقول لها :

ـ كيف أنتِ يا كذبان ، وكيف عجلك الصغير ؟

مسكين احسان ؛ انه متألم بقدر ما هو سعيد . وكل الذين يلبسون قمصاناً من نار يعلمون ان النار تحرق مثلما تدفيء

ان أحمد رفقي اكثر الناس هنا افتكاراً بعائشة ؛ وكذبان اكثرهم افتكاراً باحسان ؛ فهي لا تخلو من هدية له : فاما أن تأتيه باللبن الحليب أو اللبن الرائب ؛ أو أن تحمل اليه الفاكهة في صدرها أو في طرف خمارها وتصر عليه

بأن يأ كلها . ولا تزال هـذه الفتاة تحوم حول المستشفى كأنها الهيولى الى أن يخرج احسان ويقول لها « أستودعك الله » . فيا لها من فتاة بائسة يضيق جسمها بما في نفسها . وطالما اقترح احسان على عائشة أن تضم كذبان اليها لتربيها في المستشفى ؛ فتجيبه عائشة بجواب مبهم . وكنت أنا شاعراً بأن كذبان لا تقترب من عائشة ، وتقابلها مقابلة باردة وشرسة ، وبأنها ممتلئة بالضغينة لها والحقد عليها . وكانت عائشة تعلم ذلك كله ولكنها لا تتظاهر بمعرفته . ومن الجهة الثانية فان في نفس احسان حقداً على احمد رفقي يزداد شدة وقسوة ؛ ولم يكن أحد غيري يعلم سبب ذلك ؛ حتى أن أحمد رفقي نفسه لم يعلم السبب ؛ فقد كانت له روح طيبة جداً وصافية جداً . والقرويون يتحدّثون بما تحلى به هذا الفتى من فضيلة العفة وخلق التضحية حتى بلغ فيهما درجة الجنون . وانه بالرغم من ضيق ذات يده لم يأخذ لنفسه شيئاً من الفلاحين بلا ثمن ؛ على أنه لم يملك نقوداً في زمن من الازمان

وكلما مضت الايام كان نسيم الثورة يزداد هبوباً واقتراباً . وكنا نسمع بالعراك القائم بين الثورة والحركة المضادة للثورة ، حتى لقد وصل هذا العراك الى قريب من القرية التي نحن فيها . وكان احمد رفقي يتخلف عن القرية في بعض الايام بل وفي بعض الليالي ؛ واحسان لا يجد وقتاً للحضور فيرسل شاويشه ليسأل عن حال عائشة . وقد جيءٔ الى المستشفى بخمسة من جنودنا الجرحى ؛ حتى لقد صرت أنا أيضاً أساعد عائشة التي كانت في قلق عظيم على احسان وأحمد رفقي رغم مالديها من المشاغل الكثيرة . وأخيراً حلّ اليوم المشئوم الذي تأصل كالمسمار في ذا كرتي

فقد كنت في مساء ذات يوم بين اشجار الصفصاف أمام المستشفى ؛ فلما رأيت احساناً مقبلا علينا وقد ترجل عن جواده واعطاه لرجاله تقدمت نحوه فرأيت في وجهه امارات الجد والسكينة ؛ وكانت عيناه تبحثان عن عائشة بحسرة مهزولة واشتياق أبكم ، حتى انه لم يسلم اليوم على كذبان التي

ذبلت وجنتاها لكثرة وقوفها في انتظار رؤيته منذ بضعة أيام ، وأخيراً قال لعائشة :

ـ أرجو منك صفحاً ياسيدة عائشة عن تقصيري في زيارتك . فقد كانت لديّ مشاغل كثيرة . وانا نفكر الآن في نقلك الى (اسكي شهر)

أجابته : ـ ولماذا ؟ هل هنالك خطر حملكم على أن تفكروا بذلك ؟

قال : ـ ان جمالا في اسكي شهر . . .

وقبل أن تصغي عائشة الى تمام كلامه نزلت من شرفتها وجرت نحو شجرات الصفصاف فتكلمت مع فارس من رجال أحمد رفقي ، ثم امتطت صهوة جواد احسان ، وأطلقت له العنان ، فقامت تعدو مع الفارس الذي كانت تخاطبه . ولست أدري كيف استطعنا أنا واحسان أن ندركها جرياً على أقدامنا ، وسألناها :

ـ ماذا جرى ياسيدة عائشة ؟

فسكتت ، وكانت مقطبة ما بين عينيها ، وقد أرتج عليها . واجابنا الرجل الذي معها بصوت جاف مختنق :

ـ لقد أصيب قائدنا !

فشعرت بأن احساناً ندم على ماكان في نفسه من حقد على أحمد رفقي ، وتحولت ضغينته الى حسد وغيرة ، فتمنى لو كان هو المصاب فينال هذا الاهتمام بأمره من عائشة . وذهبنا جميعاً نجري الى مكان الحادثة حتى وصلنا الى شجرة في الطريق الكثير الغبار فرأينا أحمد رفقي منطرحاً تحتها ، وكأن وجهه الغضّ لا يزال مبتسماً بنونات وجنتيه وذقنه (طوابع الحسن) ، وقد نام نوماً أبدياً برصاصة اخترقت قلبه . وكانت عائشة أول من وصل اليه ، فأخذت ترفعه كأنه صبي بين يديها ، وتناديه :

ـ رفقي بك ، رفقي بك !

وحلت ازرار صدره ، فيالله من مشهد لا انساه طول حياتي . . . انه لم

يكن له قميص يلبسه تحت معطفه ، وقد حزم سرواله بحزام من صوف تقطع طرفاه . وما كان أغرب مرأى جسمه الابيض الرقيق وقد انطبع عليه ذلك الجرح الاحمر المميت

وصنعنا له من اغصان الصفصاف محفة عنينا نحن وعائشة بوضعه عليها ومشينا به مذرفين الدموع عليه

وظلت عائشة تطوف طول ليلتها حول القتيل الراقد في شرفتها . وقد تحققنا أن قواتنا لن تستطيع الثبات طويلاً في تلك المنطقة اذا لم تعزَّز بمدد . وكان احسان قد قرر أن يذهب بي أنا وعائشة من هناك في الحال . ولكن عائشة كانت مصرّة على أن لاتبرح ذلك المكان ما لم تدفن أحمد رفقي ، فاضطر احسان الى ان يخفرنا طول الليل برجال احمد رفقي وبالفارسين اللذين معه من المساء الى الصباح خوفاً من أن نفاجأ بهجوم . وفي الصباح حضر إمام القرية فشيعنا جنازة فقيدنا الى المدافن ، وتركنا عائشة تحت اشجار الصفصاف تجهش بالبكاء كالاطفال . وبعد أن أودعنا هذا الفقيد الحبيب تحت تراب هذه البقاع الخربة من الانضول أخذنا نستعد للرحيل ، فتركنا الجرحى عند الطبيب على أن يلحقوا بنا على العربات التي يمكن وجودها

وارتحلت عائشة معنا بعينين احمرّتا وانتفختا من شدة البكاء ، وكان أهل القرية كلهم في اضطراب ووجل . وعاد النساء فاعتنقن عائشة كما فعلن يوم وصولها ، وأخذن ينتحبن ويبكين . ووجدنا لعائشة عربة مفردة ، فلما انتهت مراسم الوداع تحوّلنا عن شجرات الصفصاف وأخذنا نغذّ السير في ذلك الطريق الكثير الغبار . وكنت أنا واحسان على اتصال دائم بوجه عائشة الذي لم تبارحه الاكدار ، فننحني بين كل حين وآخر لننظر باهتمام الى ذلك الوجه الجميل المنكس أمامها بيأس وغم . وكاد احسان ينسى كل شيء غير هذا الوجه ، حتى لقد نسي ذلك الفتى البائس الذي قتل ، والخطر المحدق بالثورة المضطربة المبهمة

ولست أدرى كم ذا قطعنا من مسافات الطريق حين سمعنا صوتاً نسوياً رقيقاً ينادي من ورائنا ، فالتفتنا الى مصدر الصوت ، فرأينا فتاة قروية حافية القدمين تجري نحونا محركة يديها وهي تبكي ؛ أما أنا ففهمت كل شيء بعكس احسان الذي لم ينتبه للحقيقة الا بعد ان وصلت الفتاة الينا وأمسكت بزمام جواده ، وخاطبته بلهجة قروبي الانضول دون أن ينقطع بكاؤها فقالت :

ــ لقد قتل الأغيار أبي ، وليس لي أم ولا جدّ ، فلمن تتركونني وتذهبون ؟

فحاول احسان ــ برقة وتذمر معاً ــ أن يقنع كذبان بالرجوع . وكانت عائشة تراقب ساعتئذ هذا المشهد لأول مرة بقلق واهتمام . أما كذبان فلم تقتنع بأقوال احسان ، وكانت تقول :

ــ لا أذهب ، لا أذهب . أتحسبني لا أحسن اطلاق البندقية ؟ أيجيء النساء من أقاصي بلادهن الى هنا ليعملن وأنا موجودة هنا ولا أحسن العمل ؟

وكانت عيناها الخضراوان تلتهبان بأماني الشباب فتبعث في نفسي يقيناً بمقدرة هذه المخلوقة الصغيرة على ان تحارب كسائر الثوار . ولما كان احسان ينصح لها بالرجوع ويعدها بأنهم سيعودون ليأخذوها معهم كانت تزداد تهيجاً وتنادي :

ــ آه يا أمي ان جوفي يشتعل . أنا لا أبقى ، أنا لا أبقى

ولست أدري مبلغ اشفاق عائشة على هذه الفتاة المعذبة ، ولكنها قفزت من عربتها وأرادت ان تطيب خاطرها وان تسكن ثائرتها ، فازداد النار الذي في عيني كذبان التهاماً واحتداماً ، ودفعت عائشة بشدة ونفرة

ولما نزلت عائشة من العربة ترجل احسان لاجلها . فبادرته كذبان ممسكة بذراعه ، وحدقت النظر في عينيه . وجعلت تتوسل اليه بخطاب قالت في أوله :

ــ خذني أنا أيضاً معك ، فاني أذهب معك حيثما تذهب ، واني أقوم بكل خدمة لك . عزيزي ، عزيزي ! أنا أيضاً أخدم المرضى كهذه المرأة الحضرية

ورأت بعد الانتهاء من خطابها أنها لم تؤثر شيئاً على احسان وعناده الشديد فتولاها اليأس ، وأقعت على أصابع رجليها ، ووضعت رأسها بين كفيها ، وجعلت تنتحب ؛ فلم يبق في الركب أحد الا أشفق على هذه الفتاة المسكينة وجعلوا ينظرون اليها واجمين لايدرون ماذا يفعلون . وما كاد فتى من رجالنا يقول لاحسان :

ـ هل هناك مانع يمنع من أخذها معنا يا مولاي ؟

حتى تطور احسان بطور القائد ذي الحكم النافذ ، وقال بكل ما في صوته من شدة وقسوة :

ـ لست في حاجة الى الارشاد من أحد : الى أين تذهبون بهذه البنت وهي في هذه الحال ؟ وأنت يا كذبان انهضي ؛ وامشي أمامي راجعة الى القرية وسترين ما أفعله بعد

فنهضت كذبان على صوت احسان ونظرت اليه بعينيها المغرورقتين بالدموع مذعنة لارادته اذعان الصبي العاجز ؛ وكانت في بادئ الامر تريد ان تقول له شيئاً ؛ لكنها ذابت تحت نظرات الحزم التي كان لايزال يرسلها اليها من عيني الآمر القدير ؛ وانقلبت بعينين باكيتين وقلب منكسر ولسان صامت سالكة سبيل القرية . وحينئذ نادى احسان بالركب :

ـ امتطوا خيولكم !

ومدّ يده الى عائشة فأركبها في العربة . وخيل اليّ انهما تريثا لحظة على مرقاة العربة ؛ وتبادلا نظرة ذات معنى

لقد كان تأثير دموع كذبان شديداً على نفسي ؛ فسرى الى قلبي مافي قلبها من اليأس وهي راجعة الى القرية في الطريق الكثير الغبار وحيدة مهجورة منكسرة القلب . وسمعت عائشة تقول لاحسان بصوت استشعرتُه ممزوجاً بالالم :

ـ لماذا لم تأخذوا هذه البنت المسكينة يا احسان بك ؟

فأجابها : ـ كيف أدع بين جنودنا صبية بهذه الدرجة من حداثة السن ؟

نعم ان النساء المحاربات موجودات هنا وهناك ، ولكن ليس بينهن واحدة شابّة الى هذا الحد . على انكِ لو شئت لأخذتها معك الى اسكي شهر

قالت : ــ ولكن كذبان لا تريدني ...

قال : ــ ومتى كان الناس يوافقون المرء على كل ما يريده ؟

ولست أدري هل كانت محاورتهما مبارزةً بين عاطفتيهما ، أم منازعة بين قلبيهما ؟ انالنساء ذوات العيون الخضراء ينطوين دائماً على سموم قاتلة وسهام جارحة . ولو كانت الواحدة بنت ازمير أو أختاً لا تخلو من نار تحرق بها القلوب ، وأسنان كأسنان الفيل تعض بها الافئدة . لقد انشقت حمرة شفتي عائشة في ذلك اليوم عن خط ظالم ، وافترّت أسنانها البيضاء عن ابتسامة هزء مريز واستخفاف بلا مرحمة

نزلت أنا وعائشة ضيفين في (كيوة) على احسان ، وكان منزله قروياً ذا غرفتين ، وقد بادر احسان الى غرفته فأعدها لعائشة وانتقل هو منها ليكون معي في الغرفة المقابلة لها . وبينما كانت عائشة في غرفتها تزيل وعثاء السفر وتبدل ملابسها كنا نحن في غرفتنا نتحدث في ضرورة سفر عائشة الى اسكى شهر على القطار الذي يقوم من (لفكة) مساء الغد قاصداً تلك المدينة ، وأخبرني احسان ان جمالا كتب يطلب ارسال أخته اليه

ولقد كانت المنطقة التي نحن فيها الآن ميداناً للثورة تضطرم فيه نارها الجهنمية ، وكانت قرية (كيوة) هذه في قلب المنطقة ، وان الروم من أهل (ارنؤدكوى) رفعوا لواء العصيان ، وثورة (بولي) يمتد لهبها الى أبواب كيوة . لذلك كان احسان يرتجف كالطفل خوفاً على حياة عائشة ، ويرى من جهة أخرى ان افتراقها عنه كافتراق روحه عن جسده . واني لم أر ملامح القلق والاضطراب بادية على وجه احسان في يوم من الايام كما رأيتها بادية عليه في هذا اليوم ، فان العاصفة التي كانت مختبئة تحت ظواهره الساكنة ، والآلام التي كان يحاول كتمانها ، لم يعد الآن سبيل الى انكارها . وقال لي

يومئذ وهو مستغرق في أفكاره ، وعلى شفتيه ابتسامة الرقة المتناهية والتحسر العظيم :

ـ اذا ابتعدت عنا أختنا الفلاحة الحسناء ذات العصابة الوردية والثوب الابيض فسنكون بعد ذلك رجال الحديد والنار

فأجبته : ـ ان عائشة سوف لاتريد ان تذهب

قال : ـ حبذا لو وجدنا لها في كيوة زاوية نأمن فيها على حياتها ! ومع ذلك فاني أظنك مخدوعاً ، فان قواتنا لم يبق فيها ذلك المعنى الشعري في نظر عائشة بعد موت أحمد رفقي . . .

قال هذا من قلب أحرقه القلق ، وكأنه تجاه مثقب يخترقه . وقد آذيته قليلا بقولي :

ـ ان أحمد رفقي كان في الحقيقة المعنى الشعريّ لثورة (اضه بازار) ، وأي بنت من بنات ازمير تستطيع أن تبقى في معزل عن تأثير هذا الولد الجميل الذي أودع جدثه في هذه الطرق الغبراء من أجل الاستقلال ، ومات محروماً حتى من قميص يلبسه على بدنه

أين رأسه الذي برد بين ذراعي عائشة تحت الشجرة المنفردة في تلك الطرق الغبراء الشاسعة ، وأين جرحه الذي كان كالزهرة الحمراء في صدره الابيض العريان ؟ لقد احتجب كل ذلك عن ناظري كالطير اذا طار !

حتى متى هذه الدماء ، وحتى متى هذه الآلام والمشاق ؛ ومتى نمتلك هذه الحفنة من تربة أوطاننا ونستحقها بما نبذل في سبيلها من دماء شباننا ودموع أعيننا ثمناً غالياً ؟

وقال احسان بغتةً ، وقد احمرّ وجهه :

ـ لقد كان أحمد رفقي ولداً طيباً جداً يابيامي . ولكن حرمانه من قميص يلبسه على بدنه هو الجانب البسيط من خطوبنا الجسام !

وحينئذ دخل علينا جندي وقال :

ـ السيدة عائشة أرسلت في طلبك يامولاي

فهبّ احسان بسرعة السهم لتلبية طلبها . فقال له الجندي :

ـ بل هي تطلب بيامي بك يا سيدي

ولما قال ذلك صار الاسراع كالسهم من نوبتي في هـذه المرة . فرأيت عائشة حين دخلت عليها قد غيرت ملابسها بثوبها الاسود المعهود الذي كانت تلبسه في الاستانة ؛ وهي جالسة امام منصة خشبية تحت نور سراج صغير معلق بالحائط . وكان ظاهراً على عينيها ساعتئذ أثر التعب والتفكير ؛ وقالت لي :

ـ تعال يا أخي ؛ فان لي معك كلاماً

قلت : ـ هاتي ما عندك ياعائشة

وبدا لي في نظرات عينيها ساعتئذ من طمأنينة الطفل ورقته ما جعلها تنفذ الى أعماق نفسي ، غير أن نظراتهـا تلك كانت تقع مني موقع الاحجار اذا أعطيت ـ بدلا من الخبز ـ لمن أهلـكه الجوع • فلقد كنت عالماً أن قلبي مفعم باخاء عائشة وصداقتها الجميلة ؛ ولـكن في النفس حاجـةً الى نظرة منها كالتي نظرت بها الى احسان على مرقاة العربة ، ولو صوبت اليّ بعد ذلك من عينيها الخضراوين سهام الحدة والجفاء بل والنفور

وقالت وهي لا تزال تنظر لي نظرة الاخاء :

ـ ألا تراني استطيع البقاء مع القوات السيارة التي يقودها احسان بصفتي ممرضة لها ؟

فأجبتها : ـ اذن تتعرضين لاخطار عظيمة ياعائشة

قالت : ـ وأي اخطار ؟ وهل أنا عاجزة عن اجتياز الاخطار التي يجتازها احسان ؟ ان جمالا لو كان لايزال في ازمير كنت أذهب اليه ؛ وأما اسكي شهر فأي عمل لي فيها ؟

قلت : ـ ان احساناً يرى في هذا المـكان من الخطر أكثر مما تحتمله امرأة

وكانت عينا عائشة ساكنة كينابيع المياه المتوارية تحت أوراق شجر

الصفصاف الاخضر ؛ فلما سمعت هذه الكلمة تحولت خضرة عينيها الى مثل أعاصير البحر في أشدّ ساعات اضطرابه ؛ وقالت :

ــ ان احسانًا يأبى أن أكون بين هذه القوات ؛ فهو يريد أن يكون وحده فيعيش بعيداً عن انظارنا . اليوم فهمت حقيقة كذبان فهماً تاماً

قلت : ــ انك تظلمينه بقولك هذا ياعائشة !

قالت : ــ ربما . ولكنه على كل حال يأبى أن أكون هنا . فيا للانسان ما أشدّ ميوله !

فاقتصرت على قولي لها :

ــ ان احسانًا يريد صيانتك وسلامتك ياعائشة !

اجابت : ــ انظر اليّ يابيامي ! ان أبغض الناس اليّ من يحرص على صيانتي ، ويحسبني شيئًا وجد ليحفظ على الرفوف . أنا لا أستطيع أن أطلق بندقية في سبيل ازمير ، ولا أن أطارد محتليها على ظهور الخيل . فلم يبق لي الا أن أتعزّى بالذين يموتون غرباء في سبيل ازمير وهم محرومون من قميص يلبسونه وسيجارة يدخنونها بل وخبز يأكلونه ؛ فأعاشر هؤلاء في حياتهم ، وأخدمهم في مرضهم ، وأغمض عينيهم ــ كما تفعل الاخت باخيها ــ اذا هم ماتوا . أريد ان اشارك هؤلاء في حمل عبئهم وتحمل مشقتهم ؛ فلماذا يريد احسان ان يمنعني من ذلك ؟ اذا كان هو قد تغير حتى لم يعد يستطيع أن يعيش العيشة التي يصح أن تنظرها أعيننا فيا للعار ! واما اذا كان يريد صيانتي فهذا شيء أمقته واشمئزّ منه . أنا غير مكتفية بما يأتيني عفواً من المصائب والآلام ، وأحب كل من يحملني زيادة عليها ومن يأخذ بيدي ويقذفني الى النار والاخطار . ان في جوفي ناراً تتلظى ؛ ومن زادها التهاباً واحتداماً فهو صديقي الحقيقي . مسكين احمد رفقي ؛ لقد كان يوم يذهب لقتال أو لاي أمر خطير يقترح عليّ أن أرمي ثوب التمريض وان ارافقه الى تلك الاخطار . أما أنتم فلا تزالون تريدون لي الامن والسلامة كنساء المدن . ولكن ألم تر

منذ حين امرأة استنبولية في العشرين من عمرها حاملة بندقية على كتفها وذاهبة مع زوجها في طريق ازمير . وهذه كذبان كانت تصيح طالبة بندقية . انكم ترون كثيراً عليَّ أن أضمد جرحاً ...

وهنا انتهت عائشة من خطبة التمرد التي ألقتها عليّ بنفس واحد . ثم عبست كالطفل وقعدت . وكان موقفي حرجاً ، فقلت لها :

ـ اذا كان هذا كل ما تطلبينه فدعيني أنادي احساناً لتذكري ذلك له !

أجابت : ـ لا ، لا . مادام احسان مقتنعا باني ليس لي روح المرأة التي تستطيع أن تعيش بينهم فانا لا أبقى هنا . وسأذهب بأول قطار الى اسكي شهر ثم اجد ـ بنفسي ـ الطريق الذي يوصلني الى ازمير

وبدت لي عيناها حينئذ كالشمس تحت السحاب ابّان العاصفة : تتوقد تارة وتحلولك تارة . وفهمت من ذلك أن عزة النفس النسوية تغلبت فيها لأول مرة على محبة الوطن ، فأمست اليوم كالطفل اذا توسعنا معها في القول ربما دفع ذلك بها الى ارتكاب مالا تحمد عقباه

وتناولنا العشاء نحن الثلاثة معاً ، وكانت عينا احسان محجوبتين بغمامة من سيما الكدر بادية على وجهه ، غير أنه لم ينفك دقيقة واحدة عن التفكير بعائشة ، ولم يتكلم على المائدة بشيء عن سفر عائشة الى اسكي شهر ولا عن رسالة جمال التي جاءته في هذا الموضوع . وخيل اليَّ أن هذا الرجل الذي كان رضي بأن يشطر روحه شطرين بارسال عائشة الى اسكي شهر رغبة منه في الاطمئنان على حياتها صار الآن ينتظر أن تصر على اظهار رغبتها بالبقاء هنا . ولكن عائشة لم تفعل ذلك ، وقالت دون أن تحوّل نظرها عن صحفة طعامها :

ـ متى موعد قيام القطار الذي يسافر الى اسكي شهر ؟

فبدا لي من وجه احسان ان هذا السؤال انصب عليه كالماء البارد ، فتنهد بغير اختيار وقال :

ـ غداً في الليل . فاذا قمتِ من هنا في الصباح تكونين في محطة (الفكة) مساء

قالت : ـ اذن تجهزون لي العربة الليلة

أجاب : ـ أمرك نافذ

وانقطعت محاورتهما ، فانفرد كل منهما بآلامه . أما أنا فلم يكن لي عمل في هذه الحياة غير النظر الى الدماء والآلام ومشاهد الغرام التي أرى الناس يظهرون بها أمامي . وأما غرامي وآلامي فما لا يقع عليه نظر أحد غيري

وعادت السكينة الى عائشة بعد تلك العاصفة الطفلية ، غير ان هذه السكينة كانت تمازجها مرارة السم المؤلمة . وما لبثت أن نظرت الى احسان بعينين باردتين وسألته :

ـ وما ذا تنصح لبيامي أن يعمل في الانضول ؟

قال : ـ وهلا سيبقى معك ؟

أجابت : ـ مسكين بيامي : لقد تحمل عناء المجيء الى الانضول ليكون مربياً لبنت خالته وهي في هذا السن ، ان هذا لشيء عجاب : ان بيامي جاء الى هنا ليقاتل كما أنت تقاتل ، وليعمل على انقاذ ازمير كما أنت تعمل ، فيجب أن يلتحق حالاً بالذين يقاتلون في الجيش

لم يسؤني من عائشة هذا القول الذي يقضي عليّ بفراقها ، بل شعرت بارتياحي اليه وسروري به . فهي قد رأتني ـ لأول مرة ـ أهلاً لان أكون من المقاتلين في سبيل ازمير . ونسيتِ الديوان الذي كنت فيه وأوراقه الصفراء وهواءه الفاسد . على اني لم أكن في جملة الضباط الشبان الذين أقسموا اليمين المعهود في تلك الليلة . ولما قالت كلمتها ضحك احسان ضحكة مغتصبة وقال :

ـ الحق معك ياسيدة عائشة . نرسله الى دار التمرين في انقرة ليكون وكيل ضابط . ولكن يجب ان يلبث عندي مدة قبل ذلك ، وسأبذل جهدي لاحفظ ابن خالتك من الموت

قالت : ـ وهل احتقار الموت من خصائص العسكريين ؟

أجاب : ـ أجل ياسيدة عائشة ، الامر ما تقولين

فقلتُ : لاتتنازعا كالاطفال ، أنا أذهب مع عائشة فأسلمها الى جمال وأعود

قال احسان : ــ بل سأرسل معها الشاويش أحمد ، فالسيدة عائشة لاترغب في ان يصحبها أحد بقصد صيانتها

ولم أدر يومئذ هل آثر احسان ارسال الشاويش مع عائشة لاعتقاده بانه أقدر مني على الدفاع عنها ، أم انه صار لايطيق ان أكون أنا أيضاً مع عائشة. ولكني علمت فيما بعد ان هذا الفتى المسكين أبقاني عنده لانه يرى لنفسه بعض التعزية برؤية شخص له صلة بعائشة



« آخر صورة لخالدة أديب ـ مؤلفة هذا الكتاب »

— ٦ —

الشاويش محمد

ـ ٢٧ نوفمبر ، ١٩٢١ ـ

أيقظ سفر عائشة في نفسي ميلاً غريباً الى الحرية ، ففهمت انني لم أجيء الى الانضول لأقوم بوظيفة حراستها وملازمتها . ولقد كان من المحتمل أن تكون لي في قلب عائشة مكانة سلبية ، ولكن الذي كنت أرغب الحصول عليه منها أن يكون لي في عينيها الخضراوين ذلك النظر اللطيف الذي كانت تلمح به كل من يقاتل في سبيل ازمير ، ويحيى لاجل ازمير ، ويموت مفكراً بازمير ؛ فتعترف لي بأني أصبحت رجلاً كغيري ، ولا تظلّ تراني الى الابد ذلك الكاتب في وزارة الخارجية . بل اني كنت أشعر بشيء من الغيرة عند ما أراها تتعمد الظهور بمظهر الاعجاب والتباهي في حديثها عن أخيها جمال ومناقبه الحربية وجروحه في سبيل الوطن ، وكنت أسمع حينئذ لصوتها نغمة منبعثة عن الاعجاب النسوي ، اكثر مما هي منبعثة عن الاعجاب الاخوي

أنا الآن في (كيوه) أحاول تمرين نفسي على مخاطرة الابتعاد عن عيني عائشة ، وأسعى لان أكون الصاحب الحقيقي لجوادي وبندقيتي كسائر اخواني ، وأن أنتدب للقيام بالواجب في هذه الدروب القفراء ذاهباً مثلهم الى الموت كما أذهب الى الفسحة

أما احسان فما برح بعد سفر عائشة عبوساً صموتاً ؛ غير انه ظهر في وظيفته بمظهر القائد الصارم المخيف ؛ فاذا انفردنا معاً تكون لي معه احدى حالتين : احداهما ان يكون في منتهى الضعف تجاه الشخص الذي له صلة بعائشة ، والحالة الثانية ان يكون في موقف المنتقم من الشخص الذي يمتاز عليه بما لايطيق احتماله من الصلة بها والقرابة منها . فاذا كنا في الايام التي تستولي عليه

فيها الحالة الاولى أراه يعطف علي كما يعطف على الطفل فيخاف علي من البرد ومن العرَق ، وقد يدخل علي وأنا نائم في غرفتي ليغطيني فأخجل من عمله هذا ويضيق صدري . وأما اذا كنا في الايام التي تستولي عليه فيها الحالة الثانية فانه يتجرد من تلك القيود ، ويقذف بي بغتة الى الاخطار التي لايعانيها الا الذين عاشوا اربعين سنة في الجبال ، ويجبرني على القيام بالتجارب العسكرية والثورية العنيفة التي لايقوم بها الجندي في ساحة التعليم ، وألعب على متن الجواد ألعاباً رياضية لا أزال أعجب حتى الآن كيف كنت أخرج منها سالماً ، لانه كان يدفعني باستهزاء وبلا رحمة الى الجري والقفز في الجبل وعلى الأكمة وفي الارض الوعرة ومن فوق الحاجز والخندق . على انني اذا عدت من هذا العمل ناجحاً وأنا نصف حي أو نصف ميت لاتخرج من بين شفتيه كلمة ثناء يطيب بها خاطري

وكان الذي يتولى تعليمي استعمال السلاح الشاويش محمد . وهو رجل انضولي من أشقياء السياسة ، قضى أيامه في مقاتلة عصابات البلغار . فأنضجته الثورات الدموية في مقدونية . وفي قلبه عقيدة راسخة جداً بأن كل الأغيار يترصدون المسلمين ويترقبون الفرصة لسحقهم ، ثم هو يرى البلغاريين المثل الاعلى في الحياة . وله عقيدة ثالثة وهي بغض السلطان وكان يقول « يجب ان تتولى الامة أمر نفسها بعد الآن » . ولم تكن أفكاره واضحة في من هي الامة وكيف تتولى أمر نفسها . ولكنه على كل حال لم يكن يعدّ من الامة من لايحمل سلاحاً ويقاتل به . وكنت اذا استولت على احساني علة الرئاسة وصرف وجهه عني أنادي الشاويش محمداً وأتحدث معه . فكان يقص عليّ قصصاً مدهشة : فهو يتخيل انه ذهب الى الهند من طريق مضيق خيبر مع أحد الباشوات ، ويحدث نفسه بما سيجريه متى ذهب مع مصطفى كمال باشا للاستيلاء على أثينة ، ولكنه مع ذلك كله كان يتأوّه في بعض الاحيان متمنياً ان يدخل الاستانة . وان له نظرة خاصة في النظام الذي يريده لممالك

الترك ، فعنده ان القاعدين من أفراد الامة مكلفون بان يكفوا المجاهدين كل مؤوناتهم . وهو لايدرك كثيراً معنى الميزانية والنقود ، وغاية ماعنـده ان القاعدين سينجون بعمل المجاهدين فعليهم ان يملأوا بطونهم ويكسوا أبدانهم . وكان يغضب كثيراً اذا رأى احساناً يشتري شيئاً بنقود يدفعها للبائع ويقول :

ـ ومن أين تأخذون النقود ، أليس من الامة ؟ فما الحاجـة الى تسمية الضرائب وتعيين الرواتب للجندرمة والجباة ؟ ان من باب التوفير على الفلاحين أن نترك هذا كله وان نأخذ منهم ميرتنا وكل لوازمنا مجاناًمن الآن الى ان ننتهي من القتال ، فاذا انتهى القتال انصرف كل منا الى عمل يسعى له

وأبغض الخلق الى الشاويش محمـد بعد اليونانيين رجال الجندرمة ، فأمنيته الوحيدة هي ان يكون له وطن ليس فيه جندرمة ولا يونانيون !

ومن غريب أمر هـذا الرجل انه بالرغم من عقيدته المخيفة فيما يتعلق بالضرائب فاني رأيته يسير في القرى حتى يهلك ومع ذلك لايتناول من أحد شيئاً غير الدخان يطلب الى الفلاحين ان يهدوا اليه منه كفايته

ولما احتل اليونانيون بروصة ، ثار الروم من أهالي (ارنؤوط كوى) حول (كيوه) ، وصارت عصاباتهم المجهزة بالقنابل اليدوية تتهددنا . وكان من وظيفة القوات التي يقودها احسان ان تقاوم ثورة هؤلاء وثورة أهالي قرية (الخندق) ، ولـكن ذخائرنا الحربية كانت قد أشرفت على النفاد ، وصار احسان لايأكل ولا يشرب ولا يتكلم ، ومع ذلك فانه يتهالك في العمل غير مشفق على نفسه . وفي صباح يوم كانت تبدو فيه على وجهه أشـد ملامح القسوة استدعاني أنا والشاويش محمد وقال لنـا انه علم بوجود ذخائر حربيـة هربت منذ بداية الحركة وهي مدفونة في ناحية من نواحي (قنديرة) لايعلم اسمها ، ويوجد في تلك الجهة ضابط فتى اسمه اليوزباشي صفوت ما زال يعمل هنالك للقضية القومية طول هذه المدة ويقوم بتهريب اللاجئين من الاستانة .

وقد طلب منا احسان ان نقوم بمهمة البحث عن اليوزباشي صفوت

والاجتماع به والاتفاق معه على الطريقة الملائمة لأخذ هذه الذخائر ونقلها الى هنا ، لتتمكن قواتنا من مواصلة الدفاع ، والاستمرار في الجهاد الوطني

وبادرت في الحال أنا والشاويش محمد لأداء هذه المهمة ، فامتطينا صهوتي جوادينا ، قاصدين منطقة قندرة ، وكانت للشاويش محمد هيئة مخيفة] . فقلنسوته اللازية معقودة من جانبها الايمن بشكل قرنين . وكان يستلقي على الارض ، فيجعل ظهره للجدار ، ويرسل نظره في السماء ، ويضم بندقيته اليه كأنها ولده . ولو ان الارض انشقت في ذلك المساء عن مارد لما كانت لرأسه هيبة ولعينيه وميض أكثر مما للشاويش محمد

ان أولاد الانضول هؤلاء الذين انفصلوا من جلاميد جباله ليدافعوا عن تربته وحجارته أحبّ اليه منا ؛ ولذلك فان كل أغاني الانضول وكل أساطيره تتعلق بهؤلاء

ولما كنا نحن في حيرة وذهول على أثر ضربة السخط التي أهوت بها أوربا على رؤوسنا كان هؤلاء يحاولون ايقاظنا بصرختهم الاولى . وان أول قبضة يد ارتفعت في العالم الشرقي لمقاومة الظلم ، وأول روح جديده تمردت على الظالمين ، هي يد هؤلاء الاولاد المذنبين وروحهم . فكوّنوا من أجسامهم العريانة أول صف من صفوف القتال ، فما زال هذا الصف ثابتاً تجاه النار والاخطار حتى أخذ الآن يسمع وقع أقدام الجيش النظامي تسير على مسافة بعيدة منه جداً . ولسنا ندري هل ينضم ذلك الجيش الى هؤلاء ويكون منهم ، أم انه سيسحقهم ويمر فوق جثثهم ؟

وكان الشاويش محمد ينقطع عن الكلام فجأة ونحن سائرون معاً في الطريق فيقف تحت النور الابيض بعينيه المتقدتين كالجمر وشاربيه الطويلين ، كأنه شعر بخطر يتهددنا . وكم كان له من بطولة وآثام ، فيصدر كل ذلك منه ببساطة الاطفال وسذاجتهم

وسألته مرة عن الاسلحة الاولى التي تسلح بها رجال الحركة ، وكيف

تمكنوا من تهريبها . فهبت على وجوه نسمة الجذل والحبور ، وأخذ يحدثني باللهجة الانضولية المغاقة عن الاربعين عربة من السلاح وكيفية تهريبها . . .

وكان أكبر همنا طول الطريق البحث عن اليوزباشي صفوت بك والسعي للاجتماع به . فلما وصلنا الى ضفاف سقارية اضطرتنا الحال الى اخفاء الشاويش محمد تحت حشيش كان ينقله أحد المهاجرين في عربة نقل . ورأينا القرويين من مهاجري مقدونية أبصر من غيرهم بخطار المصيبة التي حلت بالانضول ، وأشد مؤازرة للقوات الوطنية . وقد سبقوا غيرهم الى الهرب من البلاد التي يحتلها العدوّ تاركين له مزارعهم الزّمردية الشبيهة بالجنان ، وحدائق الورد التي اتخذتها البلابل وطناً لها ، ومنازلهم البيضاء التي كانت السعادة والنظافة مخيمتين فيها ؛ ففارقوها وفارقوا تذكارات دموية لهم فيها عن أحبابهم الذين قتلوا تحت سقوفها ؛ حتى لقد قتل لهم فيها عرائس ملثمات وغادات محجبات . وان هؤلاء المهاجرين المقدونيين لم ينسوا بعد ان العاصفة الدموية التي حملتهم من أوطانهم وقذفت بهم الى الانضول كانت ناشئة عن سحابتين سوداوين جاءتا من الغرب يحيط بهما دخان كثيف . أما الانضول الذي لم يطأ عدو أرضه من قبل فان أهله وجموا في باديء الامر قليلا . ثم ما لبثوا ان استيقظوا ، وما أدراك كيف استيقظوا !

ان الشاويش محمد الذي شهد المعارك الدموية في مقدونية كان يرى نفسه رسولا الى فلاحي الانضول هبط عليهم بما في يده من عصا وسلاح ليبين لهم حقيقة موقفهم

ولما اجتزنا سقارية الى ما يليها بلغنا قرية (قنديرة) فنزلنا ضيفين على مرسل أغا أحد وجهائها ؛ ففتح لنا أحسن غرفة في منزله وباشر خدمتنا هو وولداه . وكان مرسل أغا ينظر الى ماحوله من ثورة وقتال بامعان وقلق دون ان يبدي في ذلك رأياً ؛ ولعله كان يسبر غور الموقف لتتجلى له نتائجه بوضوح ، شأن الروح الانضولية الموزونة التي لاتندفع بسرعة وراء الخيال . وهو ذو

لحية شهباء ورأس ضخم عليه عمامة أغبانية ؛ وان له نظرة الى جليسه تصحبها ابتسامة لامعة تنبعث من أعماق نفسه ولكنها قلما ترى . فقلت في نفسي :

« ان هذا الشيخ على جانب عظيم من العقل ؛ وهو يعلم مالا نعلمه نحن ؛ وانه يرانا بنظره كأننا أطفال »

أما ولداه فكانا فتيين انضوليين طويلين عريضين ؛ ولهما وجهان ممتلئان مستديران ؛ ورأسان كرءوس الاسود . ولم يكونا ـ كسائر أبناء وجهاء قرى الانضول ـ لابسين من تلك السراويل الفضفاضة الكثيرة الثنيات والمحلاة بالشريط ؛ بل يلبسان السراويل الافرنجية الضيقة ؛ وكان فيهما بعض الرقع غير انها نظيفة . واذا شمرا عن سواعدهما ثنيا أكمامهما بانتظام . ولم يكونا يلفان منديلا على طربوشيهما بل يضعانهما على رأسيهما بهيئة خيل اليَّ معها انهما كانا جنديين في العاصمة ؛ ولما سألت أباهما عن ذلك ابتسم ابتسامته اللامعة وجاءني بصورة شاب كالمارد عليه بذلة جنود المعية السلطانية ؛ فعرفت حالا من عينيه الكبيرتين الممتلئتين حياء انه أحد ولديه . وانتقل فكري الى الاستانة ؛ فتذكرت تلك الشوارع السلطانية البيضاء في ضاحية (اورته كوي) وأشباح فرسان جنود المعية وهم يجتازونها على خيلهم بسرعة الطير وعلى رأس الواحد منهم قلنسوته البيضاء من تحتها معطفه الازرق ثم سرواله الاحمر وفي ظهره المحفظة العسكرية

وكنت أنظر بامعان الى عيني الشاويش محمد وهو يحدثهم عن قضية لانضول ، بلهجة المقدونيين ومزاحهم ؛ وبما يزيد على ذلك من حماسة ومبالغة تزييناً لحديثه ؛ فأتساءل في نفسي : ترى ماذا يفكر الشاويش محمد بشأن مولاه ؟ ثم أرى له وراء أعماق عينيه روحاً أصيبت بأقدس أجزائها ، وفقدت أهم عقائدها ؛ فحلّ في محل ذلك ألم صامت ؛ واضطراب غير متمرّد

وبعد ان فارقنا هؤلاء مبكرين كثيراً رأينا أحد الولدين واقفاً من بعيد على الرابية التي في جانب الطريق وهو يلوّح لنا بمنديله يدعونا الى انتظاره ؛

فلما وصل الينا أخبرنا بأن على طريقنا قرية للشراكسة يسكن معهم فيها قليل من الترك ، وان بعض أهل الريبة حضروا الى هناك من الاستانة ؛ فينبغي لنا ان نكون على يقظة وانتباه عند مرورنا بتلك القرية . ثم قال بصوت ساذج طبيعي :

ـ ان صفوت بك مختبئ في قرية (قايماز) ؛ فاذا اجتزتم قرية (ايكزجه) سالمين فانكم تجدونه هناك . والآن فاذهبوا بسلامة الله أيها السيد !

وذهب بعد ان تركنا في حيرة وقلق . فقلت في نفسي ان هذا الفتى من رجال الحركة القومية ولولا ذلك لما علم مهمتنا . لاننا لما لاحظنا أمارات الحيطة على وجه أبيه الشيخ في الليلة البارحة بعث ذلك في نفسي بعض الخوف فلم أذكر له اسم صفوت بك قط

وقطعنا في الليل السفح المؤدي الى (ايكزجه) . وكان كله غابات وأشجاراً شائكة . والجو مملوء بالسحاب فلا سبيل الى نفوذ نور القمر الينا من خلاله . وكانت الاشجار الشائكة في ذلك الغاب يبدو لنا بعضها في الظلام بشكل ساعد انسان وبعضها بشكل فخذ رجل ؛ وهي مع ذلك تمنع جوادينا من المرور في الطريق الا بصعوبة ، وتملأ الشوك وجهينا وأيدينا خموشاً . وكلما تقدمنا في الطريق كان نور القمر يزداد احتجاباً حتى اذا بلغنا رأس الاكمة كان النور قد قارب الانقطاع عنا تماماً ؛ وكنا قد انتهينا من تلك الاشجار الشائكة ؛ فوقفنا ننظر من هذا المكان المرتفع الى أشجار الغاب التي كانت ترى تحت ذلك الظلام متعانقة ومتداخلا بعضها ببعض ، من المكان الذي نحن فيه الى ان تنتهي في صحراء منخفضة كأن أشجارها الشائكة أصابع انبجست منها ونمت فوقها ؛ فلم نكن نميز الصحراء من سفح الجبل تحت ركام الظلام الا بزبد المياه الابيض الممتد في ساحتها . وكان على شاطئ هذا النهر الابيض الطويل نار مشبوبة نفذت أنوارها في أعماق الظلام فأذابت حمرتها كل ما حولها من سواد قاتم . فشعرنا في أنفسنا بقلق وارتياب لاننا لما جئنا من

هذا الطريق لم يكن يوجد في هذا الموضع أحد ؛ فتقدمنا بحذر واحتياط قاصدين القرية التي كانت منارتها البيضاء بادية لنا في الجانب الايمن من سفح الجبل . وكنا عازمين على أن نمر بجانب القرية بصمت وسكينته ؛ غير أننا لما اقتربنا منها صار السحاب الذي تحت قرص القمر رقيقاً فانتثرت على القرية من القمر انوار كانوار السراج نفذت اليها من خلال ستارة من سحاب أسمر ؛ فيالها من قرية جذّابة جميلة ! لقد كانت منازلها بيضاء متفرقة وذات شرفات . ورأينا في الجانب الايسر منها على طريق واسع مفروش بالتراب الاحمر رجلاً نحيل الخصر عريض ما بين المنكبين طويل القامة يلبس بزّةً شركسية ، وهو يتقدم الى الامام متمهلاً ويفحص ما حوله بأنظاره . وعلى مدخل الطريق منزل ذو شرفات من جهاته الاربع ، في احداهن فتاة بيضاء مثل غواني الاساطير استندت الى الحاجز الحديدي الاخضر وأخذت تنظر الى الارجاء البعيدة وسط هذا السكون العميق وتحت ذلك النور الاسمر الضعيف

لقد خطرت على بالي في تلك الآونة ، آونة الشعر والجمال ، خواطر فلسفية أرى أن أثبتها هنا . فقد قلت ساعتئذ في نفسي :

لماذا نحن نغضب لشذوذ عدد قليل من الشراكسة وخروجهم عن طريق الامة ، ألم يبق معنا من اقتنع منهم بأن الحكومة التي وُعدوا بنوالها في أرضنا انما هي حديث خرافة ؟ أليس بيننا منهم رجال هم من أركان الثورة وفي مقدمة الذين يضحون في سبيلها ؟ أليس الآن في صفوف أعدائنا بعض الترك من أبنائنا ناكري الجميل ؟ ان اخواننا هؤلاء الذين يسفكون دماءنا ـ وفيهم هذا الشعر وهذا الجمال ـ قد تقدمت لهم أيام برهنوا فيها على بطولتهم بقتالهم معنا جنباً الى جنب في سبيل هذه البلاد التي هي وطن لهم أيضاً . وكم من باشواتهم العظام ، وضحاياهم المجهولة أسماؤها ، كانت معنا وكانت منا مئات من السنين ؟

ان تلك الاسطورة البيضاء التي رأيتها في الشرفة الخضراء تحت نور القمر

الذي كان يظهر طوراً ويختفي طوراً ، وذلك الرجل الوسيم الذي رأيته يخطر في الطريق ذي التربة الحمراء ، قد ملأ قلبي خيراً وحباً ، حتى لقد تمنيت أن يكون لي ساعد أقاتل به ودم أهرقه في صفوف هؤلاء الاخوان الجبليين ، يوم ينهضون لتأسيس بنيان وطنهم فوق قمم النسور من جبال القفقاس ، أسوة بسائر الامم التي استردّت حقوقها

ولما استأنست بهذه الافكار دفعت جوادي الى الامام قاصداً القرية ، وعازماً على اجتياز طريقها ذي التربة الحمراء حتى أبلغ منازلها التي هي أشبه بمنازل الاساطير . فقال لي الشاويش محمد وهو يتنفس من أنفه بصعوبة :

ـ ماذا تصنع أيها السيد ، هل فقدت عقلك ؟

فلم أصغ الى مقاله ، وظللنا نتقدم نحو القرية التي لم يكن يسمع فيها صوت غير صوت حوافر جوادينا . حتى اذا دخلناها لم نجد في أزقتها أثراً للحياة غير نباح كلابها ، ثم وصلنا الى ميدان واسع فيه مسجد القرية ، وحينئذ صرنا نشعر ببعض الابواب تفتح . واحتجب القمر ثانية فاقتحمنا الظلام بجوادينا ، وكنا نشعر بأننا نسير في أرض وعرة غير أننا لا نبصر شيئاً مما حولنا . ودنت الغيوم من الارض فأحسسنا بسقوط بعض القطرات الفاترة على أيدينا ووجوهنا . وكنت في تلك الآونة لا أرى شيئاً قط ولا أسمع شيئاً قط . ولكن الشاويش محمداً قفز عن جواده فجأة ، فاضطررت الى مجاراته في عمله دون أن أفهم السبب الذي حمله عليه . فماذا أحس ياترى في هذا الظلام الدامس الذي اشتمل على سكينة الموت ؟ وتركنا في تلك الساعة جوادينا ، وانبطحنا وراء ركام من التراب كأنه العجل الراقد على الارض . ثم أخذت احدّق عيني بكل ما فيهما من قوة ، فرأيت في السفح الحالك قطعة من الظلام الكثيف تتحرك ، وسمعت بعد ذلك صوتاً جهورياً عالياً ينادي :

ـ من يوجد هناك ؟

تخيل اليّ أن في تلك الظلمة الكثيفة المتحركة جيشاً ، وصرت أخشى أن

يسمع الشاويش محمد ضربات الخوف التي تتردد في قلبي ، فتجلدت وقلت بشجاعة مصطنعة وصوت شعرت بأنه كان مختنقاً :

ـ وأنتم من أنتم ، احذروا أن تتقدموا فاننا حينئذ نطلق النار عليكم !

فانفصلت من وسط ذلك الظلام الكثيف قطعة كبرى ، وتقدمت الينا بسرعة ، وسمعت صوتاً يقول :

ـ أجيبوا حالاً من أنتم ، فاني مطلق النار . . .

فبادرت الى البندقية باضطراب وسرعة ، ولكن الشاويش محمداً أمسكها وجذبها كأنه شعر بما يطمئنه ، ثم قال :

ـ نحن اثنان عابرا سبيل !

فقيل له : ـ انهضا اذن وتعاليا الى هنا :

فنهضنا وتقدمنا . فلما اقتربنا من الشبح الاكبر الذي كان يتقدم في تلك الظلمة المتحركة رأيناه رجلا طويلا على رأسه قلنسوة ، فقال :

ـ من اين انتما قادمان ايها الاخوان ؟

قلنا : ـ من (كيوه)

قال : ـ وهل أنتما من قوات الحركة القومية ؟

فاندفع الشاويش محمد وقال : ـ أجل ، يامولاي !

قال الرجل : ـ عجباً ، أأنت الشاويش محمد ؟

أجاب : ـ نعم ، يابك

فتقدم هذا الشبح الطويل نحوي باحثاً عن يدي فضغط عليها مصافحا وقال: أرجوكم العفو ، فقد ظننا كم خصوماً . فهل يمكنني أن أتشرف بمعرفتكم ؟

قلت : ـ بيامي !

قال : ـ وأنا اليوزباشي صفوت !

فغلبتني ضحكة عصبية وقلت :

ـ لقد أخفتنا خوفاً غير قليل ياصفوت بك ، وكدت تقتل رجلين جاءا

يبحثان عنك

قال : ـ لابد أن جنابك استنبولي

فأفهمته أني مرسل اليه من عند احسان ؛ وذكرت له سبب مجيئنا ؛ فقال:

ـ وأنا أيضاً ابحث عن هذا الامر منذ أسبوع ؛ وأحاول اعداد الوسائل له . أما الآن فسيروا نتكلم في الطريق ؛ وستكونون الليلة ضيوفاً في (ايكزجه)

قال الشاويش محمد : ـ ولكن يقال ان هذه القرية خطرة

قال صفوت بك : ـ ان لنا فيها رجالا ، ولاخوف علينا منها !

ففرحت كالاطفال بوجود جماعة لنا في هذه القرية الشركسية . وأخذونا الى منزل نظيف في صميم القرية ؛ فاستقبلنا صاحب المنزل ؛ وهو رجل ذولحية سوداء ووجه تبدو القسوة منه وعليه بزّة شركسية

ولما صرنا في نور الغرفة نظرت الى صفوت بك فرأيت على رأسه قلنسوة سوداء طويلة وهو يلبس بذلة صيد لونها بني ، ومن تحتها قميص بني أيضاً ؛ وفيه رباط رقبة أحمر ؛ ولم يكن يظهر عليه شيء من سمات الرجل الذي يقود عصابة ثورية في رؤوس الجبال . وان له عينين صفراوين تنظران ببعض الاستخفاف ؛ واسناناً بيضاء تفترّ دائماً عن الابتسام . ولما قدّم لي علبة الدخان رأيت أظافر يده قد نظفت باعتناء حتى غدت تلمع . وبالجملة فاذ هذا الضابط الشاب ـ الذي أقلق مضاجع العصابات الرومية ؛ واشتهر بأنه لا يطلق رصاصة واحدة بلا فائدة ـ كان يشبه أميراً من الامراء خرج الى الصحراء ليلعب ؛ غير أن صفوت بك كان يلعب لعبة الثورة !

وقال لي صفوت بك : ـ في مساء الغد تذهبون بالاسلحة ، ويكون مسيركم في الليل . فاذا صار النهار تخبئون الاسلحة احتياطا

فسألته : ـ وكم عدد العربات ؟

قال : ـ نحو ثلاثين عربة

ان هذا الرجل قد أدهشني وعلمني أقدار الرجال . فقد كنت منذ ستة

أيام أحدّث نفسي باني اذا اقتربت بالاسلحة من قرية (كيوة) بعد كل هذا الجهد والعناء سأقص على احسان كل ما جرى لي محاولا التظاهر بأني غير مبالٍ بهذه الاخطار ، وسأكتب بخبر هذه الوقائع الى عائشة باسلوب لا يشف عن المباهاة بعملي . ولكني بعد اجتماعي بصفوت بك لم أفعل شيئاً من ذلك . ووقعت محبة هذا الرجل في قلبي حتى كأن روحي اقتبست جانباً من روح هذا الرجل الجذاب الذي تقدم في ذلك الظلام الدامس نحو الموت دون أن تهتز يده ، وهو في هذه الاصقاع ليس له غير خمسة أو عشرة من الرجال مع كثرة من يحيط به من الاعداء داخلاً وخارجاً

ووقفنا في مساء اليوم الثاني في ضوء القمر ليودّع كل منا صاحبه ، فنظرت الى عينيه ونظر الى عيني ، وكل منا يتساءل في نفسه : ترى أينا الذي يتلقى أولا خبر موت الثاني ؟ ثم سارت العربات فبتنا لا نسمع غير صرير عجلاتها !

وصار دأبنا في كل صباح انزال صناديق الرصاص ودفنها ، ثم العودة الى حملها على ظهورنا ووضعها في العربات عند المساء والسير بها طول الليل . وما زلنا نبدل طرقنا ونتخذ صنوف الاحتياط والحذر ، حتى اذا احلولك الظلام الكثيف ونحن سائران الى جانب عربات السلاح كان الشاويش محمد يعيد عليّ حديث تهريبهم الاسلحة الاولى من الاستانة بلهجته التي صارت الآن أنضولية

— ٧ —

كذبان

ـ ٢٩ نوفمبر ؛ ١٩٢١ ـ

لما وصلنا الى قرية (صاريلر) قررنا بعد مناقشة طويلة مع الشاويش محمد أن نخبيء صناديق الذخيرة في زريبة خالية موجودة خلف القرية . وكانت هذه الزريبة بلا سقف ، وتحيط بجدرانها الاعشاب والاشواك . وأوعزنا الى أصحاب العربات بأن يغيبوا بعرباتهم عن هذا الموضع ويعودوا اليه في الليل . وعزمتُ أنا على أن أذهب للبحث عن معسكر احسان ؛ لاننا كنا نجهل ما اذا كان نقل معسكره الى موضع آخر أم لا ؛ حتى اذا التقيت به اعلمه بمجيئنا . ورأيت أن أبدأ البحث من قرية (صاريلر) نفسها فأسأل الفلاخين عما يعلمونه من خبر احسان ورجاله . فامتطيت أنا والشاويش محمد صهوتي جوادينا وسارا بنا يقرعان الارض بحوافرهما

وبلغنا شجرات الصفصاف المعهودة فسرنا بينها بذهول . وكانت هنالك بضع أوزّات منبطحة ببطونها على الارض ؛ فلما أبصرتنا صفقت بأجنحتها وطارت من أماكنها . وكان ذلك اليوم حاراً وكثير الغبار . فلما رأيت من بين اشجار الصفصاف ذلك المنزل الذي كانت عائشة قد اتخذته مستشفى شعرت بضربات قلبي وخفوقه . وخيل اليّ أنها ستطلّ علينا بثوبها الابيض من الشرفة البيضاء ، فازداد ذهولي حتى لم أعد أبصر شيئاً مما حولي ؛ بل لم أكن منتبهاً الى الوجهة التي يذهب بي جوادي اليها . ولم ألبث أن أبصرت فتاة ألف نظري رؤيتها من قبل وهي تحمل قطة صغيرة . وكانت هذه الفتاة مسندة ظهرها الى شجرة صفصافَ ، بهيئة هي أشهى الهيئات الى نساء القرية ؛ وعيناها مستغرقتان في المنزل الذي كانت عيناي مستغرقتين فيه

لا تزال صورة تلك الفلاحة الصغيرة مرتسمة في عيني الى هذا اليوم : فقد أقعت على أصابع رجليها ؛ ونصبت ركبتيها من تحت سروالها الاحمر ؛ وجمعت بصورة غريبة رجليها وأصابعهما المشققة المحترقة ؛ ووضعت مرفقيها على ركبتيها ، وأمسكت بين يديها رأسها الذي لفته بقطعة قماش بيضاء وسخة . فقلت لها :

ـ ماذا تعملين يا كذبان ؟

فهبت قائمة بسرعة ، كأنها لدغت في جسمها . وأقبلتُ على جوادي فأمسكت بزمامه . ولم يكن قد مضى شهر على رجوعها عنا سالكة طريق القرية الكثير الغبار وهي تبكي على احسان ؛ غير انها قد طرأ عليها تغيير عظيم في هذه المدة الوجيزة . فكذبان الآن ليست تلك البنت الصغيرة ، بل هي فتاة طالت بسرعة حتى غدت كالغصن ، وغدا جسمها غضاً يذكر الناظر اليها باستدارة الفاكهة الكبيرة الحجم اذا قاربت النضوج . اما وجهها الجميل ـ الذى ازداد رقة ـ فقد توفرت فيه كل معانى الروح النسوية ذات التأثير في قلب الرجل

لقد اجتمعت روح كذبان في عينيها عند ما رأتني ؛ حتى كأن صوتي قد أيقظ فيها روح تلك الفتاة التي خاطبها احسان في الشهر الماضي بصوت الآمر ؛ فذابت امامه ؛ وانقلبت راجعة الى القرية لاوية عنقها . فلما تذكرت الآن صوته بصوتي سألتني قائلة :

ـ أظن ان جناب القائد أرسل يطلبني . أليس كذلك ؟ لقد ذهبت أمس الى قرية (الك) فأخبرتني امرأة هناك ان النساء أخذن يدخلن في الجندية

فلم أشأ ان أطفيء نور الامل الذي لمع في عينيها ، وقلت لها :

ـ لابد أن نأتي بك الى المعسكر في وقت من الاوقات يا كذبان . اما الآن فاني لست قادماً من عند جناب القائد ؛ وقد دنوت منك لأسألك عما اذا كان معسكره قريباً من هنا أم لا

أجابت : ـ يقال انه اقترب من (دوغان چاي) ، ولكنه ليس في دوغان چاي نفسها

ثم قصت علي هذه الفتاة المسكينة خبر ذهابها الي دوغان چاي وكيف كانت تبحث هنالك تائهة (وبين صاريلر ودوغان چاي مسافة اربع ساعات) وكيف عادت الي قرية صاريلر فضربتها امرأة عمها ضرباً مبرحاً . وقالت ان لها بين رجال احسان أخاً اكبر منها ، فهي تستطيع ان تقيم بينهم بلا حرج . وعلى كل حال فهي مصرة على ان تكون هناك ، وما دام يوجد نساء بين جماعة احسان فلماذا لا توجد هي أيضاً ؟ ومنذ التحق أخوها بالمقاتلين ازدادت امرأة عمها ارهاقاً لها ، وصارت تكثر من ضربها . واذا لم تعمل عملا يدوياً لا تحصل على قوت يشبع بطنها . وانها أصبحت وحيدة ، وترغب بعد الآن في أن تقاتل الاعداء الذين قتلوا أباها وتركوها جائعة عريانة . وامسكت زمام جوادي بيديها الاثنتين وقد اصفر وجهها الصغير ، ولمعت عيناها بنور الخاطرة الذي تلمع به عينا القطة الوحشية الجميلة عند ما تتحفز للوثوب ، فلاحظت لاول مرة المشابهة التي بين وجهها ووجه عائشة وخضرة عيونهما وتناسب ذقنيهما . غير ان لهذه فماً صغيراً كفم الطفل لم تتضح بعد معانيه ، في مقابل ما لعائشة من شفتين كبيرتين تفتحت حمرتهما عن لون زهرة غريبة نادرة . اما الوميض الاخضر ـ الذي كان يتلألأ كالبرق داخل الحدقتين السوداوين فتبدو معاني الخطر والحرص خلال شعلته النارية ـ فانما كان مختصاً بعيني هذه الفتاة الانضولية . بينما عينا عائشة تشفان عن روح امرأة أبعد غوراً واكثر نضوجاً وأجرأ على المخاطر . فلما وقفت على هذه الحقائق من أحوال الفتاة كذبان لم أشأ أن أتركها وآلامها المفترسة . ولكن يظهر انني أنا أيضاً صرت اخشى احسانا ولذلك لم أجسر على أخذها معي

وفيما نحن كذلك سمعت من بين الاشجار صوتاً أبح صادراً من امرأة غضبى تنادي كذبان وتقول لها :

ـ صبّ الله البلاء على كبدك أيتها المومس ، أي شغل لك مع الجنود أيضاً ؟
فاجابتها كذبان : ـ ها أنا ذا قادمة يا امرأة عمي !
وقالت لي : ـ انك تنتظرني قليلاً . أليس كذلك ؟
وما كادت تتوارى حتى لويت عنان جوادي وقلت للشاويش محمد :
ـ انني ذاهب الى (دوغان چاي) قبل ان تعود هذه الفتاة . ومتى عرفت المعسكر أرسل لك رسولا يدلك عليه . وأنت احرص على ان تبرح هذا المكان قبل ان تراك الفتاة ، فانها اذا حضرت معنا الى المعسكر نقع مع القائد في ورطة

وقبل أن اسمع جواب الشاويش محمد أرخيت العنان لجوادي ومضيت ، غير اني لا أزال اذكر حتى الآن ان عينيه اصطبغتا ساعتئذ بلون الدم ، وجعل يتنفس كالجواد اذا جمح نافراً

وبلغت المعسكر ، وكان بين الاشجار في موضع لا يبعد كثيراً عن (دوغان چاي) ، فقيل لي ان احساناً مع كتيبة من رجاله يقاتلون العدو في المواقع الأمامية . ولاحظت عند وصولي ان عنصر الجند النظامي قد ازداد في المعسكر زيادة محسوسة عما كان عليه قبل اسبوعين ، وان الجيش ـ الذي كان يتكوّن يوماً بعد يوم ويتغلب عنصره على عنصر العصابات ـ قد تجلى جوهره في هذه الكتلة أيضاً . وكما كنت أرى الدودة تخرج من الجوزة ثم تصير فراشة هكذا كنت أرى جيش الثورة يحاول الدخول الى مسرح العمل بسيماء الجيش التركي القديم ولكنه أعظم منه نشاطاً واكثر صبغة شعبية

وكنا نتوقع عودة احسان في اليوم التالي . فتمنيت أن لا يتأخر وصول الذخيرة عن وقت الظهر ، ولم أنم تلك الليلة الا ثلاث ساعات ، فلما لاح شفق الصبح ركبت الى (دوغان چاي) لاستقبال الذخيرة ، حتى اذا انتصف النهار أقبلت العربات وامامها الشاويش محمد ، ولاحظت بين سائقي العربات غلاماً كالغصن قد انتبه نظري اليه وهو بعيد عني . وكان لابساً معطفاً

قديماً من الجلد أوسع من جسمه ، وفي ساقيه سروال قروي أقتم اللون ، ولم يكن يحسن حمل بندقيته . فدلني ذلك على انه حديث العهد بها . وتذكرت انني قد سبق لي رؤية هذا الغلام ولكنني لم أذكر أين رأيته . واقترب الشاويش محمد مني ، وكانت أمارات التهيج بادية عليه، وسيماء الخطر منطبعة على وجهه . وما فتيء يحدثني طول الطريق عن وجود النساء في العصابات الأخرى ، ويصف لي ـ بلهجته واصطلاحاته الخاصة ـ الدور الوطني الذي تلعبه النساء في العصابات البلغارية . ويبالغ بذكر مناقب الشاويشة رحيمة التي ماتت شهيدة والشاويشة عائشة والشاويشة عطية اللتين لا تزالان تقاتلان حتى الآن ويصوّر لي تاريخ حياتهن بصور مخيفة . ولم أدرك غرضه من هذه الاحاديث كلها عن النساء الاّ بعد حين

ولما عاد احسان لم تكن تبدو عليه يومئذ علامات القسوة والشدة ، وكان وجهه ذابلاً وعيناه تضيئآن بنور معدني . فلما دخلت عليه أنا والشاويش محمد لنخبره بوصول الذخائر نظر الينا بعيني الرجل البعيد منا والغريب عنا . ومع اني رأيت يده مضمدة بضماد أبيض يدل على انه مجروح فاني لم أجسر على مخاطبته . وظننت أن الفتور الذي كان بادياً في عينيه نحو الشاويش محمد انما كان خاصاً بهذا الشاويش لولا انني فهمت فيما بعد أن فتوره هذا عامّ لكل من كان من نوع هذا الرجل . فقد كانت روح احسان ممتلئة بالغيظ من كل أفراد القوات الغير النظامية ، وبالحقد عليها . وكان هذا الغيظ والحقد يكاد يفيض من روحه الى عينيه فينفر منهما

وكانت عينا احسان تترجمان عما في قلبه من الحكم على هؤلاء الافراد الذين كانوا ـ على كثرة جرائمهم وآثامهم ـ طيبين ومجردين من المشاعر . وكأنه كان يقول بلسان حاله : لقد اقترب اليوم الذي نبيد به كل هؤلاء اللانظاميين

وفيما هو كذلك قال له الشاويش محمد :

ـ لقد حضر معي واحد من قرية (صاريلر) القريبة منا يريد أن يكون

متطوعاً ، فماذا تأمرون به ؟

فنظر اليه احسان بذلك النظر البارد ، وكانت يده السليمة تلعب بمسدس موضوع على المنصة ، وقال :

اذا لم يكن امرأة ، ولا حديث السن كثيراً ، فلا بأس . اذهب به الى محسن بك يسجل اسمه .

فلاحظت ان الحمرة التي في عيني الشاويش محمد قد ازدادت ، وان وجهه صار عبوساً ، فقلت ان ذلك ناشيء عن اختلاف أطوار احسان ليس الا . فان أمثال الشاويش محمد بعد ان تعودوا عدم المبالاة برؤسائهم ، والنظر اليهم بنظر الاخوان ، صار من الصعب عليهم أن يحتملوا الرضوخ مرة أخرى لسيادة النظام العسكري

ولما خرج الشاويش محمد أمسكت بيد احسان ـ وكان منكباً على المنضدة يكتب شيئاً ـ فلاحت على شفتيه ابتسامة مرّة وقال :

ـ في الامس أدبنا قرية عاصية ، وكان ذلك على طريقة العصابات من بعض الوجوه . ومتى تمكنا من تقوية الروح العسكرية القائمة على أساس الطاعة لكل آمر فاني سأجعل لهؤلاء ـ الذين عمت بهم الفوضى وتلقوا أوامرنا بصلابة وتمرّد ـ حداً يقفون عنده ، وأدباً يعتبر به غيرهم

وأردت أن أقول ان حالة هؤلاء ليست شراً من المظالم التي كان يرتكبها جنود الجندرمه ! فنظر الى وجهي باستهزاء وهز رأسه هزةً أراد بها معنى مخيفاً

وتولاني الأرق تلك الليلة ، فلم أستطع أن أنام . وكانت خيمتي في جوار خيمة احسان ، وقد شربنا معاً في المساء شيئاً من الخمرة ، وتذكرنا الاستانة بمرارة مؤلمة . أما هو فكان يتسلى بالكلام عن نفسه ، ولعل هذه المرة هي المرة الاولى التي سمعته فيها يذكر نفسه . قال :

ـ انا ما برحت في كل آن رجلا ذا روح عسكرية كما أنا الآن ، غير اني كنت شاباً ساذجاً ، ثم اهتممت بالتفرنج ، ولا أزال أحب بدائع المدن

والاشياء الجميلة . ولكننا ابتعدنا الآن عن تلك الاشياء . وأنا أرى الآن ان اقتصارنا على مقاتلة من يأتي الينا في أواسط الانضول لا يكفي للدفاع عن بلادنا . فالواجب يقضي علينا بأن نكون أصحاب مملكتنا كما ان أعداءنا أصحاب ممالكهم . ولقد كنا حتى الآن مع شعبنا أشبه بالماء والزيت كل منهما منفصل عن الآخر . أما الآن فيجب علينا ان نختلط به وان نمتزج ونتحد . وسوف ترى يا بيامي ان الجيش الذي نحن سنخلقه هو الذي سيجعل هذا الشعب صاحب بلاده

قلت : ــ دعنا نصل الى ازمير ، فحسبنا ذلك يا احسان !

قال : ــ ان نفسي تحدثني بأن أرسم الليلة هاجساً أتخيله . ان استرداد ازمير لا يكفي ، ولا بد من تطهير المملكة كلها . ولما كنت أتحدث مع عائشة في هذا الموضوع أخبرتني بما في ازمير من عمران وسعادة ، واتفقنا معاً على اننا اذا أخرجنا اليونانيين من ازمير ، واذا تمّ للجيش عمران الانضول وسعادته من أدناه الى أقصاه ، نقيم حينئذ في ازمير ولا نعود الى الاستانة

قلت : ــ انك لا تطيق الابتعاد عن الاستانة يا احسان !

قال : ــ سوف ترى . وستذهب أنت أيضاً معنا الى ازمير فنتخذ لنا فيها مزرعة . أليس كذلك ؟

وكان قد شاع في تلك الايام أن من المحتمل قيام اليونانيين بهجوم عسكري عام . ثم ان الاختلاف بين الجيش النظامي والقوات الثورية كان قد استحكمت حلقاته . ونحن مهددون من الداخل ومن الخارج بألف مصيبة ومصيبة . وجيش الانضول كان لا يزال كالنواة . ولكن احساناً كان يتكلم بروح شاب من أركان الحرب في جيش المستقبل الذي سينحدر من فوق الصخور وهو كشلالات المياه في صفائها وخلودها ، فيستقبل بنشاط وقوة كل ما يحيط به من اخطار ومهالك . ولعل احساناً كان يكرر خيالا من الخيالات التي تراها عائشة بعينيها الخضراوين . ولما رأيت عينيه مستغرقتين ووجنتيه

محمرتين ، وقد أخذ يفكر كمن أصيب بحمى ؛ عدت حينئذ الى خيمتي فتولاني الارق ؛ وشعرت بمثل خوف الطفل ويأسه ، وان خيالات التفاؤل التي كان يهجس بها احسان قبل حين قد أحدثت عندي رد الفعل فصرت أهجس بخيالات التشاؤم . وفيما أنا على عزم أن أفارق فراشي لاعتقادي بأني لن أستطيع في هذه الليلة نوماً سمعت احساناً من خيمته المجاورة لخيمتي وهو يقول بصوت يشف عن الغضب ولكن بنغمة العطف والضعف :

ـ عن أي شيء تبحثين هنا ؟

فجلست في الظلام اصغي اليهما ، فسمعت صوتاً لطيفاً ولذيذاً كصوت فتاة صغيرة تبكي . أما احسان فقد خفض صوته ، ولكنه كلما تكلم شيئاً كان صوت البكاء اللطيف يزداد تألماً ويأساً . فاضطربت لهذا الامر اضطراباً عظيماً ، وتساءلت في نفسي : ترى من ذا تكون هذه المرأة أو هذه البنت ؟ انها على كل حال دخلت خيمة احسان بلا علم منه ، وان احساناً الذي غضب اولاً وكان يتكلم بقسوة قد لان بعد ذلك وغلب على نفسه فخفض صوته وأخذ يحاول اخراجها بلطف واشفاق . وخطرت على بالي الفتاة كذبان ، غير أني استنكرت أن تكون هي ؛ لانها لم تكن في معسكرنا . وحرت في أمر هذا النزاع الغرامي الذي يجري الآن في جانبي علي غير انتظار ؛ فلمعت في عيني حينئذ عينا عائشة الخضراوان ؛ ورأيت لهما في هذا الظلام وميضاً بارداً مريباً . . . ثم سمعت صوت احسان يقول :

ـ مسكينة عائشة الصغيرة ، مسكينة عائشة الصغيرة ! افتحي عينيك ، وانتهي من هذا البكاء ياعائشة !

فقلت في نفسي : اذن ان لاحسان هنا عشيقةً اسمها عائشة ، وقد جاءت في الليل من (دوغان جاي) دون أن يراها الحراس الذين في الخيام ، وقد دخلت عليه لتستميله وتضرع اليه . وان هذه الحادثة التي كان ينبغي أن تسرني قد زادتني اضطراباً ، فخرجت من خيمتي شاعرا بأن الضيق سيخنقني ،

وجعلت أنظر الى أشجار قائمة أمامنا . وكانت السكينة سائدة . والظلام قاتماً ، والسماء محجوبة ببعض الغيوم ؛ والهواء حاراً والنسيم واقفاً . ولست أدري كيف انتبهت في هذه السكينة الى وجود رجل على مقربة مني ؛ فأخرجت المقدحة من جيبي وقدحتها ، فرأيت على نورها شبح رجل بيده بندقيته الطويلة وهو على مسافة ثلاثين خطوة من خيمة احسان ؛ وكان يفحص البندقية بذهول وجموح ؛ وقد وجه وجهه نحو خيمة احسان وأخذ يصغي بكل جوارحه الى ما يجري فيها . وفي اللحظة التي أضاءت فيها المقدحة انارت لي رؤيةُ الرجل كارثة تملأ تفاصيلها مجلداً . وكان هذا الرجل الشاويش محمداً ، ففهمت في الحال كل شيء ؛ وللمرة الاولى في حياتي استطعت ان أصدر حكماً بسرعة البرق . فتقدمت نحو الرجل متمهلا ، وقلت له بصوت طبيعي وبعدم مبالاة :

ـ ماذا تعمل ياشاويش محمد ؟

اجاب : ـ أهذا أنت يابيامي بك ؟

قلت : ـ أنا هو !

وكانت ليلتنا هذه كأنها مطلسمة مسحورة ، حتى لتكاد تدفع الارواح الى فتح الأفواه واتخاذها طريقاً للخروج من الاجسام . وكان الشاويش محمد في بساطته وتهيجه كالطفل المولود حديثاً . فطلب أن أدنو منه قائلاً ان له معي حديثاً . فدنوت منه بلا تردّد ؛ وأخرج من جيبه علبة الدخان وأخذ يلف منها لفافة . فقلت له :

ـ ماذا جرى يا شاويش محمد ؛ هل أنت مصاب بأرق ؟

ولما قدحت المقدحة مرة أخرى لنشعل سيجارتينا رأيت وجهه بشكل مخيف جداً . ولشفتيه انثناء شنيع من تحت شاربيه . وما لبثت ان علمت من جوابه على سؤالي ان الكارثة أقل خطباً مما كنت ظننت ؛ ومع ذلك فان لمخاوفه أسباباً جوهرية . فقد أخبرني الشاويش محمد ان كذبان اجتمعت به في

قرية (صاريلر) بعد ذهابي ، وأرادت أن تأتي معه الى المعسكر بصفة امرأة متطوّعة ، وتوسلت اليه كثيراً فلم يستطع رد طلبها . فألبسها ملابس رجل وجاء بها معه . والظاهر أنه ذكر لها أنه ذو كلمة نافذة عند احسان . فلما رأى هذا الفتور من احسان عند دخولنا الى خيمته فسد الامر على الشاويش محمد ولم يجرأ على تسجيلها في دفتر المتطوّعين . وكان ذلك سبباً لخوف كذبان من أخيها أولا ومن أهل المعسكر ثانياً فعزمت على أن تدخل بنفسها على القائد وتتوسل اليه . وفي خلال تلك المدة كان الشاويش محمد قد علق قلبه بالفتاة فكاشفها بذلك وطلب اليها ان ترضى به زوجة له . وأخبرها أن في هميانه نقوداً كثيرة وأنها اذا رضيت به يتخذ لها منزلاً في أية قرية شاءت ، ويكفيها كل مؤونة ولا يكلفها عناء عمل ما . ولكن كذبان لم تصغ الى شيء من أقواله . ورأت أنها اذا لم تجدها توسلاتها نفعاً عند القائد وأصرّ على طردها من المعسكر أن تصون نفسها من استهزاء أهل القرية بها ، وذلك بأن تلقي نفسها في النهر وتموت مختنقة . وأخيراً أشار عليها الشاويش محمد بأن تذهب بعد نصف الليل الى خيمة القائد وتدخل عليه خاسة فتتوسل اليه . ثم ان الشاويش محمداً أخذ بندقيته وجاس في هذا الموضع خوفاً على الفتاة أن تمس بأذى . وقال لي بعد ذلك انه كان يريد أن يحتمي بي ويرجوني أن أتوسط له لدى القائد في طلب زواجه بهذه الفتاة . ولكن فكره صار مشغولاً الآن بالخيمة المقفلة الصامتة : فان البنت لما دخلت على القائد صاح بها أولاً ، ثم أخذت هي تنتحب وتبكي بكاء غريباً ، ثم هي الآن صمتت تماماً ، وقد طالت مدة اجتماعها بالقائد . وكان الشاويش محمد يقول لي هذه الكلمات بصوت فيه شدة وقسوة . ثم قطع كلامه فجأة فكان لسكوته رنة في نفسي مثل رنة الرصاصة اذا خرجت من بندقية الماوزر فاخترقت دماغ ضابط شاب وهو يكتب في خيمته . فقلت للشاويش محمد بصوت هاديء جداً :

ــ ان احسان بك ليس من القسوة بالدرجة التي تظهر انا منه . ولعل

كذبان تقص عليه الآن خبر رغبتك في اتخاذها زوجة لك ، وهو قديم المعرفة بكذبان . ويشفق عليها لانها بنت جندي قتل في سبيل قومه

فهزّ الشاويش محمد رأسه . وكانت روحه كأنها الشكل الخلفي لصورة روح احسان . وانه لم يكن يصدق أن رجلا من الجيش النظامي يريد الخير لرجل من العصابات . وهو لا يثق بالنظاميين عامةً ، وبأركان الحرب منهم على التخصيص . ثم انه لم يصدق بأن ماتقصه كذبان على احسان هو الذي حبسها في الخيمة الى الآن . وقد بلغ منه الحنق على النظاميين مبلغاً صار يتهمهم معه بأشنع التهم وأقبحها ويقول : لقد قضي الامر ! غير أنه بالرغم من هذا الحنق وعدم الثقة كاد يصدق ما قلته له . وسمعنا ديك الصباح يصدح ، فقلت له :

ـ لعل كذبان عادت الى محل العربات . فاذهب أنت اليها الآن وأوعز اليها بأن تتوارى اليوم عن الانظار . وسأقابل أنا احساناً وأسترضيه . ثم نحتفل بزفافكما

فضحك الشاويش محمد ضحكة غريبة ، وكان قد بحّ صوته . فقال لي :

ـ سواء عليّ أرضي احسان أم أبى ، فانا أقسمت لآخذنّ هذه الفتاة حية أو ميتة !

فعدت الى خيمتي ولبثت انتظر انتباه احسان من نومه ، لان الموقف حرج جداً ولا مناص من تطييب قلب الشاويش محمد باسرع ما يمكن ، والا فان من المحقق وقوع كارثة . وعند انتصاف النهار استيقظ احسان ووقف في خيمته مع أحد الضباط يتحدثان في توزيع الذخيرة وارسالها الى الامام ، فانتظرت خروج الضابط من عنده لأدخل عليه . ولكن الشاويش محمداً دخل عليه قبل خروج الضابط . والظاهر من ملامحه ان احساناً أرسل في طلبه ، فوقف منتظراً وعلى وجهه سيماء الرجاء . ولما رآني على مقربة منه أحسّ بشيء من الطمأنينة في قلبه المفترس . وكانت علائم الشدة والقسوة لا تزال على وجه احسان ، فأمر الشاويش محمداً بأن يذهب الى جوار (كيوه)

لشراء شيء ، وكان ذلك يقتضي أن يبيت هناك . وأخذ احسان ينظر الى وجه الشاويش محمد ففكرت لأول مرة كيف ان مثل هذا الرجل المنحط يستطيع أن يكتم ما في قلبه من العواصف الشديدة كما نستطيع نحن ذلك . وكان وجهه متوتراً ومصفراً . وكلما فتح فمه من حين الى آخر تتراءى أسنانه المخيفة . ولكن الشاويش محمداً تلقى أوامر القائد وهو ساكن . فلما انقلب راجعاً قال له احسان من ورائه :

ـ ان لمصطفى الذي يشتغل معك أختاً من قرية (صاريلر) اسمها كذبان تعلقت بعربات الذخيرة وجاءت الى هنا ، فقل لمصطفى يرجعها الى القرية عند عودة العربات . ومن اجترأ على أن يأتي بها الى هنا ليلة أخرى فاني سأشنقه . أفهمت ؟

ولما انفردت باحسان وأردت أن أخاطبه في هذه المسألة نظر الي نظرات حادّة وقال :

ـ أنا لا أستطيع سماع حكايات الاولاد بينما نحن تجاه حرب ستبدأ

ولكنه قد علم فيما بعد أن لحكايات الاولاد هذه خاتمة أليمة

وفي اليوم نفسه عهد احسان الي أيضاً بوظيفة صعبة ، فلم أجد وقتاً لمواصلة النظر في مسألة كذبان رغم ما أشعر به من القلق من جهتها . وتناول احسان عشاءه في المساء وبادر في الحال الى جواده فامتطاه وسار بكتيبة من رجاله واعداً بأنه سيعود في الصباح . وكانت للتراب رائحة لطيفة غبّ مطر ترطب به الجو ، والنجوم تتوقد أشعتها حتى لنكاد نبصر على نورها أوراق الشجر القائم على مقربة منا . وجلست مدة على باب خيمتي أتساءل : هل ذهبت كذبان ياترى ؟ وتمنيت أن يعود احسان فأذكر له كل شيء . ثم نمت نوماً لذيذاً بعد التعب الذي نالني البارحة

وفيما أنا نائم فتحت عيني على حفيف شخص شعرت بدخوله الخيمة . وكان القمر قد ظهر متأخراً وأخذ يرسل نوراً ضعيفاً يدخل الخيمة من شقوقها ،

وسمعت صوتاً ينادي دون أن أرى صاحبه :
ـ بيامي بك ، بيامي بك !
فقلت : ـ من هذا ؟
قال : ـ أنا !
قلت : ـ ادنُ مني لأرى من أنت !

وأنرت المصباح الذي كان في جانبي . فدنا مني شبح رأيته خائفاً من الخيمة ، وهو شبح الغلام الذي رأيته أمس الاوَّل مع العربات ، فعرفت كذبان دون أن أنظر الى ماتحت قلنسوتها السوداء من صفرة وجهها . وسألتها :
ـ ماذا تريدين يا كذبان ؟

فأخذت تنتحب بصوت رقيق كان مبايناً لشكلها بما يدعو الى الضحك منها والاشفاق عليها . وبعد جهد تمكنت من أن أسمع منها سبب مجيئها وبيان آلامها ؛ فباحت لي في هذه الليلة بكل شيء كما فعل الشاويش محمد البارحة

وكان أول ماحدثتني به أنها عاقت بحب احسان ؛ فهي تحبه بكل سذاجتها وطفولتها ونسويتها ، بل وبما حدث عندها أخيراً من أطوار مبهمة . وكانت بداية علاقتها باحسان عطفه عليها وحمايته اياها منذ علم بأن أباها مات شهيداً في الاستانة يوم الاحتلال ؛ وكان ذلك دأبه في أمثالها من أبناء الشهداء والبائسين. فأحبت احساناً من ذلك اليوم ثم زادها حباً له ما رأته فيه من اقدام وبطولة . وفيما هي من حبها هذا بين يأس وخوف أحست بأن احساناً أصبح دنياها وأعز عزيز عليها . وقاست بعد ارتحال احسان عن قريتها آلاماً وحسرات ، فلما أقنعها الشاويش محمد بأن تجيء معه الى المعسكر لم تفكر في شيء غير رؤية وجه احسان . وكانت أمنيتها أن تراه مرة واحدة ، وأن تلقي بنفسها تحت حذاءيه ؛ ثم انها راضية بأن يسحقها بهما

وتكلمت بعد ذلك عن المرأة المدنيـة ـ تعني عائشة ـ بغيرة وحقد لم أتوقعهما ممن هي في سنها . ومما قالته ان هذه المرأة المدنية لا يمكن أن تحبّ

احساناً بمقدار حبها هي له . فحاولتُ أن أقنعها بأن عائشة لا تحب احساناً وأن احساناً يراها ـ مثل سائر أصدقائه ـ بمنزلة الاخت له . فهزّت كذبان رأسها بشراسة وقالت :

ـ تلك امرأة باسلة . ولا استطيع أن أقول غير ذلك . ولست أقول انها مومس ؛ ولكنها تجمع بين الرجال كما تصنع المومس ؛ وبسببها تتلف نفوس الرجال الباسلين . لماذا قُتل الملازم أحمد رفقي ؛ ذلك الغلام الاصغر ؟ لانه علم أن في قلب المرأة الحضرية حرقةً على جناب القائد ، كالحرقة التي في قلبي !

قلت : ـ وأنا ماذا يعنيني من ذلك كله ؟

فعادت البنت الى البكاء والانتحاب . وأخبرتني بذهابها ليلة أمس الى خيمة احسان ؛ وأنه صاح بها في باديء الامر وأمسك بذراعها ليخرجها ؛ فاستلقت على الارض وأمسكت بحذاءيه وأخذت تنتحب وتضرع اليه . وحينئذ أشفق احسان عليها وحاول تسكينها . وهنا زاد انتحاب الفتاة ؛ ولاحظتُ في خلال انتحابها واضطرابها لحظة من لحظات السعادة تريد أن تكتمها لولا أنها كانت تزلزل اعماق نفسها : فان احساناً لما أنهضها من الأرض أمسكها من ذقنها ونظر في عينيها وسماها عائشة وبكى هو أيضاً معها بكاء الاطفال . وتقول كذبان ان عائشة قد نتفت ريش احسان ؛ ولا خلاص له من سحرها . وعلى كل حال فان كذبان ابتاعت ليلة أمس تلك اللحظة من نعيم الجنة بثمن باهظ ؛ أعني التضحية التي عزمتْ عليها خلال ذلك الاضطراب الذي سيجعل حياتها سلسلة متصلة الحلقات من عذاب جهنم

واجتمع بها الشاويش محمد في الصباح وأزعجها بمطاليبه . وفهمت كذبان ما وراء هذا الازعاج من أخطار يمكن أن يقع احسان فيها . وهي تخاف الشاويش محمداً خوف الطير من الثعبان وتسميه « الزبنية [1] » . وقد اجابته الى طلبه خوفاً على احسان من أذى يصيبه ؛ فوعدت الشاويش محمداً بأنها

---

(١) الزبنية : كل متمرّد من الجن والانس ؛ وجمعه « الزبانية »

ستعود الى القرية وتتزوج به ثم تنتظر أول فرصة ... ولكنها لم تقل لي ما هي هذه الفرصة ، وكيف تنتهزها للخلاص منه

ومع أن كذبان وعدت الشاويش محمداً بالعودة الى القرية مع عربات الذخيرة فانها بقيت في المعسكر ، لانها كانت تريد أن تنظر احساناً للمرة الاخيرة ، فلما علمت بذهابه جاءت اليّ لتوصيني بوجوب المحافظة على احسان من الشاويش محمد الذي دبت في نفسه عقارب الغيرة من احسان ، وهو يعرف ضعفه ولا يبعد أن يخونه عاجلا أو آجلا . ثم انها تريد أن تدخل الى خيمة احسان لآخر مرة . واقترحت عليّ أن أجد لها وسيلة تدخل بها الى الخيمة لئلا يمنعها الحارس . قالت : وأي بأس في أن ألقي النظرة الاخيرة على تلك الخيمة قبل أن أعود الى القرية وأكون في قبضة ذلك الزبنية ؟ فأشفقت عليها ، وفتحت باب خيمتي وقلت لحارس خيمة احسان :

ـ اني مرسل مع هذا الغلام جرائد الى خيمة جناب القائد ، فدعه يدخلها

فأجاب الحارس : ـ أجل ، مولاي

وتناولت رزمة من الجرائد فأعطيتها الى كذبان ، وقلت لها :

ـ هيا أسرعي فضعيها هناك ثم اخرجي حالاً !

ولكن كذبان أبطأت في الخيمة . فذهبت لأرى ما الذي حبسها . فلما دخلت عليها رأيت المسكينة قعدت القرفصاء في مؤخرة سرير احسان ، واعتنقت حذاءيه ووضعت خدها على قطعة من الجلد فيهما ، وقطرات دمعها تسيل من أهدابها السوداء فتسقط على التراب . فأمسكت يدها وجذبتها ، وخرجت بها على أن أوصلها الى خارج حدود معسكرنا ثم أتركها لتنحدر بعد ذلك في هوّة عشق الشاويش محمد السحيقة

وخرجنا من بين الخيام نمشي جنباً الى جنب ، وهي منكسة رأسها تنظر الى الارض وكأنها في حلم . ولما ابتعدت بها عن المعسكر مسافة غير قصيرة صرنا على مقربة من (دوغان جاي) . وكانت تستطيع أن تذهب بعد ذلك

وحدها فودّعتها . وأردت أن أعطيها شيئاً من النقود ؛ فأسندتْ ظهرها الى شجرة وجعلت تقول :

ـ لا آخذ ؛ لا آخذ !

فحاولت ارغامها على قبول ذلك . وبينما أنا أريد أن أضع النقود في كفها الصغير سمعت طلق رصاص ، وشعرت بمثل ضربة الصاعقة في ذراعي ، ثم سقط مني على الارض شيء كقطرات الماء . فاضطربت كذبان وجعلت تجري يميناً وشمالا . ثم رأيت شبح الشاويش محمد وهو يثب من بين الاشجار كالنمر حتى وصل الى كذبان فأمسكها من خصرها وقال لها :

ـ لقد بحثت عنك في القرية فلم أجدك ؛ وعلمت أنك خدعتني أيتها المومس . وسوف ترين كيف أخرق بالرصاص كبد هذا وكبد احسان

وأسرع جنود الحرس عند سماعهم طلقة الرصاص ؛ فبادر الشاويش محمد طالباً الفرار بالفتاة التي احتملها من خصرها . فقلت للجندي الحارس :

ـ لا يوجد شيء أيها الرفيق . وانما هي رصاصة أطلقت من بعيد فأصابت ذراعي خطأً . واني ذاهب الى خيمتي ؛ فاستدعوا لي الطبيب والضماد

ولما عاد احسان في اليوم الثاني قال : ان الاختلاف بين الجيش والقوات غير النظامية قد ازداد شدة واحتداماً ؛ ولا حياة للجيش بعد الآن الا اذا سحق هذه القوات وأبادها . وان الضباط ـ وفي مقدمتهم احسان ـ وكذلك جميع الجنود النظاميين صاروا يرون القوات الثورية عدوّاً لهم بدرجة اليونانيين

واقترح عليّ احسان أن أذهب الى (اسكي شهر) لاداوي ذراعي وأروّح نفسي ؛ وأصرّ على ذلك بكل ما لديه من قوة

— ٨ —

الـكابوس

ـ اول ديسمبر ، ١٩٢١ ـ

ان في سلسلة قصتي حلقةً مفقودة ، بل ان في كتابها ورقةً محروقة . فهل أنا رأيت كذبان والشاويش محمداً مرة أخرى بعد أن أمسكها من خصرها وهرب بها في الصحارى المقفرة تحت ظلام ذلك الليل الدامس ؟ يخيل اليّ أني رأيتهما من خلال اللهيب المتوقد في دماغي ، وبين أصوات طلقات الرصاص وصيحات الثورة

ذلك هو الدور القصير من حياتي ، دور الكابوس الرهيب !

انا اذا فكرت في ذلك الآن ترشح جبهتي عرقاً باردا ، وتشتعل النار في جسمي ، وتجف شفتاي ، وترتجف عيناي كأني مصاب بحمى

فهل ماظننت حصوله هو من اختراع مخيلتي ؟ اني لا أكاد أصدّق ذلك . ثم اني مرتاب بأولئك وبنفسي أيضاً !

لقد كان ذلك كابوساً ، وانه لكابوس حقيقي . وسأحاول وصفه كأني أراه

كنا مع القوة التي ذهبت لقمع ثورة نشبت في (قونية) . فنزلنا مع رجال احسان على مقربة من مركز ناحية لا أتذكر الآن اسمها . واتصل بنا ان هذا المركز لم تصل اليه عدوى الثورة بعد ، حتى أن وفداً صغيراً من أهالي هذه الناحية حضر الى احسان ليعرض اخلاصه ، ووعد رجال الوفد بأنهم لن يدعوا أحداً من العصاة يدخل ناحيتهم ، واشترطوا في مقابل ذلك أن لايدخلها أحد من رجال قواتنا لئلا يكون دخولهم سبباً في حدوث هياج فيها . ولكنهم دعوا احساناً الى زيارتهم وحده ، وقالوا انهم سينحرون له

خروفاً ويزينون القرية احتفاء به . وكان هذا الوفد مؤلفاً من شيخين طاعنين في السن على رأسيهما عمامتان ومعهما ثلاثة من أغوات القرية . فوقعت المحبة لهم والطمأنينة اليهم في قلب احسان . ومع ذلك فان احساناً التمس أسباب الحيطة ، فدعاني الى الذهاب معه ، وصحب معه خمسة فرسان ، وأمر كتيبة من قواتنا بقيادة محسن بك أن تكون قريبة من الناحية . وكان يريد اذا رابه أمر من القوم أن يرسل واحداً من فرسانه الخمسة الى محسن بك ليزحف على القرية بكتيبته . أما محسن بك فكان على خلاف هذا الرأي ، وقال « ان القرويين الذين هم اليوم بمثل طاعة السائمة سيصابون غداً بحمى الثورة التي تصل اليهم من قونية بسرعة العاصفة »

كانت القرية مؤلفة من ثلاثمائة بيت ، وقائمة في أرض سبخة ترابها أصفر ، والمنازل مبنية على رابيــة صغيرة من ذلك التراب الاصفر أيضاً ، وأمامها ساحة خضراء . وكانت شمس الاصيل قد صبغت تلك التربة الصفراء بشــبه لون النفسج ، والنسيم يحمل صوت الطبل والمزمار من الساحة الخضراء التي أمام القرية الى جميع الجهات . وفي تلك الساعـة كنت أنا واحسان على متني جوادينا نتقدم نحو القرية ونتحدث بأمر كذبان والشاويش محمد . فقد كان يقال ان كذبان لم ترجع الى قريتها ، وأن الشاويش محمداً انضمّ الى عصابة حمزة بك المؤلفة من الترك والشركس ، وهي العصابة التي تعيث في الارض فسادا ; فجعلت افكر باستغراب في أمر هذا الرجل وأطواره النفسية وكيف أنه أفسد ماضيه غيرة منـه على عيني كذبان الخضراوين . أما احسان فكان يقول وهو في ذهول :

ـ مسكينة كذبان الصغيرة ، مسكينة تلك الطفلة !

ولما اقتربنا من الساحة الخضراء رأينا الناس مزدحمين بكثرة ، فقلت لعلهم قادمون لاستقبالنا ؛ ولـكن ياللناس ما اشدّ ازدحامهم ! وما بالهم واقفون هكذا صامتين !

ولما أردنا ان ندخل الساحة الخضراء رأينا أمامنا خندقاً طويلاً عميقاً فاجتازه جواد احسان ، وكأنه قد طار فوقه بجناحين ، ثم تبعناه أنا والفرسان . وما كدنا نسير عشر خطوات على المرج الاخضر حتى ظهر لنا جماعة كانوا مختبئين في بناء طاحون خربة واقعة في جانبنا الايسر ، وصاروا يركضون وراءنا . فلوى احسان عنان جواده نحوهم بسرعة عظيمة ، وابتدأ في تلك اللحظة كابوس خيالي مدهش . . . ونشبت معركة هائلة تقاتل فيها الفرسان الخمسة مع خمسين رجلاً هاجموهم بالحجارة والعصيّ والمناجل والشتائم ، ثم رأيت اثنين من الفرسان الخمسة سقطا عن جواديهما فألقى الفلاحون جثتيهما في الخندق . وسمعت من ورائنا وقع اقدام بكثرة مخيفة ، وكأن صوتها خارج من أعماق الارض ، وكان ذلك صوت مسير تلك الجماعات المزدحمة من القرويين يجرون كالعاصفة . ولكن الذين يقاتلون الفرسان هنا كانوا قد تغلبوا عليهم وانتهوا من أمرهم ، فلما وصل الينا الآخرون صرنا وسط كتلة من بني البشر مصابين بداء الكلب . وتعلمت يومئذ الخوف بكل معانيه ، فعلمت أن للخوف لوناً وعينين وجسماً ، وان له اختلاجاً . وأما ذلك الفتى الصليب الرقيق – يعني احساناً – فان يده كانت قابضة على مسدسه الذي لا يزال دخان الرصاصة الاخيرة يخرج من فوهته ، وقد مالت قلنسوته الحمراء الى جانب رأسه ، ولم يفقد صوابه قط . وتوخى جهده أن لا يصيب أحداً برصاصه ، ولكنه استطاع أن يمنع عن نفسه حلقات الشعب التي ازدحمت وتكاثرت من حوله ، فكان شغلهم الشاغل النظر الى عيني هذا المخلوق القدير اللتين كانتا تنظران اليهم نظرات باردة وتلوح فيهما أشعة معدنية . وأغرب ما في هذا الموقف أن هؤلاء الناس الذين كانوا يصخبون ويشتمون ويرشح العرق من اجسامهم ويهزون بأيديهم مناجلهم وفئوسهم كانوا كأنهم يرونني واحداً منهم فلم يعترضوا لي بسوء قط . وسمعت أصوات رجال يقولون :

– اترون شاربيه ؟

ـ اطرحوه !

ـ أهلكوه !

ـ اخنقوه !

ثم سمعت ضربات الطبل ، ورأيت شعباً كالكلاب الكلبة ، وحجارة تتطاير في الهواء ، والشمس كأنها طبق من دم تنحدر من الافق لتختفي تحت الصحراء !

وحيل بيني وبين احسان ، ولست أدري الآن ما ذا تصنع هذه الجماهير المفترسة . وانهم بين ماشٍ تترنح يداه افتخاراً ، وبين صائح أو راكض أو ضارب بالحجارة ، وكلهم في هياج قبيح مستمر !

وسارت هذه العاصفة البشرية في الظلمة الحمراء متوجهة نحو القرية ، وأمامها رجال في أيديهم المشاعل تنير تلك الوجوه المخيفة بما ترسله من لهب ممزوج بلطخ الدخان . وكانت هذه الجماهير محيطة باحسان والاثنين من جنوده والناس يجرونهم بما في أيديهم من السلاسل . فقلت في نفسي انهم لا يزالون أحياء ، ولو كانوا أمواتاً لألقوا بهم في الخندق كما صنعوا باخوانهم . وسمعت قرويين كانا الى جانبي يتحدثان همساً . فقال أحدهما :

ـ ياله من فتى كالاسد ! لقد كان ضابطنا في الدردنيل ، وكان يتقدم ساعة الهجوم فترتجف منه قلوبنا. ثم من هو هذا الخبيث الذي يدعي حمزة بك يا ترى؟

أجابه صاحبه : ـ أتعرف الشاويش محمداً ، انه هو الذي رتب كل ماجرى !

قال الاول : ـ ولكن صاحبنا الفلاح أشبه بالحمار !

ودخلنا القرية فسمعت أحدهما يقول للآخر :

ـ ما ذا سيصنعون بالقائد ؟

أجابه صاحبه : ـ سيذهبون به الى السجن

وذهبت مع هذا الشعب الدموي السائر بمشاعله ، وكانت أصوات النساء تتصاعد من جميع انحاء القرية بنغمات مختلفة ، والطبل لا يزال يقرع الآذان

بصوته الجهنمي ، ويتخلل ذلك صيحات همجية خشنة ، وطلقات الرصاص تخترق الجو في كل مكان

وبلغنا درباً من دروب القرية ، وكان كثير التراب وفيه عطفات واعوجاجات متعددة ، وعند احدى عطفاته عربة فارغة مجرّدة من حيوانها وأمامها منزل كبير مبني من تراب وله باب مفتوح . فأدخلوا احساناً والجنديين الى هذا المنزل بضجيج وشتائم . فالتصقت أنا بالعربة الفارغة ولبثت هناك . فسمعت واحداً يقول لآخر:

ـ لماذا لا يقتلون هذا الرجل ؟

أجابه الآخر : ـ لا أدري !

قال الاول : ـ زعموا ان أحد الباشوات قادم من أنقرة ، فهل تراهم أمسكوا هؤلاء ليكونوا عندهم رهائن لاجل ذلك ؟

أجابه صاحبه : ـ لا أدري شيئاً مما تقول أيها الفتى !

وازدحم الدرب مرة أخرى ، وتراكض الناس ، وأضاءت المشاعل ، وضربت الطبول . ثم سمعت قائلا يقول :

ـ يخنقونهم ، يخنقونهم !

فشعرت بالعرق البارد يتصبب من صدغيّ . وأخذت يداي ترتجفان ، وصار قلبي كالأرجوحة تترنح في فضاء

ثم سمعت وقع أقدام ، وخطبة بلهجة قروية أعرفها : فأمسكت جانب العربة ونهضت واقفاً ، فأبصرت في داخل الباب لهيب المشاعل يتصاعد من بين الدخان والسخام ، ورأيت أفواهاً مخيفة لا تنقطع عن الكلام والصياح . فتقدمت لارى ماذا يصنعون ، ثم وقفت على الباب أنا وخمسة أو عشرة من الفلاحين كانوا مارين من هذا الطريق فوقفوا يتفرجون

ونظرت الى مابعد الباب فرايت بيت خلاء كريه المنظر وفي جانبه سلم . وساحة الدار ترابية قذرة ، وفي احدى زواياها سلاسل وأغلال متراكمة ،

وفي الجانب الايمن باب آخر ذو حواجز حديدية ، والمشعلان مركوزان امام هذا الباب فأدركت في الحال أن هذا المنزل هو دار الحكومة لمركز هـذه الناحية ، وأن هذا الباب الحديدي هو باب السجن ، وكان احسان واقفاً على قدميه في داخل هذا الباب والدم يرشح من رأسـه ، وان السلسلة الحديدية الطويلة التي وضعت في يديه قد تدلت على قدميه ، وقد وضعوا في عنقه غلا . وفي خارج الباب الحديدي ذلك الرجل الكريه ـ أعني الشاويش محمداً ـ وهو يحرض بعض الرجال على كسر الباب الحديدي للاجهاز على احسان . وكان يقول لهم : انكم قد ذبحتم مدير الناحية وعساكر الجندرمة ، فماذا يقعدكم عن هذا الفتى القذر الجاهل ؟

والظاهر أن هؤلاء الجماعة بدأوا يتعقلون بعد كل تلك الجرائم الجنونية التي ارتكبوها في المساء ، فلم يصغوا الى تحريض الشاويش محمـد . أما أنا فقد وقف نظري وقلبي عند احسان كما تحوم الفراشـة حول السراج فلم يتحول عنه بصري ولا بصيرتي . فيا لوجهه ما كان أبدعه وأقواه وما ألطف نورانيته ! وان عينيه الواسعتين اللتين يرشح فوقهما الدم من رأسه الاشقر قد تحولت الآن نظرات جبروتهما الرهيب الى نظرات اشفاق عميق تمازجه مرارة النفرة والاستكراه ، وحينئذ فهمت سر انكباب كذبان على حذاءيه بخشوع واشتياق ، وأدركت في هذه الدقيقة فقط من حياتي ان عائشة ـ وكل امرأة تراه ـ لامناص من وقوعها في حب عينيه وقوعاً لا قيام لها منـه . ولو أن عيني عائشة نظرتا اليه وهو في هذه الحال . . . ولكن لا . ان روح هذا الرجل الذي يحمل الآن في عنقه غلاً ، وفي يديه سلسلة طويلة ، وهو واقف وراء حواجز الباب الحديدي ينظر الى جلاديه بشجاعة وايمان ، قد تفرست به عائشة من قبل بما في زمردتي عينيها من نور

وازدادت يداي ارتجافاً ، وظل العرق البارد يتصبب من جبهتي على خدي . وان الشاويش محمداً قد عرف موضع الضعف من قلوب هؤلاء القرويين فجعل

يذكرهم بأن احساناً اذا أفلت من بين أيديهم سيحرق قريتهم وسيشنق جميع سكانها حتى النساء والبنات. وبذلك استطاع أن يؤثر عليهم فباتوا متردّدين، وأبرقت للشاويش محمد عيونهم التي كانت قبل حين تنظر اليه ببرود وفتور. فأصبح عمر احسان يعد بالدقائق

وفيما نحن كذلك سمعنا وقع حوافر الخيل تقترب منا، فانتفخت أذنا الشاويش محمد، وأخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض. ثم توجهوا نحو الباب فرأوا الناس يتراكضون ويضطربون، ومن ورائهم كتيبة من الفرسان تجري الخيل من تحتها بسرعة:

ولما أبصرتْ عيناي احساناً بين فرسان محسن بك، وكان الدم لايزال يرشح من رأسه؛ انقشعت عني ظلمة الكابوس وارتفعت عن صدري أثقاله، ولكن كاد يغمى عليّ كالنساء لهول ما مرّ بي

وجلس احسان في خيمته معصوب الرأس، وأخذ يتحدث مع ضباطه كأن لم يقع شيء. فشرع محسن بك يقول له:

ـ لقد كنا جميعاً نائمين. فانتبه الحارس على صوت نسوي رقيق كأنه صوت ولد. وكان ذلك صوت غلام جميل في نحو السادسة عشرة من عمره وهو يلبس بزّة شركسية. فجعل ينادي:

ـ أيها الضابط، أيها الضابط!

وجيء به اليّ؛ وكان كأنه نصف ميت، فأسنانه ترتعد؛ وذقنه منكمشة. وقد ذكر أنه من عصابة حمزة بك الشركسي؛ ثم جعل ينادي:

ـ انهم أمسكوا احسان بك، وسيقتلونه، فأدركوه!

فامتطينا في الحال صهوات خيولنا، ولم يتسع لنا الوقت حين مجيئنا للوقوف على اكثر من ذلك. فاذا شئتم فاسألوا الحارس لعله يعلم أكثر مما أعلم

وجاء الحارس فجعل يسرد مايعرفه كأنه امام محكمة. وكان صوته يرتجف

وعيناه تدمعان • ومما قاله :

ـ ان الغلام جاس عندي قليلاً بعد ذهاب محسن بك ، وأخبرني أن احسان بك كان قد أحسن اليه في قرية (صاريلر) ثم وقع في يد الشاويش محمد ، ودخل في عصابة حمزة بك الشركسي • وكان الشاويش محمد مصمماً على قتل احسان بك ، لولا أن اكثر القرويين كانوا معنا على جيش الخلافة • فاحتال عليهم الشاويش محمد وأقنعهم • فلما علم الغلام بالكمين الذي نصبه القرويون لاحسان بك فرّ من هناك ، وجاء يجري على قدميه مدة ست ساعات فوصل الى هنا كالميت من تعبه وتهيجه وخوفه

وكان احسان يسمع قول الحارس ووجهه يصفر . ثم قال :

ـ وأين هو الغلام الآن ؟

اجاب الحارس : ـ انه اضطجع الى جانب النهر ونام ! ثم بحثوا عنه كثيراً فلم يجدوه ، ولكنهم وجدوا على ضفة النهر معطفاً شركسياً وحذاءين !

ولما ذهب احسان لتأديب تلك القرية كنت أنا راقداً في فراشي ، أشعر في رأسي بشيء مظلم وثقيل ، وكانت يداي لا تزالان ترتجفان . والظاهر أن عملية التأديب استغرقت ثلاثة أيام !

وجاء احسان ذات ليلة وأنا أسمع صوت مهمازيه وهو يسير ، فرأيت وجهه معفراً ، ولا تزال العصابة على جبهته . فقعد على فراشي ، ومسح جبينه ، وكانت في عينيه آثار التعب العظيم والاضطراب المتناهي . ثم قال :

ـ لقد طهرنا القرية . وشنقنا الشاويش محمداً في الموضع الذي دفنا فيه جنودنا الثلاثة !

قلت : ـ وكذبان ، وكذبان ؟

اجاب : ـ لست أدري يابيامي ! انها ـ مثل كل النساء الخضر العيون ـ سر من الاسرار . هي حورية جاءت من الظلام وذهبت الى الظلام

ثم قال : ـ أنظر اليّ يابيامي ! ان اعصابك قد تعبت . والجرح الذي

في ساعدك لم يبرأ بعد . واني مرسلك الى (اسكي شهر) ، ولكني أريد ان تقسم لي يميناً بشرفك

قلت : ـ أقسم على أي شيء يا احسان ؟

قال : ـ تقسم على أن لا تذكر لعائشة شيئاً مما جرى

قلت : ـ ولكن الرجل الذي يفعل فعلك يا احسان يود أن تسمع كل امرأة بخبره

قال : ـ هل تريد ان تقسم اليمين ؟

قلت : ـ أقسم لك يا احسان !

وحينئذ رأيت احساناً ـ الذي ينظر الى موته بلا اضطراب ، والذي يقتل الخونة دون ان تطرف عينه ـ قد وضع رأسه بين يديه وجعل ينتحب كالطفل

— ٩ —

بين فصلي التمثيل

ـ ٥ ديسمبر ، ١٩٢١ ـ

لقد حضر الطبيب اليوم ، ولبث عندي طويلا يحدثني . وقد تأكدت أنهم سيجرون لي في آخر هذا الاسبوع العملية في رأسي . واني أشعر في هذه الايام بفتور وضعف . وأظن ان الشيء الذي يقال له « أنا » عبارة عن الاشخاص المرسومة صورهم في دماغي ، وما لهم فيه من ذكريات . فاذا استنفدت كل ما في رأسي من ذكرياتهم فأكملت كتابتها في مذكراتي هذه فان رأسي سيفرغ حينئذ

لم يبق عندي ما أكتبه غير حوادث (سقارية) ؛ فهنالك الكارثة ، وبها يسدل الستار الاخير في الرواية

وقد أعدت نظري اليوم على مذكراتي ، فوجدت ان لديّ حوادث كثيرة يمكن ايرادها بين ما ذكرته حتى الآن من حوادث « أيام الثورة » وبين ما سأذكره فيما بعد عن (سقارية) . ولكن لم يبق لي جلد على الاسهاب في بيان شيء غير الفصل التمثيلي الاخير ، وما عدا ذلك فاني أراه شبيهاً بالفترة بين فصلي التمثيل ؛ لذلك سأكتفي بدندنة بعض نغماته التي من أهمها رسائل كتبتها عائشة في ذلك الحين

أنا أنظر الآن في رواية حياتي فأجدها أشبه بالاوبرا منها بالقصة . لاننا قضينا هذه الحياة على مسرحها . ونحن واقفون على أقدامنا أو سائرون بلا انقطاع ، وقضيناها نتكلم ونصيح ، وقضيناها ونحن ننهض من هنا لنسقط هناك ثم لنموت . تلك هي الفترة بين الفصلين . . .

أنا هو ذلك الرجل الذي نزل من القطار الى محطة (اسكي شهر)

معصوب الساعد . أليس كذلك ؟ تُرى كم ذا أنا أفكر بأمور مضحكة ! فقد أخذت أفكر كيف ستنظر ابنة خالتي ذات العينين الخضراوين الى ساعدي الملفوف بالضماد . ثم تمنيت لو انني كنت أصبت بهذا الجرح في معركة ! وعزمت عند نزولي من القطار على أن أذهب الى ادارة الهلال الاحمر ، وقلت انها اذا لم تكن هناك فلا بد أن يكون لديهم علم عنها

وكان الجند النظامي يجتاز الشارع ساعة خروجي من المحطة فمنعني من المسير ، وان الغبار الذي كان يثيره الهواء الحارّ قد حجب عني هذا الخط البشري الطويل المتحرك ، بل حجب عني المباني التي أمامي . ولما أمعنت النظر الى الجنود رأيتهم في ريعان الشباب طوال القامات ، تتقدمهم الطبول والمزامير . وأذكر أنني لما كنت طفلاً كنت أهرع الى باب منزلنا في شيشلي اذا علمت بمرور الجند وهو ذاهب الى الاحتفال ، فأجد في نفسي شعوراً غريباً عند رؤيته . فاما وقفت الآن أنظر الى جندنا الجديد في (اسكي شهر) ثارت في نفسي تلك المشاعر القديمة التي كنت أشعر بها زمن الطفولة .

ولمحت عائشة واقفة على باب المستشفى لابسة ثوبها الابيض وعلى رأسها غطاء اسود ، وهي منصرفة بنظرها الى الجند فلا ترى شيئاً غيرهم . فدنوت منها وقلت لها :

ـ لقد جئتُ ياعائشة !

قالت : ـ أهذا أنت يابيامي ؟ أنظر لقد كثر المجاهدون في سبيل ازمير . وقد صار لنا جند أيضاً . ولكن ماذا جرى لساعدك ؟ أين جرحت ؟

وكانت تنظر اليّ بقلق واعجاب . وأردت أن أحدثها بأمور مدهشة ، لكنني ظللت بارداً كما كنت من قبل ، وقلت :

ـ أصبت برصاصة شاردة فاخترقت اللحم فقط . ولم نعتن بالجرح كما يجب فازداد شدة . وقد جئت الى هنا مستشفياً . وسأذهب بعد ذلك الى دار التعليم في (انقرة) . وأين هو جمال ؟

أجابت : ـ هو هنا . واننا نتناول العشاء في مطعم (طادية) لنجتمع معاً . فكن أنت أيضاً معنا . أما الآن فتعال ندخل . وماذا يصنع احسان يا ترى ؟

قلت : ـ انه يقمع الثورة

قالت : ـ يالاحسان هـذا من ولد غريب ! وهل تلقيتم خبراً عن تلك الصغيرة كذبان ، ترى ماذا جرى لهذه البنت البائسة ؟

فأحرجني سؤالها ، لأني لا أستطيع أن أصدقها الخبر ، ولم أتمكن من الكذب ، فسكت كمن عنده أخبار سوء يحاول كتمانها . وامتعض وجه عائشة بعد أن كان ساكناً . فقلت في نفسي : لماذا تتزلزل عائشة بهذا القدار للامور التي لها علاقة بقلب احسان ؟

واجتمعنا في المساء حول مائدة وضعت لنا في احدى زوايا مطعم (طادية) ، فحياني جمال بتحية الود الصميم التي ألفتها منه قبلا ، وهزّ يدي عند المصافحة تلك الهزة التي يكاد ينتزع بها ذراعي ، وقبل وجنتيّ قبلات الاخاء الصادق . ولكني لاحظت ونحن نتحدث على الطعام بصوت خافت أن على عينيه شيئاً من غشاوة الألم ، وأن نفسه مثقلة بالهموم . ثم علمت ان خيانة حدثت خلال الثورة حول ازمير عند ما كانت اليونان تحتل تلك الجهات ، وان الاهالي بادروا الى الاستسلام لليونانيين الذين قبضوا على جمال واخوانه وسجنوهم ، ثم شرعوا يستدعونهم من السجن واحداً بعد واحد ويعدمونهم رمياً بالرصاص . أما جمال فانه استطاع ان يفرّ من السجن برشوة باهظة أعطاها للسجانين وجاء الى هنا بمهارة عجيبة

[ولكن الدفاع عن الانضول كان يومئـذ ينتقل من ايدي العصابات الثورية الى يد الجيش النظامي الحديث النشأة . وقد تقدمت الاشارة الى أن ضباط الجيش النظامي وجنوده يرون عصابات الثورة عدوّاً لهم كاليونانيين ، ويعيبونهم بالفوضى وعدم الارتباط وبالتمرد والفساد . فلما نما العنصر النظامي وصارت له في كيان الدفاع القومي قوة لايستهان بها انتقل أمر الدفاع من طور

الى طور ، وأخـذ النظاميون يعملون على استئصال العصابات ورجالها ، ويسعون للتخلص منها]

وكان جمال من الرجال الذين جاهدوا بكل مالهم من قوة ويقين في الفترة التي بين الدورين ، وضحوا نفوسهم في سبيل تحقيق هذا الدور الجديد . لـكنه هو وكل اخوانه كانوا في خوف عظيم من أن تكفَّ أيديهم عن العمل ويحرموا من الانخراط في سلك جيش الاستقلال الذي كان على أهبة الاشتباك بحرب مع الجيش اليوناني . أما عائشة فكانت في ذلك الحين تمثل دورها النسوي نحو جميع ضباط الثورة الذين كانوا على شيء من القلق وانكسار القلب . فهي ترى أن الجيش من الثورة وأن الثورة من الجيش ، فكلا العنصرين متلازمان ومتداخلان بحيث لا يمكن التفريق بينهما . أما الاختلاف الموجود الآن بينهما فهو اختلاف مؤقت بين الاخوان ومتى سمع الجميع صوت البوق أسرعوا الى سلاحهم وهرعوا الى أداء الواجب . وقالت لاخيها جمال :

ـ وأنت فاذهب الى القائد . فقد جاءنا في الامس ، وفتش المستشفى . فرأيت له وجهاً يدل على الرجولية والطيبة ، وهو مدرك موقفكم تمام الادراك . فاذهب اليه واذكر له حالتك بكل صراحة . وتأكد ياجمـال انكم ستدافعون جميعاً عن بلادكم جنباً الى جنب

وفي النهاية عاد النشاط والسرور الينا جميعاً ونحن حول حلويات مطعم (مدام طادية) . وفيما نحن في ذلك سمعنا صوت مهماز ضابط قادم علينا من الخارج . وفتح الباب فدخل حشمت بك وفي يده سوطه ، ولا يزال رأسه العسكري كما كنت أعهده من قبل غير أن شعر صدغيه ازداد شيباً ، وصار وجهه بلون النحاس . فقبل يد عائشة ، ووضع يده على كتف جمال تطييباً لقلبه ، واشترك معنا في تناول الحلويات وشرب القهوة ، ومازحني قليلاً بشأن الجرح الذي في ساعدي . وكان منبسط النفس جداً ، وتبين لي انه كان شديد الصداقة لهذين الاخوين . ولماذا كراه في ذهاب جمال الى القائد وتقديم نفسه

للعمل في الجيش قال انه ساع في هذا الامر . وخرجنا معاً من المطعم فأوصلنا عائشة الى المستشفى ثم عدنا من ذلك الطريق الطويل الذي استأنست به وأنا أمشي فيه بين هذين الجنديين

وكانت حياتي بعد ذلك كالمسرح في فترة سكوت الموسيقى . لأني كنت اتردّد من ديوان الى ديوان . ثم عينت موظفاً في وزارة الدفاع القومي في (انقرة) ؛ فكنت اقضي الايام متنقلا من منضدة الى منضدة ومن موضع الى موضع ؛ ولم يكن لي عمل غير الاوراق الرسمية . وكانت عائشة قليلة الكتابة اليَّ . لكني علمت أن جمالا صار قائد ألاي ! وحشمت بك قائد فرقة ! أما عائشة فلا تزال في (اسكي شهر) يدعونها « الاخت عائشة » فقط . واحسان أيضاً صار قائد ألاي

لقد كان يومئذ بيني وبين الحياة الحقيقية حجاب كثيف . وكان هؤلاء الاشخاص من وراء هذا الحجاب ! فماذا تصنع هنالك يا ترى تلك العينان الخضراوان اللتان كانتا مركز الحياة الوحيد وعامل الحياة الوحيد ؟ لقد انقضى الصيف وجاء الشتاء وأنا بعيد عن كل ذلك

وحدثت في خلال تلك المدة معركة (اين اوني) الاولى . فندبتني ادارة الدفاع القومي لاداء مهمة في (اينه بولي) ؛ وبقيت في السواحل مدة بوظيفة الاستخبارات . ولكن أي أهمية للعمل الذي مداره تقليب الصحف وتسويد الاوراق ! ولما عدت من السواحل الى (انقرة) لم أنتبه لشيء من محاسن الاناضول وبدائعه الجليلة ، لان قلبي كان مشغولا بأولئك الذين احتجبوا وراء الستار القائم امامي ! ولما كانوا يمثلون رواية (اين اوني) الثانية كنت قد رجعت من رحلتي . فعلمت ان احساناً وجمالاً حضرا الى انقرة وعادا منها . وكان ما تكتبه عائشة اليّ من الرسائل في هذه الحقبة بلا روح : فهل كانت مثلي خالية القلب يا ترى ؟ ومع ذلك فانها كتبت لي حوالي معركة (اين اوني) الثانية رسالتين عن مسرح (التجربة) التي كان يقوم بها يومئذ ممثلو رواية الاستقلال .

ان هاتين الرسالتين كانتا أشبه بالخروق التي توجد على ستار المسرح لينظر منها الممثلون الى وجوه المتفرّجين ؛ فمن هذه الخروق كنت أنا أحاول أن أرى ما يجري وراء الستار . . .

من رسائل عائشة

عن اسكي شهر

لقد وقعت وقعة (اين اوني) الثانية وانقضت ، وأنا لا أحصل منك على خبر رغم طول العهد . وقد قيل لي انك في رحلة . أما أنا فقد اعتراني بعد معركة (اين اوني) الاولى شيء من التعب المادّي والمعنوي ؛ فلما وقعت الوقعة الثانية كانت شفاء لاتعابي وأوصابي

انك كنت بيننا قبيل وقعة (اين اوني) الاولى . وقد كانت هذه المعركة أول حرب نظامية خاضتها بلاد الانضول في سبيل ازمير . وخيل اليّ أن جيشنا كان فيها كأنه فتى من أبناء المصارعين قد شبّ عن الطوق ، وجال لأول مرة في صراع ففاز فيه

ولم يكن مستشفانا اثناء تلك المعركة جراحيا ، فلما خضنا معركة (اين أوني) الثانية استكمل المستشفى نواقصه ، وأُعدّت فيه معدّات الجراحة ، وصار يأتي اليه المجروحون بجروح خطرة

وان معركة (اين أوني) الثانية قد جعلتني على صلة بعدد كبير من الجنود . واذا خضنا معركة أخرى مع اليونانيين فسأحاول الذهاب مع الجيش في مستشفى سيار

حقاً ان للجند النظامي قوة متواضعة لا تعلن عن نفسها بالصخب والصياح والتظاهر . وقد صرنا الآن لا نشم ما كنا نشمه في معسكرات القوات الثورية من رائحة البارود والخمر ، ولا نسمع ما كنا نسمعه من بذاءة وشتائم . . . آه . الآن عدت الى تذكر المسكين أحمد رفقي !

انني أمضي أكثر اوقات عملي في غرفة العمليات . ومع ذلك فانهم جعلوا احدى غرف الجرحى من الجنود تحت نظارتي . فكلما أعدّت ادارة المستشفى سرراً جديدة يضطرب قلبي وأقول : ترى من هم الذين سيأتون أيضاً ؟ وبالجملة فان مستشفانا أصبح مثل بيت العرس . ونفوس الاطباء متهيجة كنفسي . . . والاستعداد عندنا على قدم وساق . . .

وددت لو أنك رأيت (اسكي شهر) عند ما وصلت اليها القافلة الاولى من المجروحين . فالمحطة كانت في مثل ازدحام يوم الحشر . ولما ابصرنا الرجال المحمولين على المحفات خيل الينا أنهم من أبناء عالم آخر ، ولكن هؤلاء الجنود الجرحى لم يكونوا يبالون بشيء من اهتمام الناس بهم . فهم كالاطفال الذين لا يفكرون بأنفسهم . وكان الذين وصلوا الينا اولاً من جرحى الخطوط الخلفية ، فأدخلناهم بمحفاتهم الى غرفة الشاي . ولكن لم يكن أحد منهم يرغب في شرب الشاي ، وأمسكوا بأيديهم الاواني فلا يدرون أين يضعونها

وكان واحد منهم كبير الرأس أسمر اللون يشكو ألم فخذه الملفوف بالضماد ، فنادى الممرض طالباً اليه أن يساعده على مدّ ساقه . وكان الجندي الممرض رجلاً رحيماً ، وان الحرب والجروح قد أثارت في نفسه عاطفتي الشفقة والغبطة معاً ، شأن الجندي التركي ! ففتح ذراعيه كالمرأة ، واعتنق الجندي الجريح ، وساعده على التمدُّد براحة ، وسأله :

ـ أين جرحت أيها الاخ ؟

أجاب : ـ رفسني بغل ، فكسر رجلي

وفي المستشفى شاويش أسمر مجروح في رجله وبطنه ، وان له رأس أسد . وهو راقد في الغرفة المجاورة لغرفة العمليات ، وان نظري يقع عليه كلما دخلت أو خرجت . وهو لا يفتأ يطلب ماء . ومن دأبه أن يقول « آه ، ليتني لا أموت » . فقلت في نفسي لا بد أن هنالك سبباً يحبب الحياة اليه ، فصرت آتيه بالماء . وكلما رفعت رأسه لاسقيه يقول « خديجتي ، خديجتي ! »

وفي مساء وصول الجرحى كان كل منهم مشغولاً بنفسه ، ولكنهم أصبحوا في اليوم التالي نشيطين

وفي اليوم الثاني وصل جرحى الصفوف الامامية ، وكانت جروحهم بليغة . فغصت بمحفاتهم رحبات المستشفى من بابه الى غرفتي التضميد والعمليات ، حتى لايستطيع أحد المرور ، وحتى امتلأت بهم حديقة المستشفى أيضاً . وكثيرون منهم كانوا ينهضون من محفاتهم فيأتون الينا يتعرجون بمشيتهم حاملين سواعد مكسورة أو أرجلا مجروحة . أما الجرحى من الضباط فلم تكن تبدو من أحدهم شكوى ، وكانت وجوههم التي هي عنوان الشجاعة والوقار ملطخة بالدم والوحل والبارود ! وكلهم يدخنون السجاير

أما الجنود فانهم فريقان : أحدهما يتدلل كالاطفال . ويريد أن يكون جميع مستخدمي المستشفى مشغولين به ، واذا كان أحدهم قد قتل له رفيق أو ضابط يرفع صوته بالبكاء عليه . والفريق الثاني من الجنود الجرحى كانوا أشبه بجلاميد الصخور ، وان لهم صدوراً مفتوحة ، ووجوهاً تتراءى مثل لوحة المصور ، بما تمثله من قوة وجلادة وهي تحت تلك القلانس ذات الهلال والنجم الملطخة بالدماء . وانك لا تكاد ترى أثراً للتغير والتأثر في وجوههم ، حتى ان لعيونهم نظرات ثابتة هادئة

ولما صار المساء انتهينا من العمليات ، فذهبتُ الى الغرفة الكبرى ، وحاولت أن أعقد روابط الصداقة مع الجنود ، وكان أكثرهم برتبة شاويش . والشاويشية هي العنصر القوي المهيب في جيشنا ! وان الواحد منهم لا يعرف الشكوى ، ويجمع الى النظافة والتربية غروراً لاحدّ له . ولا يتنزل الى مخاطبة الجندي أو الممرّض . واذا سمع جنديا الى جانبه يشكو من ألم جرحه قال له بصوت رزين ووجه غير متبسم :

ـ اسكت أيها الغلام ، فان مثل هذه الثرثرة مما لا يليق بالجندي

واذا أنا دخلت الى غرفتهم يتحركون ليستقيموا في سررهم ويسألونني بلهفة :

ـ هل من خبر عن الحرب أيتها الاخت السيدة ؟

واذا مرت كتائب الجند من أمام المستشفى يهرع الى النافذة كل من يستطيع السير من هؤلاء الجرحى . وفي هذا الصباح رأيت جنديين يسيران أمام احدى الكتائب فامتلكا قلبي . ومعلوم أن الضباط يختارون الجنود التي تسير في أول الكتيبة من طوال القامات وجميلي الطلعة وأقوياء البنية . وكان أحد هذين الجنديين مقدونياً اشقر طويلاً صليب الوجه . ولما أرادت الكتيبة أن تنشد نشيداً كان هو البادىء به وسائر الكتيبة تبع له . فاختار لهم نشيد :

« هيابنا الى الأمام ، ولنقتحمْ مقدونية »

ومن يدري أي شطر من قلب هذا الجندي دفنه في ربوع مقدونية . وأما الجندي الثاني فكان فتى انضولياً ، وكان له وجه كلوحة المصوّر ، وقد بلغ من طوله أن قلنسوته البنية اللون ذات الهلال والنجم كانت أعلى من رءوس جنود الكتيبة بنحو شبر ، وان له عينين أوسع حدقة من الهلال الذي على قلنسوته وأشدّ منه بريقاً ، وهما بلون الكستناء ، وفيهما من الجمال مالا يتخيله الانسان الاّ في رواية يقرأها أو في تمثيل يشاهده . وان ساعده ذا العضلات القوية قد التفَّ حول عصا الراية الحمراء التي يحملها وهو ينشد :

رايةَ العز دومي ، نحن أهلوكِ
نهزم الاعدا ، وبالأرواح نفديك

فينشد معه جرحى المستشفى ما في هذا المعنى من سائر أبيات النشيد . وكنت أشعر ساعتئذ بحب هذه الراية مالئاً قلبي ، ومحيطاً بي من كل أطرافي ، فتجيش نفسي بهذا الحب ثم يفيض من عيني بدموع حارة كدموع الاطفال

وكان على مقربة مني شاويش لم يشترك مع اخوانه بانشاد « نشيد الراية »

فلما التفتُ لا علم سبب سكوته رأيته جالساً يبكي بكاء مراً • فقلت له :

ـ مالك ياشاويش حسين ؟

أجاب : ـ لقد أذكرني نشيد الراية فتى من أبناء (بروصة) كان حامل راية كتيبتنا ، وكانت له قامة كشجرة الصنوبر • وبينما نحن نقاتل عند اكمة (متريس) كان واقفاً بجانبي ، فسقط قتيلا كما تسقط الشجرة على الارض

لابد أنك علمت بأن احساناً جرح ، وأني كنت أمرّضـه • وان مدام (طادية) أيضاً تعنى به الآن . وحالته قد تحسنت كثيراً

وأخذت كتاباً من جمال • وان حشمت بك قدشفي من جرحه • ولم نفقد من الذين كانوا معنا في الاستانة غير (سيفي) ، وان زوجته الفتاة تكتب الي رسائل تسألني عنه فلست أدري بماذا أجيبها . لا تقطع عني رسائلك

عائشة

ولما قرأت كتاب عائشة استغربت مافيه من اقتضاب القول عن احسان وتساءلت : هل هو هين عليها الى هذا الحد ؟ ثم انها لم تذكر شيئاً عن حشمت بك الذي كان جريحاً أيضاً ، هذا بينما هي تملأ كتابها بالكلام عن الجنود والشاويشية ، فهل حياة هذين القائدين كانت في نظرها أقل اهمية من الجنود ؟

ثم قرأت كتابها الثاني الذي كتبته اليّ أثناء حرب كوتاهية فزادني استغراباً ، وكدت أعتقد أن رأس عائشة وقلبها لم يبق فيهما محل لشيء غير ازمير . فقد قالت لي في رسالة قصيرة :

لقد ذهبت الى انقرة فلبثت فيها ليلتين ثم عدت منها . وكان جمال حينئذ هناك . وقيل لي انك مسافر . ولما عدت التقيت باحسان فعلمت أن انقرة لاتمته ، وأن له فيها اقارب لم يذكرهم لنا قط . وهم من أعظم بواعث السرور . فان احساناً الساكن الداكت قد اكتسب بهم صحة وسروراً . ومن ثم ذهب الى الفيلق رأساً

والظاهر أني أصبت بالحمى في انقرة . فلبثت أشعر بحرارة وفتور . لـكني

تجلدت الى أن شفي حشمت بك . فلما أركبناه في القطار وسافر رقدت في سريري بضعة أيام . وان جمالا في ألايات الفرسان التي في المناطق الجنوبية . وأنا أصحّ تارة وأمرض تارة . وان مدام (طادية) تعنى بأمري

تلوح لنا الآن في خط الافق علائم معارك يحتمل أن تنشب ؛ فاذا هي نشبت فاني سأسارع الى العمل ؛ كما ينتفخ جواد القائد اذا سمع صوت بوق الهجوم

كلما مرّ الجند من أمام المستشفى تطلّ مدام طادية من النافذة ؛ وتمسح دموعها بثوبها وتقول « كم من أم ستريق دموعها بعد . آه ما أجملهم جميعاً ؛ ولماذا لهم كل هذا الجمال ؛ وكيف صار لهم كل هذا الجمال ! »

عائشة

وآخر كتاب جاءني منها صادر من (بولادلي) وهي تقول فيه :

« ان حرب كوتاهية قد حملتنا كثيراً من المتاعب والاوصاب . ولكن لا تخف فاني غير يائسة

لقد نشب القتال بعد أن كتبت لك كتابي الاخير . وكنت لا أزال راقدة في سريري من ألم الحمى . وكان الهواء ثقيلا ؛ وزاده ثقلا ما اشعر به من ألم الانتظار المزعج ؛ فجعل قلبي يتقطع أسىً على ما أنا فيه من عجز عن النهوض . وكانت حرارة جسمي شديدة . . . الى درجة جعلتني أهجس بأني لا أزال أباشر التمريض ؛ فيخيل الي أنني أطلع وأنزل على سلم المستشفى ؛ وأني قائمة على رءوس الاطباء وهم في غرفة العمليات يبترون أذرعاً وأفخاذاً ويفتحون رءوساً وصدوراً وبطوناً يخرجون منها شظايا الرصاص . وتطرق اذنيّ أوامرهم وطلباتهم بكلمات « هاتي قطناً أيتها الأخت عائشة ؛ هاتي بنجا أيتها الأخت عائشة ؛ أنزلي رأس الجريح قليلاً أيتهاالاخت عائشة ! »وكنت أحسب أن الجيش كله جريح وأنه دخل المستشفى فر من تحت يدي . وتصورت في ذهني عدداً كبيراً من الضباط الحديثي السن قد عريت صدورهم ؛ وتلطخت

بالدماء المسفوكة من جروحهم ، وتقلصت وجوههم لشدة ماعانوا من الآلام ، فكنا نمدّد اجسامهم الطويلة ونعمل بها المباضع قطعا وبترا . وكم من جنود ذوي اجسام قوية كأنها جذوع أشجار البلوط التي لا تحركها العواصف كنت كأني أسمعهم يئنون تحت مباضع الاطباء

أنت تتذكر يابيامي أنكم اذا غضبتم في الاستانة من الخادم الانضولي ـ ولا سيما اذا كان جندياً ـ تشتمونه بقولكم له « ياحطب البلوط ! » . وقد اكتشفتُ بين هواجس التمريض التي كنت أهجس بها وأنا مصابة بالحمى أن هذه الكلمة التي تريدون بها احتقار هؤلاء الانضوليين تدل أصدق دلالة على صلابتهم ورصانتهم لا بالاجسام فقط بل بالاعصاب والارواح أيضاً . واني أرى الجيش الانضولي أشبه شيء بالغابة العظيمة والكثيفة من أشجار البلوط التي لا تنحني ولا تنثني

أما جماعتنا أبناء ازمير فهم على خلاف ما وصفت به أبناء شرق الانُضول وأواسطه . فاني أرى الازميريين بما لهم من وجوه سمراء وعيون زرقاء واجسام رقيقة نشيطة يشبهون شجر الصنوبر الذي ترنحه ريح الصبا . وأما الاستنبوليون فانهم أنصع بياضاً وأجمل اجساماً ، وهم نموذج الخلقة المرتقية . واذا جمعنا الى صلابة شجر البلوط جمال شجر الصنوبر ولينه ، وحصلنا من ذلك على شجر اكتملت فيه المزيتان ، فاني أسميه الشجر الاستنبولي . فالرجل الاستنبولي صليب كالانضولي ، ورشيق كالازميري . وفوق ما ذكرته من الصفات فان هذا المخلوق الذي هو فوق الطبيعة قد اكتسب من الاستانة البيضاء ـ التي هي رؤيا الروح التركية المؤلفة من ألف لون ولون ـ كلّ ما لها من جمال وقبح !

ثم أدّى بي هذا الخيال الى تصوّر جيشنا بصورة غابة عظيمة من شجر البلوط ، وفي بعض أطرافها شجرات من الصنوبر والسرو متفرّقة هنا وهناك (١) . ولهذه الغابة ظل ابديّ ظليل ، وجذوع لا تتزلزل ، وفروع

(١) تريد بشجرات الصنوبر والسرو النساء المرافقات للجيش

نبتت عليها الآمال ، وحفت بها المتاعب والاخطار ! وكأن هذه الدنيا الواسعة تعمل فئوسها في أشجار هـذه الغابة فتقطع الاشجار الكبيرة ، ولكن ما تساقط من بذورها في التراب قد عاد فتحول الى غابة أنضر عوداً وأكثر عديداً . وعلمت بعد ذلك أنني كنت أهذي بصوت مرتفع قائلة « ان الغابة الجديدة ستدخل ازمير ! »

وفي ذات مساء رأيت فيما يرى النائم كأن عساكر اليونان يهجمون على فندق مدام طادية ، وهم سكارى ، قد التصقت شعورهم السوداء القذرة بأصداغهم ، وأحاطت الدماء بأعينهم ، وهم يصيحون ويعزفون على صندوق الموسيقى . واستيقظت من نومي على صوت القنابل والقذائف المنفجرة تهتز بها جدران الفندق اهتزازاً ، فقفزت من سريري ، وأسرعت الى السلم ، فرأيت هذه المرأة العجوز المسكينة صاعدة الينا وهي تسقط وتقوم ، وعلمت منها أن طيارات العدو هاجمتنا ، وان ادارة المستشفى نقلت بعض المرضى ، وقد تقرر الجلاء عن هذه المدينة ، وطلبت الي أن أساعدها . أما أنا فلبست ملابسي وذهبت الى المستشفى ، فرأيت المحطة في طريقي قد انيرت مصابيحها الكهربائية ، وجنود النقليات سائرون الى جانب البغال ومع العربات التي تجرها الثيران وهم مطرقون رءوسهم وذاهبون بسكينة وبلا انقطاع . وكان القمر بدراً ينير دياجير الليل بأشعته الفضية . فكنت أصادف في طريقي كتائب الجند يمشون مثيرين التراب بأقدامهم . ومع أن ظواهر الحال لم تكن تدل على الارتباك أو الاستعداد للجلاء فاني كنت شاعرة في قلبي بأننا رجعنا خطوة الى الوراء في طريق ازمير . ولعل جنود هذه الكتائب شاعرون بما شعرت أنا به ، ولذلك أرى السكينة مخيمة على هذه البلوطات التي يجوز أن تكسر ويمكن أن تحرق ولكن ليس في الاستطاعة ان تلين صلابتها وينحني عودها . فأيقنت أننا مهما تقدمنا أو تأخرنا في طريق ازمير فاننا سنقاتل فيه حتى نبلغ تلك المدينة على كل حال

ولما دخلت المستشفى رأيت ساحته الحجرية مملوءة بمحفات المرضى والجرحى ، ومصابيح الكهرباء تملأ الفضاء نوراً ، والبلوطات العزيزة راقدة في المحفات بأثوابها الخاكية وقلانسها ذات الهلال والنجم ، وبعضهم ليس في اكمام معاطفهم سواعد ، وبعضهم منكفئون على وجوههم وقد مزّقت شظايا القنابل لحومهم الضخمة فأسدل عليهم رجال المستشفى البطانيات . . . وجاء الممرّضون بمحفتين فادخلوهما من باب الحديقة ، وكان عليهما قطع من ملابس بيضاء وقطع من القماش الخاكي وقطع من اللحم ، وكل ذلك مبتل برطوبة حمراء ، وسمعت من بين هذه القطع اللحمية انيناً مختنقاً لا يشبه صوت البشر . وكان في ساحة المستشفى الحجرية سكون عميق ، وتلوح أمارات الانزعاج المعنوي الشديد في العيون الشاخصة المركوزة في تلك الرءوس السمراء المظلمة ، بما يدل على ان لهؤلاء الجرحى آلاماً أشد من آلام جروحهم !

وقابلت الطبيب على سلم المستشفى ، فرأيت ثوبه وقلنسوته الابيضين ملطخين بالدم ، والعرق يتصبب من جبينه . فلما رآني قال لي :

ــ لقد حضرتِ في الوقت المناسب . أيتها الاخت عائشة . فأسرعي الى فوق ، فاني بحاجة شديدة اليك

فصعدت أتسلق درجات السلم درجة درجة ، محاولة أن أمنع نفسي من الاغماء ، وأن لا أدع الضعف يتغلب علي . وقلت : ألست أنا أيضاً شجرة في غابة البلوط ؟ فيجب علي أن أكون رصينة كسائر أشجار الغابة فلا ألتوي ولا أقع مغلوبة

وبينما أنا في غرفة العمليات فارق الحياة اثنان من الجرحى عند ما استنشقا البنج ، وكان كل منهما جندياً كأنه الاسد . فأغمضت عيونهما بيدي ، وأمسكت أيديهما الضخمة السمراء وكانت باردة فقلت لهما : « أستودعكما الله أيها المواطنان ، وسنلتقي معاً في طريق ازمير » . وجيء بعدهما بجندي من

المدفعية ، وكان الشطر الأعلى من وجهه أسود متعفناً ، ورأسه ملفوف بعصابة بيضاء ، ورجلاه تضطربان ، وهو ينادي كالطفل قائلا :

ـ بالله عليكم خبروني ، لماذا تركتموني تحت القناة ؟ ان رأسي يحترق ، فماذا اعتراني ؟ ولماذا دفعتموني الى تحت القناة ؟

وكان هذا الجندي ـ الذي استلقى على منضدة العمليات الجراحية كأنه سلطان شجر البلوط ـ هو آخر جندي جيء به الى هذه الغرفة . ثم بدأت عمليات الضباط ، فبتر الطبيب ساعدين من سواعدهم كما يقطع غصن الشجرة . وكان للضباط شعور ادق وحزن أعمق

ولما وضع أحد الجنود في سريره أومأ اليّ يدعوني بطرفه ، وعند ما جئته أشار اليّ بأن انحني لادنو منه . ثم جعل يحرك شفتيه محاولا أن يسمعني صوته فلا يستطيع ، ثم صار يجهد عينيه بألم وعناء ليفهمني شيئاً فلا يحير نطقاً . وفهمت أنه متألم من عجزه فجعلت أوهمه أنني فاهمة ما يريد ، وقربت أذني من فمه مبتسمة له ابتسامة الشفقة والرحمة دون أن أتمكن من حبس دموعي . وقرت بذلك عيناه قليلاً . ومن ثم قلت له :

ـ أجل يا اخي ، سأفعل كل ما قلت لي

ولما سمع كلمتي أغمض عينيه في الحال ، ومات ! فلفت رأسي نحو الطبيب فرأيت عينيه تدمعان ، ثم سمعنا جندياً له مثل وجه الصبي أخذ ينتحب فجأة وقال :

ـ ان هذا الفتى وحيد أمه ، وقد ائتمنتني عليه ونحن في الاستانة ، فماذا أقول لها اذا لقيتها ؟

وخرجت من غرفة العمليات فنزلت السلم على مهل . وكان بي من الضعف ما لا يحسب الاغماء شيئاً في جانبه . فرأيت الممرضين بقمصانهم البيضاء يطعمون الاقوياء من الجرحى طعامهم ، وان لهم رقة وعطفاً كما للنساء واكثر ! فالتحقت بهم وصرت أناول الجرحى الارز بالملعقة كالام التي تغذي

أطفالها . وكان أحدهم منبطحاً على وجهه ، فلما أردت أن أحركه نظر الي بعينين شهلاوين لا أستطيع وصف سعتهما وقال :

ـ ان كتفي الايسر مكسور أيتها الاخت ، فانا لا استطيع أن أتحرك

ثم أخذنا نتحاور بسكينة وهدوء ، فقلت له :

ـ من أي البلاد أنت ، وهل تجندت حديثاً ؟

أجاب : ـ أنا جندي من ثمانية أعوام ، ونحن ممن حارب في الدردنيل

ثم علمت منه أنه من (سيواس) وأن له بنتاً اسمها (كوثر) ، وأن حبه لها يزيد على محبته لسائر اولاده الثلاثة . وكان جسمه أشبه بالبناء المتهدّم ، فكلما تكلم ازددت اشفاقاً عليه وتألماً له . ولكنه لم يكن يسكت الاّ ليعود فيستأنف حديثه . وهو يقول ان الآنسة كوثر ذات رقة وجمال كأنها فتاة استنبولية . واذا هو عاد الى وطنه فسيعلمها القراءة . فاستنتجت من أقواله أنه بالرغم مما هو فيه من عذاب ومحنة فان قابلية الحياة لم ينطفيء في نفسه نورها . ثم قال :

ـ أيتها الاخت السيدة العزيزة ، دعيهم ينقلوني الى مستشفى فيه ناس من مواطنيّ ، فاني اذا نظرت الى من أعرفهم يكون ذلك أدعى الى شفائي بسرعة

فأخرجت من جيبي دفتراً صغيراً وكتبت فيه اسمه واسم بلده ، فلاحت في عينيه مسرة الاطفال . ولما نهضت من عنده ناداني جريح آخر كان على مقربة منه وقال « اكتبيني أنا أيضاً » . ولم يكن يدري ماذا كتبت وانما ظن أن هنالك ميزة سيمتاز صاحبه بها فأراد أن يكون له نصيب منها . وجعل الجرحى كلهم ينادونني اليهم واحداً بعد واحد فيتحدّثون معي بصوت خافت ، يروّحون بهذا الحديث نفوسهم وأستعيض أنا به من ضعفي قوة

وفيما نحن كذلك حدث في المستشفى أمر خطير . فقد قفز الينا من الغرفة المجاورة لنا جندي جريح من أهل أنقرة معصوب الرأس يلبس قميصاً ولباساً

أبيضين ، وقد ألهبت الحمى دماغه ، وأفقدته صوابه ، فجعل ينادي ويقول لي :

ـ أرسلوني الى انقرة . دعيني أقبل قدمك ، قولي للطبيب يرسلني الى انقرة

وأحاط به جنود الصحة وذهبوا به بعد جهد ، وهو لا يبرح ينادي بما في رأسه من هذيان الحمى طالباً إرساله الى انقرة . وكانت له قوة يصارع بها ثمانية رجال . وخيل اليّ وهو يصيح أن لصيحاته صدىً في قلوب الجرحى ، فهم يئنون أنيناً لم تسمعه أذني ولكن أحسّ به قلبي

وأسرعت لأخرج من المستشفى ، فرأيت الخادمات الحديثات السن قد أسندن رءوسهن الى الحائط يبكين من هول ما رأين من مشاهد أثرت على أعصابهن . ثم جعلت أسحب نفسي ، فلما ابتعدت عن المستشفى قليلاً صرت أستند الى الجدار وأنا أسير حتى بلغت زاوية وقفت عندها ، ثم قعدت القرفصاء ووضعت رأسي بين يدي كأني عجوز أنضولية وجعلت أناجي ربي قائلة :

ـ الى متى هذه الآلام والمحن يا الهي ! هل لك عبيد في هذه الدنيا تحملهم كالذي تحملنا اياه من الاثقال ؟ أم أنك تحبنا فأردت أن تمتحننا بهذه المشقات والدموع التي لا نهاية لها ؟

اليوم شعرت للمرة الاولى بأن المحنة التي أتحملها في سبيل ازمير قد تجاوزت حدود طاقتي ، فطفحت بها نفسي ، ولفظتها شفتاي . ولست أدري كم ذا مضى عليّ وأنا في هذه الحال الى ان انتبهت على صوت لم تتغلب الآلام على ما فيه من شجاعة وحياة . وكان ذلك صوت حشمت بك يقول للطبيب :

ـ لعلها ذهبت الى فندق مدام طادية ، فاني ذاهب لألقاها هناك . فارجع أنت أيها الطبيب ولا تزعج نفسك ، واني أشكر لك عنايتك

فلما سمعت صوته نهضت واقفة وتوجهت نحوه . وحين رآني أمسك يدي الاثنتين وضغط عليهما وقال :

ـ كيف أنت أيتها الأخت عائشة ؟ اني مابرحت أبحث عنك منذ اليوم
فأسندت ظهري الى الحائط دون أن أقوى على الكلام . فعاد حشمت بك
الى مخاطبتي بشفقة وتوجع قائلا :

ـ ماذا أرى أيتها الاخت عائشة ، هل فقدت شجاعتك ؟ ان الذين أقسموا لك الأيمان على سيوفهم لم يموتوا بعد ، وانهم سوف يدخلون ازمير وتدخلينها أنت أيضاً ؛ ولكن ليس لك بعد الآن هلال أحمر أو غيره ، فالى خط النار مباشرة . . .

فامتلأ قلبي قوة وأنا وسط هذه الدماء والآلام ؛ وقلت له :

ـ هيا خذوني الى خط النار حالاً : أنا لا أصلح لاستعمال السلاح ، ولكني أضمد جراح السائرين في طريق ازمير وأخفف آلامهم ، واذا كانت لله مشيئه فاني أموت معهم

قال : ـ اذا وصلنا الى (بولادلي) نرسلك مع فيلقنا ؛ فاني التحقت مع فرقتي بالفيلق . وسيكون جمال أيضاً معنا

هنالك سكرت بخمرة شجاعة لا تقهر في معترك الحياة ؛ وجعلت أبكي كالطفل . وكان بكائي ناشئاً عن أمرين : أحدهما أنني علمت الآن بأن زنبرك نفسي الذي انثنى كثيراً حتى ظننته سينكسر انما كان قوياً الى هذا الحد . والسبب الثاني أنني تذكرت أحمد رفقي ؛ فتمثل لي واقفاً امامي وعلى صدره جرحه الاحمر كزهرة برية ؛ وعيناه الصافيتان ممتلئتان بضحكته العالية ، وكأنه يقول لي على عادته :

ـ هيابنا أيتها الأخت عائشة نقاتل هؤلاء اليونانيين السفلة

وفي النصف الثاني من الليل ركبت أنا والجرحى في عربة مكشوفة من القطار وأتينا الى (بولادلي) . وفي هذه العربة المكشوفة عدت الى أحاديث الصداقة التي بدأت بها مع الجنود الجرحى في ساحة المستشفى ، فكنا نتكلم بصوت خافت ولا نشبع من هذه الاحاديث

وكنت في الايام الاولى مشغولة البال على احسان ، فلما علمت من حشمت بك أنه في عافية وأنه في (سيد غازي) شعرت بمبلغ قلقي عليه . ولكنه لو كان في مكان حشمت بك لجعلني وراء الجيش لافي صفوفه الامامية ، وكان يعنى بأمري كانني طفل في السنة الثانية من عمره . واني أشعر بأنني لم اغتفر له حتى الآن اساءته الي بابعادي عن مواطن الخطر

وأنت يابيامي الى متى تسير في طريق ازمير ولاشغل لك غير الاوراق البالية؟

عائشة

— ١٠ —

أيام سقارية

ـ ٨ ديسمبر ، ١٩٢١ ـ

لقد تذكرت في صباح اليوم ماكان أيام وصول كتاب عائشة الاخير من انقطاع ساقيّ اللذين أرى الآن مكانهما فارغاً ، وكيف كان يرتجف قلبي ويداي في ذلك الحين ارتجافاً مزعجاً ، فكان لي من ترددّه اليوم بخاطري ذكرى لجسمي الممزّق . وان في جوفي حرقةً لا شفاء لها على أمل لا سبيل الى تحقيقه : فقد كنت أرجو أن تعلم عائشة بأني تركت ساقيّ في طريق ازمير ، فخاب رجائي ، وظلت تجهل ذلك الى الآن ؛ وتجهل أيضاً ما عقدتُ عليه عزيمتي من الاستمرار في هذا الطريق حتى لو لم تترك لي المدافع غير رأسي وساعديَّ

وقد بتُّ ليلة أمس أحلم الى الصباح باني أطوف مدافن (كوكجه بينار) باحثاً عن عائشة لاخبرها بخبري . لأن الذين أقسموا اليمين حول كرسيها صاروا الآن بين غازٍ وشهيد ؛ ولكل واحد منهم سيرة شعرية كتبت بماء الذهب في ملاحم البطولة . . . إلا أنا فان الدماء التي سألت مني في طريق ازمير بقيت في طي الكتمان مثل يميني

ويوم فرقت القنبلة بين ساقي وجسمي على ضفاف سقارية ، ووجدت نفسي مضطجعاً في عربة فارغة لم تكن معي عائشة فيها ، دنا مني حشمت بك وقال في اذني ممازحاً :

ـ دعني أدفن ساقيك في مدافن (كوكجه بينار)

فضحكت ضحكة تشف عن حرقة وألم ، وقلت :

ـ ان مثل هذه الامور الشعرية لا يلائم حياتي . وأي أهمية لساقي أو

لدماغي في جانب مالقيته في طريق ازمير من مخاوف ومحن ؟

ذلك ما قلتـه يومئذ . وأما الآن فاني أتمنى أن أقف على قبرها الغض اللطيف ، وأبوح لها بكل آلامي . وان في نفسي من الاسى ، وعلى جسمي من الالم ، ما أيقنت معه بان لامناص من فتح رأسي في آخر هذا الاسبوع ؛ وحينئذ يزول الاسى الذي في نفسي ، والالم الذي على جسمي . وعلى ذلك فان من الواجب عليّ أن أسارع الى ثورة الحياة التي كنت فيما مضى أتجرع سمها قطرة قطرة على انفراد ، فأرتشف الآن كأسها بجرعة سريعة آتي بها على آخرها ، ثم أغمض عيني مطمئناً ، وأستلقي على منضدة العمليّات الجراحية . وها أنا ذا الآن سائر لابلغ تلك الايام !

*

لما كان الجيش على هذه الضفة من سقارية كنت أنا بين أوراق مكتب الدفاع القومي . مندفعاً الى الامام بكل ما في طاقتي . ومتشوقاً الى أن أكون في جبهة الحرب ؛ ولكن لم يكن لي صديق من ذوي الكلمة النافذة أطلب وساطته في نقلي . ومهما تكن وظيفتي الحاضرة عسكرية في الظاهر فهي ليست كذلك في الحقيقة . وفيما أنا في أشد الايام ضيقاً مما أنا فيه ، وشوقاً الى الاشتراك في القتال . اذا برئيسي قد دعاني اليه ، وقال لي انه علم بأني أعرف اللغة اليونانية وأحسن صناعة التصوير الشمسي . فأجبته وأنا غير مكترث :

ــ اجل ، ان ذلك صحيح

قال : ــ ان مكتب الاستخبارات في جبهة الحرب الغربية في حاجة الى مترجم عن اليونانيه والى مصور . وبما انك تحسن الوظيفتين فبادر حالاً الى الاستعداد للسفر بالقطار الذي يقوم مساء الغد

فخرجت من مكتب الدفاع القومي وأنا سكران بخمرة السرور . وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي سار بي القطار من محطة (انقرة) ، وكان

معي في هذه الرحلة نائب ضابط وثلاثة من الضباط الموظفين ، وفي قطارنا ذخائر حربية . ولم أسافر في حياتي مع جنود أرصن ولا أكثر التزاماً للصمت من رفقائي في هذه الرحلة ، فقد كنت أقرأ على جبهة كل واحد منهم آية العزم ولمحة التصميم ، وأراهم موطنين النفس على مواصلة السير الى الامام حتى النهاية . وبلغنا المحطة الاخيرة مع الصبح ، وكان بينها وبين المعسكر مسيرة ساعتين

ومما لا أزال أذكره جيداً انهماك هذه الطائفة من البشر وهي في ملابسها الخاكية بانزال الدواب والذخائر من القطار تحت أنوار البدر البازغ . ولم يكن أحد من الجند ينبس ببنت شفة ، ولكن الخيل كانت تصهل وتعربد عند نزولها من القطار . وكان وراء بناء المحطة ثلاثة فرسان أحدهم ضابط قيل لي انه قائد فوج الهجوم في الفرقة رقم . . . فجعل يصدر من بين شفتيه أوامر متقطعة وجافية كأنها من جلاميد الصخر فتتحرك بألفاظه تلك الكتلة من البشر التي كانت متفرقة فيما يلي المحطة ، وكأني بها تتمرج وتلتئم حتى صارت بشكل هندسي ، ثم سمعت وقع حوافر جواده ، وتمزقت بعد ذلك طبقات الجوّ بكلمة « سِرْ » التي خرجت من بين شفتيه فامتلأ الفضاء على أثرها بوقع أقدام الجند ، ثم ما زال الصوت يخف الى أن اضمحل بابتعادهم . ووجدت لنفسي دابة أركبها مع الضباط الثلاثة ، فسرنا في جوف هذا النفر الاصفر طالبين الوصول من مجاهله الى المعسكر

ومن الضباط الذين معنا ملازم اسمه ذهني افندي موظف في المكتب الذي أنا ذاهب لأعمل فيه . وهو رجل ضعيف البنية ، لهجته مقدونية ، فيه نشاط ورجولية ، فاستأنست به واقتربت منه . ولم يكن أحد منهم يكثر من الكلام . وفيما نحن سائرون طرق آذاننا صوت حوافر خيل يحمله الينا الهواء من مكان بعيد ، وكان الهواء البارد يثير علينا غبار الارض . ولاحت لنا في الطريق غابة على شبه أكمة ، ولما قيل لي ان هنالك مستشفى سياراً

قفز قلبي الى فمي . . . وسألت الرفاق عن منازل الفياق رقم . . . فعلمت من جوابهم أن المستشفى الذي تعمل فيه عائشة بعيد منا جداً . ثم اقتربنا من شلال طاحون كان يبدو لنا زبده أبيض صافياً حتى كأن ماءه ينحدر من فضاء الى فضاء . فأجفلت منه خيلنا الى أن عبرناه وابتعدنا عنه

ومضت عليّ ساعتان أجول فيهما أنحاء المعسكر ، فكانت ارادتي كأنها مصابة بالفالج ، ونسيت أنني رجل ذو اسم خاص وشخصية معينة ، بل رأيتني قطرة في بحر هؤلاء البشر من لابسي الخاكي

وبعد أن قطعنا عدداً من السفوح والوديان وصلنا الى ثلمة بين الروابي التي صعدنا اليها في منحنيات سهلة ، فقيل لنا ان هذا الموضع مزرعة ذات بضعة منازل . وفيما نحن ننحدر من الرابية الى الثلمة رأينا على نور أبيض ضعيف خياماً وحراساً تتراءى أشباحها كأنها ذات الوان ثابتة بين أحمر وأسود . وأول صوت طرق آذاننا في هذه القرية الصغيرة وقع اقدام الجنود يسيرون باطراد وانتظام ، ونباح الكلاب التي كانت تهاجمنا !

ومررنا أمام منزل قروي ذي طبقتين له في وسطه شرفة ، وعلى بابه جنديان حارسان كأنهما في ثباتهما ووقارهما نموذج من جند الانكشارية ، وتخفق فوق رءوسهما راية مقرّ المعسكر وهي تتموج بلونها الاحمر

وكان مكتب دائرتنا بعد هذا المنزل بخطوات ، وهو في بناء خشبي بسيط . وان لي أنا وذهني افندي خيمة صغيرة ننام فيها . ولما وصلنا الى مكتبنا قيل لنا ان رئيسه الاول مشغول عند الباشا القائد . فوقفت أمام خيمتنا وجعلت أنظر الى هذه القرية المملوءة بالاسرار ، وقيل لي ان القائد العام في البناء القروي الذي أمامنا ، وكان هذا البناء ذا ارتفاع قليل . ونظرت اليه فرأيت نوراً أزرق يلمع في جوف نافذته ، واشباحاً منتصبة بقلانسها تجيء وتذهب . ووراء منزل القائد العام رابية صفراء عليها خيام مرصوفة بنظام هندسي وكأنها العوبة . وفي وسط هذه الخيام لا سلكيّ مرتفع يرى بأنوار

القمر كأنه ابرة طويلة

ذلك هو أول مركز تاريخي أديرت منه معارك سقارية !

وكنت أعلم أن هـذا الموضع مصدر انقلاب جديد في حياة القومية التركية ؛ فاذا انقضت معارك (سقارية) فان حياتنا ستدخل في طور آخر . لذلك ظلت هـذه القرية الصغيرة ـ التي كانت تدير حركات تلك الساحة العظمى ـ مرتسمةً في قلبي فضلاً عن ارتسامها في دماغي

ان هذه القرية المتواضعة ـ التي كانت تتراءى لمن يلقي عليها النظرة الأولى كأنها وجه كثير الغضون عميقها ـ قد أثرت على نفسي تأثيراً زلزلها ، فجعل أعلاها أسفلها . ومما تأثرت به نفسي أيضاً الاوامر الحربيـة والتقارير العسكرية التي كانت تنقل بآلات التلفون تحت تلك الخيام الصغيرة . فقد كان لـكلمات تلك الاوامر أثر في ذاكرتي كأثر الكيّ ، لأنها كانت أشبه بكلمات الحـكم التي كتبتها يد مجهولة بأحرف من نار في قصر (فالتاصر) ملك الاشوريين

ولم أسمع قط في حياتي كلمات لفظتها شفتا بشريّ أقوى ـ بعد كلمات عائشة ـ من كلمات :

ـ الى الخنادق في (قطرانجي) و (جالبا قلي) !

فان هاتين الـكلمتين ماكاد يتحرك بهما لسان القائد العام قبيل الهجوم الاعظم في (سقارية) حتى امتلأت بهما ضفاف ذلك الوادي ، وماجت بهما جوانبه . ولقد أحكم كل من الجيشين المتحاربين مواقفه تجاه خصمه ، كما يفعل البطلان عند تأهبهما للصراع . واني حفظت يومئذ في ذاكرتي كلمات كثيرة كانت تبلغ بالتلفون الى القيادة العليا وصفاً للموقف الحربي ، فاذا وقفت القيادة العليا على المغزى الذي يدل عليه مجموع هـذه البلاغات تصدر هي أمرها بما يجب عمله . فمن البلاغات التلفونية :

ـ تألف ألاي من فصائل المشاة والمدفعية القادمة من الجنوب

و ـ ان كتيبة تتقرّب من رابية (كذا)

و ـ ان قوةً تنتهج طريق (كذا) بأثقالها على مسافة كيلو متر واحد

و ـ ان فوجاً من المشاة يقصد جهة (كذا) على مسافة نصف كيلو متر

فلما استوفت القيادة العليا هذه البلاغات وأدركت مغزاها صدر حينئذ أمرها التلفوني ، وكأني بذلك الصوت المعدني القويّ يقول :

ـ الى خنادق (قطرانجي) ، الى خنادق (قطرانجي) !

فأومض جوف الخيام بشعلة حمراء خيل الي معها ان هـذه الاصوات المملوءة أسراراً تنطق بلسان تلك القذائف النارية ، فتتراءى ظلال الخيام بنورها معرجةً متعوجة ، ويسير حاملو الاوامر من الشاويشين والياورين في أشعة ذلك الضوء الضئيل ، مارين بسرعة تحت جهاز اللاسلكي الذي يملأ الهواء بصوته

ومما أشكر الله عليـه أن قائدنا العام رأى أن أعمل أنا أيضاً في رحى الحرب التي كانت تدور بقوة الصاعقة فتدور رءوسنا معها . ذلك بأني كنت أمضي نهاري بترجمة مقالات (ريزوس باستيس) و (كاتي مرني) ، فاذا جاء الليل أذهب للعمل في القيادة العليا ، أو تحت الخيام التي في جانبنا . وأكتب الاوامر اليومية لحركات الحرب ، أو أقوم على المخاطبات با لة التلفون . وقد أكون في بعض الليالي متولياً السهر على التلفون الى الصباح بصورة رسمية ، فأرى النور في دار القيادة العليا وفي مقرّ قيادة الجبهة لاينطفيء حتى الصباح ، ولا تنقطع فيهما دلائل العمل والنشاط . وكنت أسمع رئيس اركان الحرب وهو على التلفون الى الصباح يتكلم بصوته اللطيف مع قواد الفيالق والفرق ، وكانت أوامره الرسمية تشفّ عما وراءها من حجاب الاستقامة . وعلمت أن القائد العام لا ينام قطّ ، وتأكدت ذلك من بقاء النور الازرق متألقاً في دائرته ، ومن تلك الاشباح التي لاتنقطع عن الذهاب والاياب في غرفته الى الصباح

وفي ديوان الحركات الحربيــة منضدة طويلة جاس وراءها صفّ من الضــباط الفتيان بين قائد مائة وقائد ألف ، فهم لا يبرحون قط اما كأنهم وراء هذه المنضدة ، أولئك قوم أحببتُ وجوههم الناضرة ، المضيئة بنور الايمان القومي ، وخيل الي أنهم من أولئك الذين أقسموا أنــ لا يغمدوا سيوفهم دفاعاً عن ازمير

هنالك كانت رقعة شطرنج أحجارها من بني البشر . وقــد احتشدت جماعاتهم في أنحاء هذه الرقعة بصفوف متقابلة وقفت أمام الاهوال وجهاً لوجه . فهي ما برحت بين انسحاب وامتداد ، واحتشاد والتفاف

ولمـا كان الاسبوع الثاني أخذت المدافع تقذف من فوهاتها القذائف العظمى ، وصارت أصوات المخابرة التلفونيــة في الليل أشدّ عزماً وأكثر استمراراً . وكنت أرى أمام مقرّ القيادة في بعض الأحيان بضعة فرسان يلبثون في مكانهم الى ما بعــد نصف الليل ثم يخرجون من القرية . وكانت أسماء قرى (اوزوم بيلي) و (حيمانة) و (دوي دمير) تنتظم دائمـاً مع كلمـات « الى الخنادق في قطرانجي وجالباقلي » . وما أكثر ما كان يذكر يومئذ من أسماء الروابي والجبال والآكام . وكأني حين اذكر الآن هذه الأسماء أقرأ مأساة في معاجم البلدان

وان في جوار خيمتي خيمة يسكنها سائقو السيارات ؛ وكان لهذا المكان شأن خاص بين بيوت الطين الصغيرة المجاورة لها وبين ما لا يحصى عدده من خيام المعسكر . فان سائقي السيارات اذا لم يكونوا في حاجة الى الرقاد ، واذا كانوا غير مكلفين بسوق سيارات القيادة . يجلسون لقراءه روايات « مشاقي دُ مونتيپن فيدعو بعضهم بعضاً ، ويستأنف أحدهم قراءة الرواية قائلا :

« ورفعت العذراء الطاهرة عينيها الزرقاوين الى (ارمان) وأخذت تخاطبه بصوت له تأثير في الفؤاد وكأنه نغمات الملائكة »

ويستمر في اكمال الرواية . وقد يقضون أوقاتهم بالغناء . وربما تسلوا

بتقليد الناس . وبالجملة فان دأبهم أن يلبسوا أيام المخاطر لباس المسرات . ومع انهم كاخوانهم من الاناضوليين يظهرون في مثل هذه المواقف بمظهر الثبات وعدم المبالاة فانهم كانوا يضحكون من الحياة بصوت الجرأة والاستهزاء على عادة الاستنبوليين

لقد كان من دأبي في كل صباح أن أصغي الى صوت هؤلاء الجيران لأعلم ما اذا كان يشف عن نشاط أو عن فتور وكان خادمي الجندي سالم يصغي اليهم أيضاً ، غير ان روحه أقدر من روحي على اختطاف أنباء الخير والسوء من أمواج الهواء . فاذا كان الموقف حسناً يقول لي :

ـ ان الحالة طيبة يا مولاي . اسمع فان الامة تغني !

وأما اذا كان الموقف سيئاً فانه يلتزم الصمت ، ويجلس بعيداً وعيناه تحدّقان في الافق

واذا صار المساء أذهب الى الرابية التي تلينا ، فأجلس عليها لاشاهد منها هذه القرية الصغيرة . وكانت الموسيقى تصدح كل يوم أمام مقر القيادة بنغمات تذكرني بنغمات الموسيقى التي تعزف في أماكن السينما

وكانت قنابل المدافع تدوي في بعض الاحيان بين السحاب الاحمر الذي يبدو في الجانب الايسر من منازلنا ، فأوجه نظري الى دار القيادة فأرى في ضوئها الضئيل رأس عصمت باشا ينظر بسكينة ورزانة الى ما يقع البصر عليه من المسافات الشاسعة . وقد أرى القائد العام نفسه هنالك يحرّك رأسه بحركات الحزم والثبات ، مشيراً باصبعه الى الجبال القائمة عند الافق ، ولا ريب انهما يبحثان حينئذ في موضوع الحرب

كذلك كنت أرى القائدين ، ولكني لم أسمع قط صوتهما ، ولم أنظرهما من مكان قريب . ومن أنا حتى أدنو منهما ؟ ألست بيامي نائب الضابط ؟

وبينما الموسيقى تصدح بنغماتها كان يخيل اليَّ أن سقارية كلها أمست شريط سينما : فالموسيقي تصدح ، وماكنة السينما تدور بالشريط ، وهاه

سقارية تجري حمراء في جوّ حالك الظلام !

ولما انتهى الاسبوع الثاني بات الجيشان في ذبول وذهول : فالعيون تقدح شرراً ، والجنود يخوضون الدماء الى الركب . ولما أخذت أتساءل :

ـ أي الفريقين أسلم رأساً ، وأيهما سيتمكن من جمع قبضة يده وتصويبها الى رأس خصمه ، قبل أن يشعر بالدوّار في رأسه ، وبالظلمة تغشى عينيه ؟

لم يطل الوقت بين سؤالي وحصولي على الجواب . فبينما أنا في صباح اليوم التاسع من شهر سبتمبر غارق في نومي كما يغرق الرجل في البئر اذا بذهني افندي يحاول ايقاظي بشدة ، وهو يقول :

ـ قم يا بيامي افندي ، اننا ذاهبون !

قلت : ـ الى أين ؟

قال : ـ الى الامام ، فالمعسكر كله يتقدّم الى الامام

فقفزت بمثل سرعة الزنبرك اذا أمسك وأطلق . وسمعت جيراننا السائقين يتغنون بأصوات عالية أنشودة معناها :

ربطت جوادي بشجرة بلوط ، بشجرة بلوط

فأبلغ سلامي الى عائشة سوداء العينين ، الى عائشة

فقلت : ـ وما ضر لو كانتا خضراوين يا ذهني افندي ؟

قال : ـ ما ذا تقول يا بيامي افندي ؟

فضحكت ضحكة صبيان المدارس وأخرجت رأسي من الخيمة وناديت :

ـ هات فنجانين من القهوة يا سالم :

وكانت تعلو هذه القرية الصغيرة شمس مهيبة وسماء فسيحة ، وعربات الاثقال تمر على مقربة منا ، واخواننا الضباط واقفون امام خيامهم حاسرين رءوسهم ومتجردين من معاطفهم وهم يغسلون وجوههم بالمياه التي يصبها لهم الجنود من أباريق الصفيح ، وجميعهم يتمازحون بأصوات مرتفعة ، وكل واحد من الجنود قد وصلت شفتاه الى أذنيه من شدة الضحك والابتسام . وكذت

أظن ان ما يبس من الاغصان الموضوعة على ظهر الخيام تضليلا للطيارات قد عادت فدبت بها الحياة لشدةِ ما كنا فيه يومئذ من سرور ونضارة . أما أنا فكنت أرتدي ملابسي وأصفّر وأتكلم ، وتلك هي المرة الاولى التي رآني فيها ذهني افندي مسروراً وكثير الكلام . وسألت ذهني افندي :

ـ أتدري أي شيء اشتهيته في هذا الموضع ؟

قال : ـ أي شيء ياصديقي ؟

قلت : ـ أن أدخل أوراقاً الى النائب العام ولو مرة واحدة

قال : ـ وهل أنت لم تدخل عليه قط ؟

قلت : ـ كلما ذهبت اليه بورقة يتناولها مني الياور

قال : ـ أنا دخلت عليه غير مرة

قلت : ـ صفه لي بالله عليك !

قال : ـ رأيت امامه منضدة صغيرة تتراكم الخرائط عليها ، وهو منكبّ دائماً على هذه الخرائط ، وفي يده قلم ذهبي ، فهو لا يفتأ يقيس ويرسم خطوطاً ، ثم يرفع رأسه فيحدق بعينيه

قلت : ـ وماذا قال لك ؟

قال : ـ لما دخلت عليه للمرة الاولى عبس في وجهي ، ولست أدري هل كان ذلك لأنه لم يقع نظره علي من قبل أم لسبب آخر ، ثم سألني : « ماذا معك ، أخير أم شر ؟ » فاضطربت وقلت « هذا تقرير الكتيبة رقم ... » قال « سألتك ما ذا فيه من خير أو شر ؟ » قلت « فيه خير يامولاي ! » قال « هاته ! » وأخذ يقرأه وهو مقطب حاجبيه ثم قال لي بغضب « ان فيه شرا ؛ وانك لم تفهمه »

ولما دخلت عليه للمرة الثانية عرف وجهي وسألني « أخير أم شر ؟ » قلت « بين بين يامولاي ! » . قال « هاته ! » وقرأه بامعان ثم قال لي مؤنبا وموبخا « هذا حسن جداً أيها الافندي ؛ انك لاتفهم ما تقرأ » . ثم أشار

بكلمات وجيزة ولكنها فصيحة جداً مبينا مايدل على حسن الموقف من الاخبار الواردة في التقرير

وفي مساء ذلك اليوم نفسه دخلتُ عليه للمرة الثالثة وقدمتُ له التقرير بيد مرتجفة

قلت : ــ وهل سألك أيضاً ؟

قال : ــ سألني سؤاله المعهود ، فأجبته « ان بداية التقرير تدل على سوء ، ثم تنبىء نهايته بخير » فأخذ التقرير وجعل يقرأه . ثم تكلم طويلا مع عصمت باشا الذي كان أمامه منكباً على الخريطة • ولما عاد فانتبه اليّ قطب حاجبيه ووقّع على الورقة • وظننت أنه سيوبخني ، لكنه نظر في عينيّ وابتسم لي ابتسامة لطيفة ، وقال « خذ يابنيّ ! » والظاهر أن ماجئته به كان دليل خير • وان قائدنا العام ليستنبط من التقارير البسيطة أمورا لا تخطر لاحدنا على بال •••

قلت : ــ وهل تدخل على عصمت باشا أيضا ؟

قال : ــ كثيراً

قلت : ــ وهو أيضاً لم أحظ بالدخول عليه

قال : ــ وهل كل مترجم وكل مصوّر يصلح للدخول على كبار القوّاد ؟

قلت : ــ لكني سأصورهم ، وربما •••

قال : ــ ربما ماذا ؟

قلت : ــ وربما يوقعون لي بخطهم على هذه الصور

وكان ذلك من الاماني العظيمة جدا في نظري أنا الكاتب الحقير في وزارة الخارجية سابقاً ، والضابط الصغير برتبة ملازم لاحقاً

وفي صباح اليوم التاسع من سبتمبر اجتزنا مرة أخرى طريق هذه القرية على أرض سبخة قفراء ، وكنا في سرور ونشاط كأننا « فرسان الترك » الذين وصفهم (يحيى كمال) • ولعبت الشمس بأشعتها الذهبية على الروابي الخضراء

عند ماكنا ـ ونحن مائتان من فتيان الفرسان ـ ننحدر منها الى ضفاف سقارية وفي المساء بلغنا معسكرنا الثاني على الخط الحديدي وكانت منازلنا عربات القطارات ؛ فكان أكبر همي عند وصولنا أن أكون مع ذهني افندي . فلما نلت أمنيتي ؛ وبدأت موسيقى الغطيط تصدح من عشرة سرر عسكريه مصفوفة في عربتنا ؛ ملتُ نحو ذهني وسألته بصوت خافت :

ـ هل نمت ؟

قال : ـ وماذا تريد ؟

قلت : ـ هل تظن المستشفى السيار الخاص بالفيلق قريب منا ؟

قال : ـ وماذا تريد منه ؟

قلت : ـ في نيتي أن أكون جريحاً

قال : ـ اذن فأسرع في ذلك ! فالمستشفى السيار على مسافة عشر دقائق منا

وسكتنا طويلا . ثم قلت له :

ـ ذهني افندي !

قال : ـ وماذا تريد ، ألم تنم بعد ؟

قلت : ـ أريد الانتقال الى الفيلق رقم ... فما هي الوسيلة الى ذلك ياترى ؟

قال : ـ أنت تريد ذلك الفيلق ؛ ولكن هل هو يريدك يا ترى ؟

وسكتنا مدة . ثم ناداني هو :

ـ بيامي افندي !

قلت : ـ نعم !

قال : ـ لقد اطلعت اليوم على مذكرة واردة الى رئيسنا من الفيلق رقم..

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ان الجبهة الحربية تطلب ضابطاً يحسن اليونانية

قلت : ان علاقتك بالرئيس حسنة . فهلاّ تتفضل عليَّ بمخاطبته في ذلك ؟

قال : ـ ان رئيسنا لا يردّ لي طلباً . فانتظر ؛ وسأعطيك الجواب غداً

***

ـ ١٠ ديسمبر ، ١٩٢١ ـ

كان المساء يخيم عليّ بظلامه عندما كان جوادي يعدو بي الى الفيلق لأقدّم اليه الورقة الرسمية التي تجعلني تحت تصرفه . ولما أشرفت عليه كانت مضاربه تضيء قلب الوادى وأهضامه فتتراءي كأنها جماعات من الحباحب واليراع (١) كبيرة الحجم. وان الى جانب لهيب المواقد المتألقة في ذلك الظلام أشباح رجال ترقص ظلالها هنا وهناك تبعا لحركة اللهيب ؛ فيخيل الي أنها أجنحة تخفق في الهواء ... وتراءت لي أثقال الجيش بأشكال غريبة وغير طبيعية وسط تلك الحمرة القاتمة . . . أما المستشفى السيار فكان أسطع أوضاع الجيش نورا ، وأوسعها نطاقاً ؛ وكان في معزل عنها جميعا . واني وان كنت لا أبصر الآن مايجري في داخل ذلك المستشفى فقد أعلم أن عائشة تسير فيه بخطوات هادئة ، وأن يديها تمنحان من فيه من المرضى والجرحى رحمة وعافية وسلوى

ولما صرت على باب القرية سألت الجندي الحارس عن مكتب رئيس أركان الحرب فقال « سر مستقيما ، ثم اعدل يمينا » . وكان وراء القرية جبل يطل عليها ، فيبدو كأنه خرابة سوداء عظيمة ؛ اتكأت على مافي القرية من منازل بيضاء صغيرة . وان في جانبها الايمن ميدانا مستطيلا أحاطت به المنازل فلما صرت بينها علمت اني في قرية تترية لمنازلها شرفات طويلة ، ولنوافذها أبواب مقفلة يلمع نور المصابيح في شقوقها . ورأيت امرأة تترية خارجة من زريبة ، وفي احدى يديها اناء حليب ، وعلى ذراع يدها الاخرى مخلوق صغير ؛ وكان يقع نظري بين حين وآخر على أكوام الزبل تبدو من ورائها رءوس البقر . ثم انتهيت الى منزل في آخر الطريق تنيره المصابيح وأمامه جندي واقف ، فسألته :

ـ هل رئيس أركان الحرب هنا ؟

(١) الحباحب واليراع : ذباب له شعاع يطير بالليل كأنه شهاب قذف أومصباح يطير

قال : ـ تجده في تلك الغرفة ياسيدى

ولما دخلت رأيت غرفة قروية صغيرة ، وفيها احسان لا بساً معطفه وهو منكب على منصته يكتب ، وكان وجهه اصفر وآثارالتعب ظاهرة عليه . وظل مستمراً في عمله دون ان يرفع رأسه فينظر من الذي دخل عليه . فقلت :

ـ أنا بيامي الملحق بقلم استخبارات الجبهة الغربية ، وقد حضرت لاكون تحت تصرف الفيلق

فقفز كالسهم اذا اطلق من قوسه ، وأسرع الى يدي فصافحني باهتمام لم اعهده فيه وقال :

ـ هذا انت يابيامي ؟ كيف انت ؟ لقد كنت أعمل الآن لتسليم مكتبي في صباح غد الى الذي سيخلفني فيه

قلت : ـ وكيف تذهب وأنت من الاسباب التى رغبتني في المجيء الى هنا ؟

قال : ـ ان قائد الألاي رقم ... مات شهيداً ، فطلبت من القيادة أن أكون قائد ذلك الألاي ، واني صرت أرغب في الاقتراب من النار ، لان الجو بارد كما ترى ، حتى أنني ألبس المعطف وأنا في داخل غرفتي

وحاول أن يتبسم ولكنه لم يستفد مما حاوله غير تجعيد خديه . ولاحظت أن عينيه صارتا ذابلتين وغائرتين

فدنوت منه ، ولست أدري لماذا وضعت يدي على كتفه متحبباً اليه وقلت :

ـ هلا تأخذني معك ؛ فانا أيضا أشعر بشدة البرد وأريد الاقتراب من النار

قال : ـ ولكن النار قد تلتهم يد الانسان أو ساقه ، وقد تذهب بروحه أيضا يابيامي ...

قلت : ـ اني أعرف ذلك من قبل يا احسان !

فسكت ثم نادى جندي المراسلة فامره باستدعاء بعض الضباط وأصدرلهم أوامره . وبعد ان انتهى من ذلك جمع أوراقه برزانة وسكينة ، وتناول قفازيه وقال :

ـ تعال نتمشى معاً الى ذلك الجبل يابيامي

قلت : ـ ولكنك كنت تشعر ببرد

قال : ـ كنت كذلك ، ولكني لا أشعر الآن بشيء

فعلمت أني سأرى في عتمة الجبال روح احسان عريانة في هـذا المساء ، وجزمت بأنه يريد أن يقول لي شيئا . ولذلك تجردت من قيود الهيبة والاحتشام ، ومشيت معه . فارتفعنا في سفح الجبل حتى صارت تبدو لنا نيران الوادي وحمرة الخيام . ثم رأينا نورا أبيض أخذ يعتلىء به الجوّ من وراء الجبل . فوقف احسان وجعل يطايل النظر الى ذلك النور . ثم مشى وقال :

وعلى كل حال فانه لا مناص لنا من الوصول الى أعلى الجبل قياماً بواجب الاستكشاف ، وسنتكلم في الطريق

أما أنا فكنت ملتزماً الصمت انتظاراً لما يريد أن يقوله . فلما جعل القرية وأنوارها وراء ظهره شرع يتكلم ، نخيل الي أن الظلمات الكثيفة التي تراكمت في نفسي منذ سنتين قد بدأت الآن تتبدّد بظهور وجه عائشة ووجه احسان وسط هذا النور الجديد . أما وجه احسان فرأيته بوضوح تام ، زد على ذلك أني كنت عالماً بما في نفسه ، ولكن قبل أن يسدل الستار على هذه الروح في الجبل فرت عائشة من يدي وتوارت في مجاهل الظلام

شرع احسان يحدثني عن أيامنا في الاستانة وعن عائشة ، دون أن يربط بين أطراف حديثه ، فكان يقفز من حادث الى حادث ، ويلمس مواضع القول لمساً خفيفاً ثم يفرّ منها متجنبا التوسع فيها . فكان حديثه أشبه بالنغمات المبهمة في (اوپرا) طويلة الفصول أشير في مقدمتها الى جميع أدوار المأساة مع اجتناب التوغل في بيان سرّ الفاجعة ومكان العظة فيها . وفيما هو في حديثه

فاجأني – على حين غرة مني – بقوله :

« وصفوة القول أني كنت – مثلك ومثل الآخرين جميعاً – مصاباً بحمى عائشة . غير أن الفرق بيني وبين غيري هو أنها لما ألهبت ظهري بسوطها الناري لم أولّ ضربتها ظهري مندفعاً نحو ازمير ، بل كنت عند ماجعلوا ازمير وجهتهم اتخذت عائشة قبلةً لي . ولقد امتزجت سمومها بدمي وجالت في عروقي منذ رأيت عينيها الخضراوين وشفتيها الحمراوين يوم استقبلناها على مرفأ الاستانة

أنا ممن عرفوا النساء عن قرب . غير أن صلتي بعائشة لم تكن تشبه الحمى ، ولا هي من فنون الحب ، بل هي طاعون ونكبة ... ان عائشة لم تدع في روحي جانباً الا وصلت اليه ، وزلزلته ، وجعلت أعلاه أسفله

لقد تهدم كل شيء ، لقد انحلت كل رابطة ، لقد ذبلت صورة كل انسان ، وان الدنيا كلها اسودت ، الا عائشة فانها هي وحدها التي انتصبت أمامي – بما في شفتيها من لهيب ، وبما في عينيها من سم – فهي لاتفارق ناظري أبداً

ان كل ما أتمناه أن أكون قريباً من وجهها الذي يبتعد عن كل من يقترب منه ، وأن احصل على ذلك الشيء البعيد المنال ، المختبيء وراء عينيها وشفتيها ، ولست أدري أهو الموت أم هو الحياة ...

لقد صرت أسيرا مطيعا لكل ما تشير به عينا عائشة وشفتاها . وليس عندي شيء في هذه الحياة أضن به ، ولا عمل أحجم عنه ، ولا مسافة شاسعة أتردّد في اجتيازها ، رغبة في الوصول الى هذه المرأة التي هي كالسراب في استحالة الوصول اليها

كم وكم نالني من سمها ، ومن حماها ! ان ما أشعر به من الالام لاتلتهمه النيران ، ولا تغسله الدماء ، ولا يذهب به الموت ... ومنذ عرفتها الى الان لم أنم قط ليلة واحدة دون أن أحلم بها . انها من وراء كل عمل تعمله يدي ، وكل كلمة ينطق بها فمي ، وكل شيء يقع عليه نظري

ان ربي مطلع على كل مافي قلبي ، لذلك أقف الآن وقفة الجندي الواثق

من شرفه وكرامتــه ، وأعترف بأنها لو قالت لي في يوم من الايام « اهرب من الحرب ! » لا أتردد في الانسحاب من الجبهـة حالا ، اذعاناً لاشارتها ، بشرط أن أمزق بعد ذلك دماغي برصاصة من مسدسي

ان هذه الحمى التي أصبت بها يوم عرفتها كانت تزداد شدة في كل يوم من الأيام التي قضيناها في الاستانة . وهل أنت تذكر يوم ودعتها في الاستانة لاجيء الى الانضول ؛ لقد خطر ببالي يومئـذ أن أقتلك ليخلو لي الجو ، فأجلس معها على انفراد ؛ وأبوح لها بكل ما تثور ثائرته في قلبي

ولما صرت بمعزل عنها في الانضول كانت النـار التي في قلبي تتحول الى جنون . واني ــ أنا الذي لا أؤمن بقوة غير قوة الجيش ــ انمـا كنت مذعنا لارادة عائشة عنـد ما توليت قيادة العصابات زاعمـا أن ذلك مما قضت به الثورة . ويوم نهضت لمقاومة العصيان الذي سرت عدواه الى كل أنحاء المملكة فاستعملت في سبيل ذلك قسوة لاأزال أرتجف الى الآن كلما ذكرت شدتها ، وأحرقت الديار ، وشنقت أهلها ؛ انمـا كنت أفتح بذلك طريق ازمير الذى أنارته عائشة بما في عينيها من أشـعة خضراء . وان المرأة التي أوحت الي بأن أبطش هذا البطش الرهيب هي نفسها التي كانت توحي اليّ بألطف مافي الرحمة والرقة من مظاهر التجلي . ان عائشة قد جعلتني شخصا غيرالشخص الاول ، وأفرغتني في شكل لم يكن لي به عهد من قبل

لمـا جئتَ أنت وعائشة الى اضه بازار كان معكم ملازم أشقر صغير الوجه اسمه احمد رفقي ! ولعلك تذكرته . فانهم كانوا يدعونه « البولشفيك » ، وكان يقود عصابة من اللازيين مؤلفة من عشرة أشـخاص ومرتبطة بي . أتدري كم كنت أتألم اذا رأيت عائشة تسير الى جانبه وهما على جواديهما ! أنا متأكد من أن عائشة كانت تشفق عليه اشـفاق الاخت الكبرى على الاخ الصغير . ذلك كل مافي الامر . وان اشفاقها هذا كانت عدواه تسري الى قلبي أيضاً في بعض الاحيان فأشـعر بالحب لهذا الملازم الصغير الى الدرجة التي أعطيه فيها

قلبي . وقد تدب في نفسي عقارب الغيرة منه ، فيتولاني الارق ، وأسهر في رسم الخطط لدفعه الى كمين يفقد فيه حياته . وكثيراً ما كنت اخاطب نفسي بصوت عال ، فأقول :

ـ لقد فقدت حياتي ، لقد صرت مجنوناً

وهل تذكر يوم قتل الشراكسة ذلك المسكين في طريق الخندق ، فركبتْ عائشة وجعلت تعدو على الجواد لتذهب اليه ؟ اني لما رأيت عائشة يومئذ ترفع جثته بين يديها عن الارض ، وأخذه رفاقنا ليأتوا به الى المحفة وهم يبكون ، كنت أنا في ذلك الحين بين عاطفتين : احداهما تدفعني الى الهجوم على تلك الجثة لاقطعها ارباً اربا ، والعاطفة الثانية تجعلني أتمنى لو افرغ روحي في هذه الجثة ، وأقول لعائشة :

ـ ها قد تنازلت عن حياتي لهذا الفتى الذي تبكينه : فليحي هو ، وكفكفي انت دموعك ... »

وحين وصل احسان الى هذا الموضع من حديثه كنا قد اقتربنا من ذروة الجبل ، فأبصرنا قذيفة انطلقت من بعيد ، فاجتازت طبقات الهواء الاسمر اللامع قاصدة زرقة السماء ، ثم انحدرت الى اسفل ، تتدلى منها أنوار الشظايا كأنها المصابيح أو الكواكب . وكانت جبال الانضول الشامخة الصفراء قد لبست من نور القمر حلة فضية تتموج على سفوحها . ورأيت كتائب الجنود بملابسها الخاكية تسير في الصحراء المستوية التي تلي الجبل ، استعداداً للحركات التي ستقوم بها غداً ، تحف بها زرقة الهواء في مثل بياض الدخان . وكانت أمامنا نظارة كبيرة أقيمت وراء متاريس الترصد والمراقبة ، والى جانبها شبحان واقفان وعليهما ملابس خاكية

فلما بلغنا هذا الموضع قطع احسان حديثه . وتقدم نحو النظارة ، فدخل متاريسها . وبينما هو يترصد حركات العدوّ ويراقب الموقف الحربي جلست أنا أتمتع باللذة التي يشعر بها كل من يجلس على ذروة جبل شاهق ، ولا سيما

اذا كان مثلي لم يتسلق جبلاً منذ سنين . ولست أعلم الآن بما كان في نفسي ساعتئذ من ألم وسرور ؛ غير أن التصعيد في الجبل كان قد أجهدني فلم يعد في طاقتي أن اسير خطوة اخرى بعد المكان الذي وصلنا اليه . فجلست أنتظر عودة ذلك الشبح اللطيف الواقف في المتاريس لامضي معه هنامدةمن الزمن. أما هو فبعد أن انتهى من المراقبة وقف على آلة التلفون وجعل يخاطب اخوانه القواد المعتصمين برءوس الجبال المقفرة ، والآكام البعيدة عنا ، ويرسل تحيته الى جنودهم ؛ ثم عاد الي فاستأنف حديثه من حيث قطعه

لقد كانت الحياة في نظر احسان عبارة عن قصة الآلام والمتاعب في سبيل عائشة ؛ وكل ماعدا ذلك من واجباته الرسمية وأعماله الظاهرة فهي حركات تجري في الاحلام ، بلاعناية ولا تصور . غير ان هذا المشهد وهذا الليل قد أيقظا شخصيته القديمة لمدة قصيرة ؛ واستطارت فيهما شرارة من جذوتها ، فقال لي :

« ان المرة الوحيدة التي استيقظت فيها عاطفة الاستقلال عن عائشة في قلبي انما شعرت بها عند ماكنا بالحركات الغير النظامية في الانضول ، وأسسنا الجيش النظامي . فان هذا العمل كان شيئاً آخر غير ازمير وغير عائشة . ولما صرنا في (اين اوني) عاد الي شيء من شخصيتي ، وكلما تقدمنا في أدوار الحرب كان ظلم عائشة تخف وطأته عن قلبي ؛ وذلك عند ما كانت عائشة في (اسكي شهر) . ولكني لما عدت الى وظيفتي في (كيوه) بعد انتهاء المعركة الكبرى انتكست وعادني مرض عائشة بشدة تشبه الجنون ، فلجأت الى الفسق والتهتك ، معللا النفس بأني اذا تلهيت بالخمور الشديدة التأثير وبالحب الكاذب أشفي بهما من علتي ما لم يشفه التلهي بالاعمال الرسمية والتعرض للاخطار

كم ذا تناولت من الخمر في خيمتي ! وكم من فتاة غضة الشباب خضراء العين تعرفت بها في ربوع الانضول ؛ فألقت نفسها علي بسذاجة ؛ صنيع

الفراشة في تهافتها على النار ، فأشمّ من أجسامهن رائحة التراب ورائحة البنفسج ، بينما هن يطوقنني بسواعدهن القوية العضلات . ولكن كل هذا لم ينفعني ، فعادت اليّ حمى عائشة بأشد مما كانت قبلا . لقد كانت عائشة موجودة في هذا التراب ، وفي هذه الشمس ، وفي الطبيعة كلها ؛ ولكنها كانت شيئاً آخر غير هذا كله : فهي سر لا يدرك ، ومسمى لا اسم له ؛ وموجود لا تلمسه الايدي

ترى ماذا هي ؛ ومن أين هي ؟

لقد جاء زمان فهمت فيه ان كل ما ألمسه مما يذكرني بالشطر المادي من عائشة ليس هو شخصها الذي شغفت به ؛ وحينئذ ازددتُ حباً لها وتعلقاً بها :

وأخيراً عزمت على أن أعيش كالراهب متقشفاً عفيفاً ، وأن أشغل نفسي بواجباتي الرسمية . فلما نشبت معركة (اين اوني الثانية) صرت أعرض نفسي للموت ، وأستهدف برأسي للرصاص ؛ الى أن شعرت ـ ونحن على أكمة متريس ـ بأن الموت ينقضّ على صدري كالصاعقة ؛ فأغمي علي ؛ وظننت أن الامر قد انقضى

وجعل الاغماء يعاودني ، والدوّار لا يفارق رأسي ، فلما جيء بي الى منصة العمليات الجراحية في المستشفى أغمي عليّ مرة أخرى ؛ فشعرت بأنامل ـ أعرف ملمسها من قبل ـ تضع الخرق الباردة على جبهتي ، والماء الزلال بين شفتيّ ، ورائحة الكولونيا في أنفي

انت تعرف يدي عائشة يابيامي ؛ أليس كذلك ؟ ان في ملمس أصابعها الطويلة سراً يبعث في الضعيف قوة ؛ وفي المريض عافية . وهما ـ مثل عينيها ـ يمنحان القلوب سكينة أو يثيران في النفوس آلام الحمى

ولما فتحت عيني كنت أشعر بلذة عظيمة ؛ فشممت رائحة البنج التي كانت تملأ هواء الحجرة ؛ وأبصرت مستخدمي المستشفى ذوي الملابس البيضاء ، ودنت مني سيدة ذات قميص أبيض ، فرأيت في خمارها الاسود وجه عائشة ،

وآنست في عينيها الخضراوين رقة وحلاوة لم يكن لي بهما سابق عهد ؛ وجعلت تنظر اليّ وعلى شفتيها شفقة الأم الشديدة الحب لابنها ؛ فخيل اليّ أن عائشة كانت تذوب أمامي فتسيل من عينيها الى قلبي ؛ ولكن يديها كانتا تجذبان رأسي وكل جسمي . وأقسم أني ظللت مدة أحسبني سابحاً في أثير أزليّ ابيض ؛ وأعتقد أني مت ونقلت الى الجنة . كيف لا وأنا الذي نلت الشهادة التي أوصلتني الى الجنة ؛ وأعني بالجنة عيني عائشة اللتين كلما نظرت اليهما أتجرد من نفسي وأستغرق في بحر التجلي ؛ فيالها من جنة احتوت السعادة !

ولم يجدوا لي مكاناً في المستشفى فنقلوني الى الغرفة الصغيرة من فندق مدام (طاديه) . فلما وصلوا بي الى هذه الغرفة اقتربت عائشة من المحفة ؛ ورفعتني كالطفل بين يديها القويتين دون أن تزعجني ؛ ثم وضعتني في فراش نظيف محشوّ بريش الطيور . وأيقنت بأني انتهيت الى ماينتهي اليه المشرفون على الموت ؛ فسكت ونمت . وكنت ـ وأنا أسمع الطبيب يخاطب عائشة ـ مقتنعاً بأني أحلم بالشهادة والجنة ؛ أما الآن ...

وعلى كل حال فان عائشة صارت تأتيني في كل صباح فتغير لي ضماد جرحي ، وتصلح فراشي ؛ وتنظر في درجة حرارتي ؛ فاذا ذهبتْ أستغرق في نومي الى الظهر متخيلاً أن أناملها لا تزال تلمس وجهي ورأسي . وفي أوقات الأكل تجلس بجانبي وتناولني طعامي دون أن تحوجني الى الجلوس . واذا انتهت من عملها في المستشفى ليلاً تأتيني أيضا فلا تفارقني حتى أنام

لقد كنت سكران بخمرة الخيالات التي تمنحني أسمى درجات اللذة ؛ فكل مايختص بعائشة كان من بواعث اللذة لي ، حتى رداء عملها الذي كانت تعلقه بالمسمار القائم أمامي . وعندما تجلس على كرسيها الموضوع الى جانبي أشعر بأني سابح في سراب ؛ أو كأني أحد القديسين وقد رسب في لجة الاثير

كأني بصوتها يرنّ في اذني ؛ وان نغماته الجهورية الحارّة تفصح لي عن أمور تمتاز بالبساطة المتناهية والنفاسة المتناهية . وقد حدّثتني مرة عن

طفولتها وكيف هي نمت وشبت كالزهرة البرية في حقول ازمير الخضراء ، ومروجها الناضرة ، ووصفت لي خيولها وعجولها وخرفانها واحداً واحداً . ثم قصت عليّ خبر زواجها ، وكانت تذكر ذلك بسكينة وهدوء يدلاّن على الغبطة والرضى ، ولكني فهمت أن زوجها مقبل ـ الذي ربما كان قتل في سبيلها ـ لم يوقظ عاطفة الحب في قلبها . فهي لا تزال بكراً اكثر من اولئك البنات اللائي كنت أحتضنهنَّ بذراعيّ في قرى الانضول . ولاحظت ان شفتيها لم ترتعشا بعد بكهرباءة التقبيل . فعزمت على أن أكون صاحبها الحقيقي ، وأن أنفث فيها حمى مطامعي وجنوني . وكانت الايام تمضي دون أن أشعر بها ، وصحتي آخذة بالتحسن ، وحرارة جسمي تنقص يوماً بعد يوم ، في حين أني كنت أتمنى أن أبقى مريضاً أبد الدهر

ولما صرت أستطيع الكلام ، ولا أتعب بسرعة ، جلست ذات مساء احدّث عائشة عن اليوم الذي نتمكن فيه من الدخول معاً الى ازمير . فجعلنا ننظر بعين الخيال الى مسير طلائع جيشنا في شوارع ازمير على نغمات الابواق العسكرية ، ووصولها الى ساحل البحر الابيض ، وطوافها بالراية الحمراء على أرض المرفأ حيث تسيل دماء جنودنا

وفيما نحن كذلك نهضت عائشة فجأة ، وبالرغم من أن أشعة السراج الصغير كانت ضعيفة فاني رأيت وميض النار في عينيها ، وارتعاش شفتيها الحمراوين اللتين فتحتهما بما تشعر به من الانفعال ، وأحسست باليقظة تدبّ في جسمها وروحها ، وبالانتعاش يسري فيها كما يسري بالمرأة الحادّة المزاج عند ما تلمس بشفتيها أول قبلة من عاشقها . واني رأيت عندها من الحب البليغ مالا يوجد عند المخلوقات الابتدائية في ديارها ، غير ان الحب الذي في قلبها خاص بازمير ، فهي تهتزّ طرباً لذكرى هذا البلد بما لا يذكر في جانبه طرب أشهر نساء التاريخ بالعشق اذا ذكر عندهن من أحببنه . واني لا أعرف قبلة كان لها تأثير عليّ كتأثير خيال ازمير الخضراء على عائشة .

ولما نهضت عائشة مددت اليها يدي وأمسكت بها يدها ، ثم قلت لها :

ـ اني أعاهدك ياعائشة على أني اذا لم تكن فرقتي أول فرقة تدخل ازمير. سأكون الجندي الذي يحمل أول لواء يدخل ازمير . فهل تعـدينني بأن تكوني لي اذا أنا وفيت بعهدي ؟

وهززت بيدي يدها ، وكانت شفتاها لا تزالان مفتوحتين قليلاً ، ولا يزال الانفعال بادياً في عينيها ، ولا تزال حرارة الجمر في يديها . فلما وجهت اليها سؤالي أخذتْ تنتبه . وجعلتْ تنظر اليّ ، وقد أدركتْ حقيقة الموقف ، فقالت لي وهي لا تزال ناسية أنها ممرضة ، ومفكرة في أنها عائشة :

ـ ان من يكون أول داخل الى ازمير لا أستطيع أن أمنع عنـه شيئاً يطلبه مما يوجد في هـذه الحياة : إلا الزواج فليس في الامكان أن أرضاه لنفسي . فافرض يا احسان أني أصبت بطاعون حال بيني وبين كل الناس ، ولم يدع لي رابطة بغير ازمير

وحين قالت ذلك أردت أن أنزل من فراشي ، فأقع على قدميها ، وأعرب لها عن طهارة حبي ، وأقول لهـا ان ذلك قد أوجـد في قلبي حسرة لامناص من أن تقابلني بمثلها . ولـكني اكتفيت بالجلوس في فراشي ، ورفعت صوتي ذاكراً لها كيف ومتى أحببتها . وكنت وأنا أكلمها أشعر بالجرح الذي في صدري كأن حديدة تمرّ بداخله ، وبصدغيّ وعروقي كأن ماء يغلي أو شيئاً يحترق في داخلهما ويندفع ليخرج من جلدي بشدّة . ومع ذلك فاني مابرحت ممسكاً بيديْ عائشة لا أتركهما ، وكأنهما التصقتا بيدي

وفيما نحن كذلك رأيت ذعر الطفولة يبدو في عيني عائشـة فجأة ، وقد جعلت تتلفت ذات اليمين وذات الشمال كغزال البرّ اذا أراد الافلات من يد القانص . ثم ارتعشتْ واختطفت ثوبها ، وهربت . فلم يكن مني حينئذ الا أن أنشبت اناملي في ضماد جرحي بهمجية وجنون . فحللت الضماد ، ثم عمدت الى خيوط الجرح وبدأت بتقطيعها ، وصرت لا أشعر بآلام الجرح ،

غير اني كنت سابحاً في موجة انفعال لا نهاية لها

ولما رأت عائشة ما اصنعه أسرعت اليَّ ، وأمسكت بذراعيّ. وكان الدم النافر من صدري يصل الى فمي . فلما أمسكتْ ذراعي اعتنقتها بهما . وسكرتُ بخمرة حارّة أحرقت شفتي وملأت جوفي ، ولست أدري أ كان ذلك من الدم الذي يصل الى فمي ، أم من شفتيها اللتين قبلتهما كثيراً فحصلتُ منهما على لذة لن أنالها مرة أخرى في حياتي . وها قد مضى عام على هذه الحادثة التي اذا ذكرتها كانت الذكرى كالمدية المحماة بالنار تشطرني شطرين ؛ بل ان ذكراها تذيبني كما لو كانت الحادثة تحدث الآن

وآخر ما أتذكره من وقائع ذلك المساء أنها غسلت جرحي وضمدته وغيرت ملابسي وفراشي . ونظرتْ بعد ذلك نظرات غريبة الى ما على قميصها الابيض من دمي ، ثم حلت القميص وطوته بما فيه من الدم وحفظته ، واخيراً لبست معطفها واقتربت مني فوضعت كفيها تحت رأسي وجذبته اليها ، وجعلت تحدق عينيها في عيني اللتين لم أستطع فتحهما الا بصعوبة ، وقالت :

ـ اذا دخلنا ازمير يا احسان ، واحتفلنا على ساحل البحر الابيض بالدماء التي سفكت في سبيل ازمير الخضراء ، فاني أقترن بك بعد ذلك متى شئت . والآن أطلب منك أن تقسم لي بأن قلبك لن يخفق حتى ذلك اليوم الاّ لاجل الوصول الى ازمير

قلت : ـ سأفعل ذلك اذا كنت تريدينه ياعائشة !

وحينئذ أغمضت عائشة عيني بلمسةٍ رطبة ناعمة ، وكان ذلك أسعد وقت هجعتُ فيه هجعة لا يقظة بعدها

وشفيتُ بعد ذلك بمعجزة . فذهبت بالاجازة الى أنقرة ، وهي المرة الاولى التي وصلت فيها الى تلك المدينة مدة وجودي في الاناضول . فنزلت ضيفاً على ابن عمي العضو في المجلس الوطني الكبير . وكان موقفنا قد تحسن تماماً : فالاحوال زاهرة ، والسعد مقبل ، ولم يعد يخطر ببالي أننا نعجز عن

الوصول الى ازمير . وان لابن عمي بنات على جانب من الرشاقة والجمال ، فكنت أخرج معهن للفسحة في الصحراء شاعراً بنشاط الشباب ، وقد زالت عني وطأة تلك النار الظالمة التي ما برحتُ أسير حماها منذ كنت في الاستانة ، فأعاضني الله منها أملاً جلب لي السعادة والحياة

ولما ودّعت عائشة قالت لي انها ستسافر الى (افيون قره حصار) لتجتمع بأخيها جمال ، ومع أننا اتفقنا على أن لا نتبادل الرسائل فاني كنت أكتب لها صفحة من الورق في كل مساء ـ كأن ذلك فرض من فروض العبادة ـ معرباً لها عما أشعر به من السعادة

وأخيراً انتهت مدة اجازتي ، وتنحيت عن الألاي بأمر من القيادة ، لأنهم رأوا أن الجرح الذي أصبت به لا يمكنني من الاعمال الشاقة ، فجعلوني رئيساً لاركان الحرب في الفيلق رقم . . .

وسافرت من أنقرة في ساعة متأخرة من الليل ، فجاءت بنات عمي الى المحطة لوداعي ، وعانقني كل افراد العائلة ، حتى أن صبحية ـ وهي البنت الصغرى لابن عمي ـ أقامت ضجة في المحطة ، وتعلقتْ بعنقي وجعلت تقبلني من خديّ . وكانت تدعوني اخاها الكبير ، وان لها من سنها ما يلائم ذلك . ولكن ذويها كانوا يريدون أن يزوجوني بها ، وقد ساءني قليلاً ما رأيته من ميلها هي أيضا الى ذلك . وبما أننا على أبواب حدوث حركات عسكرية ، فان الحال كانت تقضي بأن أتقدم أنا أيضاً نحو ازمير . وما أسعدني بتقبيل وجنتيها الغضتين بعد أن قبلت وجنات الآخرين ، وقفزت ثمة الى القطار

لقد كان الهواء بارداً في الطريق ، ومع ذلك فاننا كنا مسرورين جداً . وبعد ان اجتزنا محطة (پيمان) أخذ أحد الفتيان يحدّثنا بحديث ، وكان الى جانبي رفيق معروف بالرزانة . فوضع اصبعه على شفتيه داعياً الفتى الى السكوت ، وأشار بيده الى العربة المتصلة بنا . فسأله الفتى :

ـ ومن ذا في تلك العربة ؟

أجاب : ـ أخت ذاهبة الى اسكي شهر

فسألته أنا بلهفة : ـ ومن هي يا ترى ؛ هل تعرفها ؟

قال : ـ لاأعرفها • وقد جاء بها فتى بينباشي • ويغلب على ظني أنها ازميرية • وهي لابسة بذلة أخت

فقال أحد الحاضرين : ـ لعلها أخت جمال

قال : لست أدري . وان البينباشي شاب أزرق العينين رفيع طويل

نخفق قلبي ، وازدادت ضربات رأسي ؛ وجعلت أتساءل :

ـ ترى متى حضر جمال من أفيون قره حصار الى انقرة ، وكيف جاء بعائشة ؟ ثم لماذا لم يبحثا عني ؟ وفضلاً عن ذلك فاني لم انتبه لوجود امرأة معنا في القطار طول الطريق

وجعلتْ ظنون السوء تتردّد في ذهني • غير أن وجود عائشة وراء هذا الحاجز الخشبي كان أشدّ تأثيراً عليّ • ولست أدري كيف استطعت الصبر الى أن وقف القطار في محطة (مالي) ، فقفزت الى المحطة وأرسلت خادمي الجندي الى العربة المجاورة لنا . وبينما انا واقف أرتجف كان الخادم يسأل في تلك العربة :

ـ هل السيدة عائشة هنا ؟

فأجابوا : ـ نعم

وحينئذ أسرعتُ الى العربة وطرقت بابها . فلما فتح لي رأيت عائشة جالسة في زاوية العربة ، وعلى الارض فانوس ينير الشطر الادنى من وجهها ، وعيناها في الظلام ، وهي لابسة بذلة أخت . فما كان مني إلاّ أن اقفلت باب العربة وجثوت ملتصقاً بركبتها . فدفعتني بيديها دفعاً عنيفاً وقالت بلهجة تنمّ عن الاستهزاء :

ـ ليس هنا من يعلم أننا خطيبان . فأرجو أن تكون لكم سلطة على نفسكم

فنهضت في الحال وقعدت أمامها . و بالرغم من الظلال التي كانت تلوح على وجهها ، ومن الاستهزاء الذي كان يبدو من لهجتها ، فان كلمة « اننا خطيبان » سكنت قلقي • ولا غرو فان الرابطة السرية التي بيني و بين عائشة كانت موجودة ؛ وأنا لم أكن أطمع بشيء آخر . ولكن سكوتها ، واكفهرار وجهها الذي يشف عن شدة تأثرها ، كان مما يثير قلقي ويزيد مخاوفي ، فسألتها :

ـ ما بك ياعائشة ؟ ومنذ كم أنت في انقرة ؟ وهل جئتم مع جمال ؟

أجابت : ـ ان جمالاً حضر الى انقرة منذ أسبوعين أما أنا فجئتها لامضي ثلاثة أيام فقط آخذ فيها بعض أشياء طلبها رئيس الاطباء . ثم انه لابد لي من رؤية أنقرة مرة ، أليس كذلك ؟

قلت : ـ ولماذا لم تبحثي عني ؟

أجابت : ـ لم أكن في باديء الامر أعرف أين أنت

قلت : ـ و بعد ذلك ؟

أجابت : ـ وبعد ذلك علمت مكانك ولكن لم يكن لي سابق معرفة ببنات عمك

لما قالت ذلك جعلت أفكر فيما يكون من تأثير ما جرى في المحطة عليها ، فيبعث ذلك في نفسي الخوف . ثم خطر على بالي أنه لا بد لي من أن أقول لها كل شيء فسررت بما ربما يبدو لي من مظاهر غيرتها . فسألتها :

ـ وهل لم تريني ياعائشة عند ما كنا في المحطة ؟

فلم تجبني على سؤالي . وانتظرتُ برهة ثم اقتربت من وجهها فرأيت عليه آثار الوهن والارتخاء ، وحينئذ بادرت فجثوت ملتصقاً بركبتيها . وكان القطار يسير بنا فجعل رأسي يمس ركبتيها في كل هزة يهزنا بها القطار . فقالت :

ـ لقد كان في المحطة أطفال من المهاجرين . وان واحداً منهم . . .

وخنقتها العبرات فلم تستطع اتمام كلامها . وجعلت تبكي بكاء طويلا . ففهمتُ أنها تبكي لماضي غربتها ولاسباب أخرى . وأمسكت يديها

بعاطفة الاخاء ؛ وجعلت أُلمسها باحترام ؛ وألمس رجليها ـ كما يفعل الطفل ـ من فوق حذاءيها اللذين كانا لاصقين بركبتيّ . وبعد أن بكتْ كثيراً عادت اليها السكينة ؛ ولكنها لم تتكلم في شيء من شئوننا الخاصة . وكنت مضطراً الى الانتقال من عربتها عند محطة (بولادلي) لأننا سنفترق في صباح اليوم التالي حيث أجتاز (اسكي شهر) بالقطار وتبقى هي في تلك المدينة . ومع ذلك فانها لم تكن تصغي اليّ ؛ وقالت لي بمثل تذمر الصبي المريض :

ـ ان نفسي مضطربة ، فلا أقوى على الكلام

قلت : ـ وهلا تسأليني كيف أمضيت أوقاتي في أنقرة ؛

فأجابتني بتهاون وعدم اكتراث : ـ تكلم ان شئت !

وبذلك أبعدتني عن الموضوع الذي كنت خائفاً منه

ولما انتقلتُ من عربتها في محطة (بولادلي) لم تمكني من تقبيل يدها الا بصعوبة . واستأنف القطار سيره بنا ؛ فكنت وأنا جالس مع رفقائي في العربة الاولى لا أملك ثورة عواطفي المنبعثة عن وجود عائشة على مقربة مني وراء الحاجز الخشبي الذي يفصل بين العربتين . وحدثتني نفسي بأنها علمت بخروجي للفسحة في انقرة مع بنات عمي ؛ فأيقظ ذلك حسّ الغيرة النسوية في قلبها . فكان ذلك يحملني على أن أسرع بالوصول اليها لاخبرها بمبلغ حبي لها ، وأنني انما أعيش لاجلها

ولما كان صباح اليوم الثاني وصل بنا القطار الى محطة (اسكي شهر) فنزلت عائشة ؛ وصافحتني في جملة من صافحتهم من معارفها ؛ وذهبت . ثم سار القطار في الحال فوقفت في نافذة العربة أنظر من بين الاشجار الى عائشة حتى غابت ذيول ملابسها عن نظري ، ثم ألقيت بنفسي في العربة وحيداً فريداً

وبعد جلاء جيشنا عن (أسكي شهر) وقفنا نحارب في (سيد غازي) ، وكانت عائشة أهم ما أفكر به في اشدّ ادوار الهجوم والدفاع . فكنت أتساءل عما اذا كانت عادت بمستشفاها الى أنقرة ؛ أم هي في (بولادلي)

وفي يوم من أشد أيام الحرب ، وذلك عند هجوم فرق الفرسان على سيد غازي ، كنت جالساً ازدرد طعامي الى جانب الاوراق التي أعمل بها في الخيمة ، فسمعت الباب يقرع ، ثم رأيت جمالاً ينادي بصوته الجهوري الجميل :

ـ الى متى وأنا أبحث عنك ؟

وكان معفراً بالتراب من قلنسوته الى قدميه ، والغبار قد علق بحاجبيه وشاربيه . وضرب أحد حذاءيه بالآخر تلك الضربة الشديدة المعهودة ، ومدّ اليّ كلتا يديه ، فصافح بهما كفيّ ، وكاد يخلعهما من مرفقيهما . وشعرت بأن نشاطه قد بعث فيّ قوة بدّدت كل ما كان متسلطاً علي من ضنك وضيق صدر . ولا عجب فان من بواعث السرور الاتصال بمن هو من ذوي قرباها ، ولا سيما اذا كان أخاها جمالاً

وأكرمت جمالاً بكل ما وجدته في خيمتي ، وطلبت له قهوة . وكان يواصل أحاديثه دون أن يصغي الي . ومما قاله :

ـ أهنئك ياهذا . ولكن كيف يعقد المرء خطبته ولا يخبر بذلك اخوانه؟

فرقص قلبي فرحاً لكلمته هذه ، ولم استطع أن أجيبه الا بعد هنيهة . وقلت في نفسي : اذن فان عائشة أخبرته بحادثة (اسكي شهر) التي كنت أخشى أن تكون حلماً فعلمت الآن أنها حقيقة . وأردت أن أعرف ماذكرته عائشة لاخيها من خبرنا ، فسألته بلكنة وتردد :

ـ وهل هي التي أخبرتك بذلك ؟

قال : ـ وهل أنت في حلم أيها الأخ ، متى كنتُ أعرفها حتى تخبرني هي ؟ ان الذي قلته لك اشاعة تداولتها الألسنة . ثم أي حاجة الى الدليل بعد شهادة العين ؟

فسألته : ـ من التي أنت تعنيها ياجمال ؟

فاحمر وجهه قليلاً وقال : ـ وأنت من التي تعنيها يا احسان ؟

قلت : ـ وماذا يدريني • انك تنطق اليوم بالألغاز

قال : ـ أي الغاز ؟ أنا رأيتك بعيني في (غابة ديكمش) بانقرة • وقد كان رأسك الى جانب رأسها كأ نكما حمامتان

قلت : ـ ها ! أنت تعني تلك • • •

قال : ـ وهل هنالك غيرها ؟

قلت : ـ ما ذا تعني يا جمال ؟

قال : ـ لقد وجهت الي سؤالاً غريباً بقولك آنفاً « وهل هي التي أخبرتك بذلك ؟ » فهل أنت خطيب لاخرى أنا أعرفها ؟

فبرهنتُ على مقدرة عظيمة في السياسة اذ قلت له : ـ يظهر أنك معجب بابنتنا الصفراء ، ولعلك خطبتها الى أهلها فاتخذوني وسيلة ليردوا طلبك

فضحك حتى استلقى على ظهره وقال : ـ اذا لم تكن أنت خطيبها فلا بأس

قلت : ـ الحقيقة هي أن ابن عمي أراد أن يزوجني بتلك الفتاة الجميلة ، ولكني لم أر معنى للزواج ونحن لا نزال متشردين كما ترى

قال : ـ اذن تتزوج اذا انتهينا مما نحن فيه

قلت : ـ على كل حال لن أتزوج ابنة عمي

قال : ـ لماذا ؟

قلت : ـ يظهر انك وجهت انظارك الى الزواج بها • فان كان ذلك حقاً فانا مستعد لاتمام هذا الامر بكل سرور • ولكني أريد منك قبل كل شيء أن تخبرني بما يقال عني ، وعن سبب مجيئك الى انقرة ، ولماذا صرت تتواري عني ؟

قال : ـ أنا أمزح أيها الصديق ، وهل تظن أن أختي عائشة تدعني أتزوج ؟ وأما ما يقال عنك فان عائشة كانت تريد ـ بعد واقعة أين أوني الثانية ـ أن تأتيني الى (افيون قره حصار) • وقد انتظرتها زمناً غير قليل ، ثم أرسلتْ الي برقية تقول فيها انها لا تستطيع ان تترك أعمالها في المستشفى وانها أجلت زمن حضورها • وفي خلال ذلك كان القائد قد سمح لي باجازة

شهر ونصف شهر اقضيها في (اسكي شهر) لمعالجة أسناني ، فاجتمعت بعائشة ورأيت أنها صار لهـا بعد سفرك مستشفى على جانب من الاهمية . وكان أحد قدماء اصدقائنا أصيب بجرح في مطاردات بحيرة (اينه)

قلت : ـ ومن هو ؟

قال : ـ صديقنا القديم الذي يقود فرقتنا

قلت : ـ حشمت بك ؟

قال : ـ أجل . وقد كان يعالج في الغرفة التي كنت تعالج أنت فيها من فندق مدام (طادية) . وانتهزت أنا فرصة اجازتي لجئت الى انقرة لامضي فيها بعض الايام . وبعد قليل حضرت عائشة أيضاً . فسألتها « كيف تركت المستشفى وحضرت الى هنا ؟ » فقالت انها جاءت لتمضي ثلاثة أيام فقط وأنها أقامت على عملها في المستشفى أختاً أخرى . ونزلت معي في الخان الحجري . وخرجت في اليوم الثاني لابحث عنك ، فذهبت الى (غابة ديكمش) مع صديقنا اليوزباشي حيدر رمزي . وفيما نحن هناك وقع نظرنا عليك أيها المحترم ومعك الفتاة الصغيرة وكأنكما حمامتان بين تلك المروج ...

قلت : ـ حسن جداً . ثم ماذا ؟

قال : ـ لما رأيت ذلك ضاق صدري وقلت لحيدر رمزي « اذا لم أكن مع عائشة لا أستطيع أن أكون في مكان فيه نساء » . ولما رجعنا من هناك قال لي حيدر رمزي انه علم بأنك خطبت الفتاة وأن ذلك صار معلوماً عندكل من في أنقره . فسرني هـذا الخبر ، وكان أول شيء حدثت عائشة به عنـد اجتماعي بها في مساء ذلك اليوم

ولما كان جمال يحدثني بهذا الحديث كان قلبي يخفق بشدة ، ولم أقو على منع يدي من الارتجاف . ولحسن الحظ لم يكن جمـال متنبهاً لما أنا فيـه . وكان قد انتهى من تناول ما قدمتـه له من المآكل ، واستمر في حديثـه وهو يشرب قهوته ويدخن سيجارته كأنما يقص علي قصة لا شأن لي بها . قال :

ـ وأردت زيارتك أنت وخطيبتك ، فامتنعت عائشة من ذلك كل الامتناع

قلت : ـ أرجوك أن تصحح كلامك ، فالفتاة لم تكن خَطيبتي

قال : ـ وعلى كل حال فان عائشة كانت تعتذر قائلة « ان أولئك جماعة متفرنجون ؛ وأما أنا فامرأة انضولية حزينة ، ولا أرى أن أزعج بزيارتي هذين الشابين السعيدين . أما عريس (اسكي شهر) فاننا نتمكن بأية حال من تهنئته هناك » •وحاولت كثيراً أن أثنيها عن عزمها هذا فلم أنجح . وكانت تريد أن تقيم في أنقرة ثلاثة أيام فسافرت قبل اليوم الثالث قائلة انها قد اشتد قلقها على مريضها . فأذعنت لارادتها وأرسلتها . وعلمت بعد ذلك أنك كنت في نفس القطار الذي كانت هي فيه ؛ ولو كنت أعلم ذلك لأخبرتك بسفرها وطلبت اليك أن تلاحظها . فهل تقابلتما في الطريق ؟

قلت : ـ نعم تقابلنا . وأين هي الآن يا ترى ؟

قال : ـ بقيت في (بولادلي) ؛ ولم تحضر الى أنقرة مع الهلال الاحمر . ولا بد انها أرادت أن تكون في احدى القوات السيارة . واني أعرف رئيس أطباء القوة السيارة في فيلقكم ، وسأخاطبه في هذا الامر . زد على ذلك أن فرقتنا ستكون تحت أمر فيلقكم

ولما بلغ احسان من حديثه الى هذا الموضع كنا قد أشرفنا على القرية ؛ فسكت . وكانت القرية منبسطة أمامنا بمنازلها البيضاء ، ولم يبق من مصابيح الخيام المضروبة في الوادي غير عدد قليل هنا وهناك ؛ الا القوة السيارة فان مصابيح خيامها كانت لا تزال مضيئة . فوقف احسان وقال :

ـ آه ، لو استطعت أن أعرف هذه المرأة على حقيقتها ولو مرة واحدة في العمر : اني لا أزال أجهلها ، وسيقتلني ألم جهلي هذا السر المكتوم . اني أشعر بالبرد يا يامي ، فلنسرع :

ان الشطر المؤلم من قصة احسان هو الذي سيأتي فيما بعد . وهذا الفتى

قد ألهب القميص الناري ظهره منذ زمن طويل ؛ حتى وصل اللهيب الى جوفه

ولما صرنا في غرفته رأينا فيها موقداً تتأجج النار فيه . فجاس على كرسيه أمام الموقد ؛ وكان له ساعتئذ وجه صغير ورأس كرأس الشيخ المسن . فأخذ يدخن سيجارته ، ثم استأنف حديثه فقال :

ـ وكنت قبل ثلاثة أيام من سماع الاخبار التي ذكرها لي جمال في خيمتي أشعر بأني أعيش في برميل مجهز بالابر ، بل في برميل ذي ابر محماة بالنار

فضحكت وقلت : ـ بل قل « في قميص من نار » يا احسان !

قال : ـ أنا راض بالقميص الناري لو لم تكن فيه الابر المحماة بالنار . ان آلامي التي كانت ذات ألف وجه ووجه ما برحت منطوية على سر مبهم كلما حاولت الوصول اليه أفلت من يدي . لقد سمعت عائشة بخبر خطبتي فغارت . وقابلتني من أجل ذلك مقابلة باردة في القطار ، ومن أجل ذلك بكت . وان عزة نفسها منعتها من زيارتي في أنقرة . آه ؛ يالها من آلام جميلة ولذيذة ! وهنالك فكرة ألذ من ذلك ، وهي أنني أرضى بتمزيق دماغي بالرصاص في سبيل الوقوف بين يديها والانكباب على أذيالها طلباً لتصحيح ما قام في ذهنها نحوي من اعتقاد باطل . . . وحينئذ أموت سعيداً برؤية شفتيها الحارتين ملطختين بالدماء التي ينزفها رأسي للمرة الأخيرة . ولكني اذا عزمت على ذلك تبدو لي شبهة جديدة مجسمة بشكل رجل وهو حشمت بك ! ذلك الذي أريد أن أفكر فيه دائماً بكل ما في ارادتي من جهد ! ها اني أراه أمامي بشعره الاسود الذي شاب منه الفودان . . . أريد أن أدفعه من طريقي ضارباً رأسه بقبضة يدي وصائحاً في وجهه :

ـ ان ذلك لا يكون . ان ذلك لا يكون !

وكأني بعائشة واقفة أمامي الآن وهي في أشد أطوارها برودة وتراخياً . وكأنها تنظر باستهزاء الى خرافة خطبتي لها . وكيف يعقل أن تغار علي من امرأة أخرى ؛ فلعل ماظننته جرى في المستشفى انما كان من هذيان الحمى .

أو لعلها تصدقت علي بكلمة أرادت أن تنقذ بها حياة رجل بائس فنطقت بتلك الكلمة رحمة واشفاقاً . ولكن مثل هذه المرأة الحازمة الصادقة لا يمكن أن تسجل على نفسها وعداً مهماً كهذا بدعوى أنه صدقة ورحمة . اني لا أزال أذكرها يوم حدقت عينيها بعيني وقالت كلمتها بصوت جهوري موزون . ثم كيف أنسى مس أصابعها الحارة وهي تغمض عيني ، ان أثر ذلك لا يزال يجول في جسمي وفي روحي

ان هزيم المدافع ، وصرير عربات النقل ، والوحل ثم الوحل ثم الوحل ! ومبارزة الموت وجهاً لوجه وسط مصاعب لا حدّ لها ، كأن كل هذا لا يكفي فانضمت اليه عائشة ، وألف ألم وألم من عائشة ! ثم انكم تزعمون أنني في ريعان الشباب . انظر الى وجهي ، ألست أكبر سناً من حشمت بك ؟

ونظرت الى احسان وهو جالس وراء الموقد فرأيت له وجهاً بقدر الكف ، وان على هذا الوجه أديماً وصلت غضونه الكثيرة الى عينيه ، وكأن وراء هاتين العينين روحاً أزليــة ما برحت أليفة الأكدار والآلام من سنين لا تحصى ، فهي ذات عمر مجهول ، فلا يمكن أن يقاس ماضيها ولا حاضرها بمقياس الزمان . ولست ادري لماذا تذكرت حينئذ صورة من صنع أحد كبار أساتذة الجامعة الهولندية كنت رأيتها في أحد متاحف فينا وكانت الغضون والألوان الممتدة في هذه الصورة الى الجفنين ظاهرة بوضوح وجلاء . فلما وقفت من أحسان أمام هذا المشهد مددت كفي الى خديه فلمستهما متحبباً ومشفقاً ـ ولم أكن ألاحظ قبل هذه المرة أن روح احسان كانت تقاسي آلاماً أعظم من آلامي ولا تشبهها بحال من الاحوال ـ ثم قلت له :

ـ يلوح لي أنك ابن مائتي سنة يا احسان

فلم يسمع كلمتي لأن عينيه لاتبصران غير قلبه . واستمر في حديثه فقال :

ـ وانتهت معركة (اسكي شهر) ، فنزل معسكرنا على الضفاف الشرقية من سقارية . وكنا على أبواب هجوم جديد وبقيت أبحث مدة طويلة لأعلم

ما اذا كانت عائشة التحقت بقوتنا السيارة أم لا ؛ الى أن علمت أخيراً أنها التحقت ، غير أن معسكر القوة السيارة كان بعيداً عن مضارب الفيلق ، فهو في (كوكجه بينار) بجوار فرقة حشمت بك

قلت ـ وكان جمال في فرقة حشمت بك . . .

قال : ـ نعم ، نعم . ذلك هو منفذ النور الوحيد الذي كان يطمئن قلبي يا بيامي . غير اني كنت دائماً أترقب فرصة تسنح لي لاذهب بنفسي الى فرقة حشمت بك بصفة مفتش . وكم ذا تذرعت لذلك بذرائع ، وكم ذا نصبت من حبائل للوصول الى هذا الغرض . كن واثقا ان عظماءنا لم يبذلوا جهداً أعظم من هذا الجهد عند ما وضعوا صيغة (الميثاق القومي). وأخيراً ظهرت مسألة تتعلق بعلم رسم الارض لا يمكن حلها بالتلفون أو بالرسائل فحصلت على أمر من القائد بالذهاب الى هناك ، وما عتمت أن طرت الى فرقة حشمت بك طيراناً رغم رداءة الطقس وكثرة الامطار وشدة البرد في ذلك اليوم ؛ فلم تمنعني الوحول التي كانت تصل الى ركبتي جوادي من أن أنهب به الارض نهباً . ولما وصلت الى القرية التي فيها معسكر الفرقة أمرت واحداً من الفرسان الذين كانوا يتبعونني ورائي أن يبحث عن موضع القوة السيارة لاني سأذهب لتفتيش المستشفى متى خرجت من عند قائد الفرقة . ثم ترجلت عن جوادي واسرعت الى مقر حشمت بك

ولما فتح لي الشاويش باب الغرفة رأيت دخان الموقد قد ملأ هواءها الى السقف المصنوع من الحصير والقصب ، والى جانب النار منصة مستورة بستار أبيض ومن حولها ثلاثة أشخاص كأنهم السحرة ، وهم حشمت بك وجمال وعائشة . فلما رأيتهم غبت عن الوجود ، وتحول نظري الى الجذوع المشتعلة في الموقد ، لأني شعرت باني رجل غريب عن الحاضرين . فنهض لي الجميع وقوفا على أقدامهم ، وكانت أمارات السعادة بادية على وجه حشمت بك ، فرحب بي مغتبطاً . أما جمال فلا يزال جمالاً الذى أعهده ! وأما عائشة

فقد ضايقها الحر فتجردت من معطفها ، وجلست بثوبها الابيض غير ناظرة الى البنباشي الذي دخل الغرفة عليهم ، ولم يكن أحد غيري يلاحظ عنقها الذي كان يبدو منه عرض إصبع بين شعرها الاسود المقصوص وبين قبة ثوبها الابيض ، وان هذا المقدار من عنقها كان مثل سن الفيل في انتظامه وقوته واستدارته . فتساءلت في نفسي : ترى اذا ضرب هذا العنق الجميل المستدير بسيف صارم هل يقطعه من هذا الموضع بين شعرها وقبة ثوبها فيرميه على الارض ؟ ومما لاحظته أيضاً انها علقت معطفها فوق فروة حشمت بك فتداخل معطف المرأة وفروة الرجل تداخلاً لم ينتبه اليه أحد غيري . ومع ذلك فاني ـ أنا البكباشي الداخل الى هذه الغرفة وفي يديه سوط وقفازان ـ قد أديت التحية للحاضرين ، وجلست بأدب وهدوء كأني ماكنة . وأردت أن ابدأ حالاً بالكلام ، فنظرت الى خريطة مبسوطة على المنصة التي لا تزال صحاف الطعام موضوعة عليها ، وقلت :

ـ نرجوك العفو يا سيدة عائشة عما سنحرج به صدرك من مناقشاتنا العسكرية

فأجاب حشمت بك : ـ أنا مدين بالشكر للاخت عائشة ، قد كان جرح ساعدي هذا هماً من همومي ، واني الى الآن لا أكاد أتحمل آلامه . وان الاخت عائشة تتفضل بالمجيء في كل مساء لدلك ساعدي ، وهي تحتمل في أثناء ذلك ما تقوم به من الاعمال العسكرية . ولكننا متى قمنا بحركات التقدم سأكون محروماً من فضلها هذا

فشرعت أنا أقول : ـ ان هذا الخط الممتد من الجنوب الى تحت . . .

وكان كل كلامي متعلقا بالخريطة ، وعزمت على أن لا أفوه بكلمة خارجة عن ذلك . وفيما أنا في أثناء هذا العمل الجدي خطر ببالي خاطر ، فجعلت أحدق النظر فيما بين حاجبي عائشة ، وأقول في نفسي : ترى هل أستطيع اطلاق رصاصة تمر في ذلك الموضع الابيض بين حاجبيها دون أن تمس مبتدأهما ؟

وهل اذا أطلقت المسدس عن قرب أستطيع أن اخترق رأسها عند الخط الابيض من شعرها . ثم سألت جمالاً :

ـ ترى يا جمال كم مليمتراً يكون قطر الثقب الذي تخترقه الرصاصة ؟

فضحك الجميع من هذا السؤال الغريب ، وضحكت أنا أيضاً معهم

ولاحظت أن عائشة لم تكن منقبضة من وجودي . وقد ظهرت بمظهر الصديق اللطيف الخالي الذهن ، وتنظر الينا جميعاً وعلى السواء بنظر واحد ، وتبتسم لنا ابتسامتها المعهودة . وليس في الامكان أن يزعزع شيء من الاشياء هذه المرأة أو يزلزلها وهي في مكانها ، بل لو اصيبت برصاصة من بين حاجبيها لظلت عيناها تنظران بالسكينة التي ألفتها ! وأنا أعلم أنها لو كانت عصبية مترددة لحملتُ ذلك على أسباب أخرى وظللت متألماً

وأكملت عملي بسرعة ، وفررت من بينهم . وكان أمام باب حشمت بك ركام من الحطب ، فصاحوا بي :

ـ احترس من الحطب !

أما أنا فركبت جوادي وكدت اخرق بطنه بضربة المهماز ، فطار بي ينهب الارض ، وحاول الجندي من ورائي أن يدلني على معسكر القوة السيارة فلم أصغ اليه ، لاني كنت اطلب الفرار ، ولكن من أي شيء أنا أفر ؟ لقد كنت أحاول عبثاً أن أفر من دماغي ومن الذي فيه !

ولست أدري كيف قضيت تلك الليلة . فلما صار الصباح وأبصرت بوادر النور شعرت بشيء من الحرارة والسكينة فناديت بملء فمي « ألم يكن ممكناً أن تقوم اخت أخرى بعملية التدليك لجرح تمّ شفاؤه ؟ وأين كان ينبغي أن تعلق معطفها ؟ » ثم سارت ماكنة الحياة فدارت أسنانها بي وبجميع الفيلق دورة أخرى

ومنذ ذلك اليوم صرت أهتمّ بشيء آخر كاهتمامي بتقارير الحرب : وهذا الشيء الآخر هو الطريق الموصل بين فرقة حشمت بك والقوة السيارة ،

فصرت اراقب ذلك الطريق خطوة خطوة ، لاعلم ما اذا كان صاحبنا قد غير موضعه أم لم يغيره . ولم يكن فيلق من الفيالق التركية النازلة على سقارية يهتم بلوازم مستشفى قوته السيارة كاهتمام فيلقنا

وفي الدقيقة التي ابتعدتْ فيها فرقة حشمت بك عن موضعها شعرتُ بأن المخالب التي كانت ناشبة في صدري قد ارتخت بعض الارتخاء . وتأكد يابيامي اني شعرتُ بالراحة شعورا ماديًا بعد أن كنت أحسّ في صدري بالوجع من جرّاء الضغط الذي كان منيخاً عليه

وذهبت أنا والقائد الى (خيمانة) في مساء يوم من ايام الحركات الحربية الشديدة ، وكانت هذه البلدة كلها عبارة عن مستشفى عظيم . وكل ما في شوارعها من عربات نقل وعربات خيل ومحفات مشغول بنقل الجرحى . ولم يكن النظر يقع في شوارع هذه البلدة ذات الوحول في أرضها والظلام في هوائها الا على جنود الصحة بملابسهم البيضاء وفي أيديهم الفوانيس ، أو على الاطباء وهم يتراكضون تحت الامطار يصدرون الأوامر . وقد جرح من فيلقنا كثير من قواد الألايات والتوابير . وأنت تعرف اثنين منهم وهما اليوزباشيان أحمد سليم وخيري اللذين كانا يجلسان معنا في قهوة المسرة بالاستانة . وكان من دأب قائدنا ان يهتم بالجرحى ويتعهدهم بعنايته . ولما يكون مجتمعاً مع الباشوات يرسلني أنا الى المستشفى

وانتصف الليل ونحن لا نزال امام مناظر الدماء والآلام في شوارع (خيمانة) ، ومع ذلك فان الحرب كانت في تلك الساعة في ابان شدّتها ، والقنابل تتساقط حول البلد . وطفت جميع المنازل والخانات فلم أر أحداً ممن نعرفهم . وأخيراً رأيتني أمام مسجد البلد ، وكان المسجد ايضاً في حالة المستشفى ، فدخلت اليه من بين المحفات والمجروحين ، وكانت مصابيح المسجد جميعها مضيئة ، والارض غاصة بالمحفات التي تكاد تكون متراكمة بعضها فوق بعض ، وفي الهواء بعض دخان . والجنود المضمدة رءوسهم يحدقون

عيونهم الصغيرة في كل ضابط يدخل عليهم ، فناديت :

ـ هل هنا صبري بك قائد الألاي رقم ... وخيري بك وأحمد سليم بك قائدا التابور ؟

وسمعت صوتاً من أعماق محراب المسجد فتقدمت نحوه . وهل تدري من الذي رأيته وسط هذا الانين والدخان والزحام ، وبين هذه البقايا البشرية المصبوغة بالنجيع الاحمر ؟ ان الذي رأيتـه جعلني لا ألتفت الى المسكين أحمد سليم النائم الى جانب المحراب وقد لف رأسه بالضماد . لقد رأيت جندياً منكباً في المحفة على وجهه وعائشة جاثية أمامه مع الطبيب يضمدان جرحاً في خاصرته ، وكأني الآن أنظر الى جسم ذلك الجندي العريان تحت نور سراج أصفر قذر ، فكان المسكين يخور خوار العجل لشدة ألمه قائلاً :

ـ الامان يا أختي ، أبوس قدمك يا أختي !

وكانت عائشة مشمرة زنديها ، وتعمل بيد صناع ، مساعدةً الطبيب بكل ما يلزم لاسعاف الجريح بسرعة ، هذا بينما جميع الجرحى الموجودين على مقربة منها ينادونها طالبين منها ما يحتاجون اليه ، ورأيت ضابطاً مجروحاً من عينيه الاثنتين وهو متكيء على اثنين من الجنود ويقول :

ـ متى تضمدون لي جرحي ؟ انني لا أحتمل ألم الوخز الذي أشعر به

ولما انتهت عائشة من اسعاف الجندي الذي كانت جاثيـة أمامه غطته ببطانية ، وأصلحت له قلنسوته التي يلبسها برأسه الكبير ، وقالت له :

ـ شفاك الله أيها المواطن . ابقَ هكذا منكباً على وجهك ، وستحتمل بعض الضيق ، ولكن الألم سوف يزول عما قريب

وأمرت الممرضين بأن ينقلوه من المحفة الى العربة لينام فيها لأنها أثبت من المحفة . وأخذتْ بيد الضابط المجروح من عينيه وجاءت به الى أمام المحراب وجعلت تساعد طبيباً رقيق الجسم طويل القامة على تضميد جرح الجريح تحت نور المصباح الضئيل

وبالجملة فاني لم أكن أسمع هنالك وأرى غير انين الجرحى الصادر من أعماق قلوبهم ، ووقع أقدام الذاهبين والآيبين لاسعافهم ، ووسط جميع هؤلاء الاخت عائشة ذات القميص الابيض : وقد كان وجهها مصفراً قليلا ، وعيناها الزمرديتان تتقدان من بين اهدابها السوداء في وجهها البادية عليه آثار التعب ، ولم يسبق لي أن رأيت عينيها أكثر جمالا مما رأيتهما في تلك الليلة ، ولم يكن يعتريهما شيء من ضعف النسوية والجنسية وغير ذلك من الضعف البشري . فهي تبتسم لكل ساكني هذا المسجد من الجرحى بما حول شفتيها من خطي الشفقة والحب اللاهوتيين وبما وراء ذلك من مقدرة وسكينة لا يؤثر عليهما شيء

لقد أحببتها حباً جماً . ولقد ذكرت بها صورة كنت رأيتها في أحد الكتب ابان طفولتي ، وهي صورة تمثال حجري لبوذا يطوف به الهنود في يوم من أيامهم الدينية ، ويتهافتون على السقوط تحت عجلات حجرية تسير بهذا التمثال متقربين اليه بالموت لاجله . فوددت أن أسقط وأسحق تحت قدمي هذه المرأة التي كانت تخوض الدم والنار ، وكأنها تمثال الرحمة والقوة والوطن المتألم ، ووقفت برهة لا أفكر في سبب مجيئي الي ذلك الموضع . ثم سمعت أحمد سليم يقول :

ـ ألست تراني يا احسان ؟

قلت : ـ كيف أنت أيها الصديق ، أنا آت لابحث عنك

وانحنيت لأنظره ، ثم سألته :

ـ من أين جرحت ؟

قال : ـ من رأسي

قلت : ـ ومن جرح غيرك من أصدقائنا ؟

قال : ـ ان قائد الألاي قتل

قلت : ـ ومن يقود تابورك الآن ؟

قال : ـ الملازم سالم

قلت : ـ هل تشعر براحة ؟

قال : ـ قد تحسنت صحتي ، واني انتظر صدور الامر باعادتي الى الجيش

وكان الجنود والمرضون يدخلون بجفعات لا يحصى عددها ، ويخرجون بغيرها . أما عائشة فكانت لا تزال غير عالمة بوجودي . فالتفت اليها ، وقلت لها :

ـ ما ذا تصنعين هنا ياسيدة عائشة ؟

وكانت ممسكة بيديها رأس الضابط المجروح من عينيه لتمنعه من تحريكه أثناء التضميد : فأجابتني :

ـ أصبر قليلاً أيها الأخ ، فاني اضمد جرحاً كما ترى . وأنت كيف أنت ؟

قلت : ـ لقد ابتعد تم عن القوة السيارة

قالت : ـ لقد حضرت مع الحملة الصحية التابعة لفرقة جمال ، وكانوا هنا في حاجة الى أيادي كثيرة للعمل فدعوني أنا والطبيب الى المجيء في الحال

وفيما نحن كذلك رأينا وميض لهيب من نافذة المسجد ، وسمعنا هزيم قنبلة : ثم علمنا أن القذيفة سقطت على مقربة من البلدة . وصاح صائح من مدخل المسجد :

ـ أسرعوا بعمل الضماد ، فان في العراء جرحى تحت المطر . وأنت أيتها الاخت عائشة تعالي الى هنا !

فاسرعت عائشة كالصاعقة . ووقع نظرها وهي في الطريق على جندي جريح حديث السن لم يكن ينبس ببنت شفة ، وان عينيه السوداوين الغائرتين كانتا تعانيان ألماً . وابيضت شفتاه الغضتان . فوقفت عائشه عند رأسه ، وانحنت فأسرّت اليه كلاماً ، ثم أصلحت غطاءه ومضت . ولاحظتُ أن شفتي الجندي تقلصتا ، وان عينيه ازدادتا حياة وأملا

ولما افترقت عن أحمد سليم بحثت عن جرحى فيلقنا ، واجتمعت بهم ،

فسألتهم عن حاجاتهم ؛ وأبلغتهم تحية القائد . ولم أقصد عائشة عند خروجي من المسجد ؛ ولكني رأيتها تتحرك في قميصها الابيض وسط جماعة تعلو من بينها أصوات التألم . ولما خرجت من المسجد نظرت ــ للمرة الاخيرة ــ الى من فيه من الجرحى الراقدين بملابسهم الخاكية تحت الانوار الصفراء فشعرت حينئذ بعاطفة الخشوع تملأ فؤادي الذي لم يبلغ قط ما بلغه في تلك الساعة من درجات العجز البشري . وما هو الا كلمح البصر حتى طالت يداي ملكوت السماء ؛ واغتسل قلبي بالنور ؛ فلم يبق فيه حسد ولا غيرة ولا ألم ؛ وأخذت الدموع تنحدر من عيني بلا انقطاع

وكانت أنوار الصبح تتبلج ؛ والمؤذن يؤذّن من منارة (خيمانة) ؛ عند ما خرجت منها مع القائد . وكلما ابتعدنا عنها كنت ألحظ جامعها بعيني وبقلبي ؛ فأتخيل القوم مثابرين على تضميد جروح الجرحى ؛ وبينهم تلك الدمية البيضاء التي تمثل الرحمة والحب ؛ وهي عاكفة ــ فيما بين آلام الاحتضار ــ على الذين يموتون في طريق ازمير ، فتصب نور قلبها من عينيها في قلوبهم

وبعد ثلاثة أيام من مسرح (خيمانة) جاءني رئيس أطباء القوة السيارة ليفاوضني في اكمال بعض نواقص المستشفى . حتى اذا انتهيت من قضاء مهمته قلت له : ــ انكم ياحضرة الدكتور جعلتم الاخت عائشة في الحملة الصحية التابعة للفرقة رقم ٠٠ وأنت تعلم المخاطر التي تتعرض لها امرأة اذا كانت في الحملة الصحية . فأرى أنكم أخطأتم فيما فعلتم

أجاب : ــ ان القائد حشمت بك جاءنا في أحد الايام وذكر أن فرقته ستقوم بحركات مهمة ، وطلب أن تكون الاخت عائشة معهم . وأبدت هي رغبة عظيمة في ذلك ؛ وقالت « أنا لا أصلح للحرب ؛ ولكني أكون مع الفرقة في الحملة الصحية » فلم أعترض أنا على أن يكون ذلك بصورة مؤقتة

قلت : ــ ان الاخت عائشة ممرضة مستشفى حربي ؛ فأمروا حالاً بعودتها الى القوة السيارة ، وأخبروني تلفونياً برجوعها

وقبل أن يخرج الطبيب من غرفتي خفت أن يقفز قلبي من جوفي فضغطت عليه بيدي . والآن فان آلامي لم تعد قاصرة على ما تشعر به روحي من وخز الابر المحماة بالنار ، بل غدوت أتوقع نسج العقدة الاخيرة من حبل المشنقة التي ستوضع في رقبتي فارجح بها في الهواء

لقد انطفأت في نفسي مصابيح مسجد (خيانة) ؛ وتغير اعتقادي في الدمية التي كنت أراها قبل ثلاثة أيام تمثالاً للرحمة والشفقة ؛ فصرت أراها الآن وحشاً ضارياً يستر بالقطيفة مخالبه التي تعتصر دماء قلوب أمثالي من المساكين قطرة قطرة . ومع ذلك فاني كنت أشعر بخوف مبهم غريب من أن ترفض إطاعة الامر الصادر اليها ، وجعلت اتساءل : ماذا اصنع اذا رفضت

وفي ذلك المساء نزل مقرّ الفيلق في هذا الموضع الذي نحن فيه الآن ، وحلت القوة السيارة في محله . وكنت قائماً في ذلك اليوم بمهام عملي مثل المجانين الى منتصف الليل ؛ وفي الساعة الواحدة بعد نصف الليل امتطيت جوادي وخرجت لتفتيش القوة السيارة فوصلت اليها في خمس دقائق؛ ورأيت خادمة تخرج من خيمة صغيرة فسالتها :

ـ هل الاخت عائشة هنا يا ابنتي ؟

اجابت : ـ انها في القوة السيارة تضمد جروحاً

فشعرت بأن حبل المشنقة المحيط بعنقي قد انحلّ قليلاً ، وعدت في الحال من حيث أتيت دون أن اذهب لتفتيش القوة السيارة ؛ وكأني الآن أسمع وقع حوافر جوادي على صخور الجبل المقابل لنا عند ما كنت عائداً من هناك في تلك الليلة

وفي اليوم الثاني تأكدنا من شروع اليونانيين بالانسحاب . وأخذت أتوسم نوراً جديداً وأتوقع أملاً جديداً لشفاء ما أشعر به من آلام قلبي . واستعرضت في ذاكرتي تاريخ التعارف مع عائشة وايام صداقتنا في الاستانة وما كان لي معها في (اسكي شهر) ؛ وفكرت في حشمت بك الذي كنت

أتخيله في بعض الاحيان جسيماً كالغول فرأيته الآن صغيراً جداً

ورأيت طريق ازمير كأنه ينفتح أمامنا ! فتأكدت من أننا سنصل الى ازمير ومن أن عائشة ستكون لي ، فلم أر في الامكان أن يختطفها أحد من يدي ، وعزمت على أن أبتاعها بحياتي ، بل وعلى أن أقتل حشمت بك في هذا السبيل اذا اقتضت الحال . ولست أدري كيف لاح لي أمل كأمل الحياة الذي يلوح في بعض الاحيان لمن يكونون في ساعة الاحتضار ، فجعلت أرى الدنيا مذللة امام ما أشعر بوجوده في قلبي من قدرة وشباب

واتفق أني تناولت في صباح تلك الليلة كتابا وصورة من ابنة عمي الشقراء ، وهي تعرب لي في كتابها ـ بكل مافيها من حرارة الشباب ـ عن ميلها الي وتعلقها بي . أما الصورة فمأخوذة في (غابة ديكمش) تحت شجرة بلوط . وان لها ابتسامة تنم عن ايمان وسعادة ، وعن اقتناع بقيمة شبابها وبفوزها في ميولها ، فانتبهت في الحال الى ما بيننا من موافقات ومفارقات تألمت منها وامتلأ قلبي حزنا . فبينما هي ترجو وتحب كنت أنا متوغلاً في سرداب غريب . وبينما أنا أتأمل وأحب لاأستطيع أن أزعم أن عائشة كانت في مثل ذلك السرداب . وهنا تبدو لي صورة حشمت بك ، واليأس ، وعذاب الأبد !

ان هذه الحالة لاتطاق ، فينبغي لي أن أصارح عائشة وجهاًلوجه مصارحة تامة . وسأخبرها بالآلام التي تحملتها . ثم أسمع منها كلمتها الأخيرةفأعلم بعد ذلك نصيبي في هذه الحياة . ومضت سحابة ذلك النهار وأنا في حالة الانتظار الى أن حل المساء فكان بارداً شديد الهواء

خرجتُ وقت العشاء قاصداً القوة السيارة ، وكانت عائشة على سريرها العسكري في الخيمة تريد الراحة . فلما قرعت عليها باب الخيمة نهضت من مكانها ، وتأكدتُ من أنها عند ما وقعت عينها على عيني فهمت مرادي من الحضور اليها ، ولذلك لم تسألني عن سبب مجيئي ، واكتفت بأن قدمت لي

مقعداً جلستُ عليه ، وجلست هي على سريرها منتظرة ما سيكون مني
لقد كانت آثار التعب والانقباض ظاهرة على وجهها . فبادرتُ في الحال الى التصريح لها بلهجة عسكرية قائلا انني جئت لأسمع منها تأييد كلامها الذي كانت قالته لي ونحن في مستشفى (اسكي شهر) . فأجابتني بصراحة وبلهجة عسكرية ايضاً :

ـ أنا وأنت قد تغيرنا عما كنا عليه في ذلك اليوم يا احسان ، فنحن الآن صديقان ، ورفيقا طريق واحد . وقد مضى اليوم الذي يصلح للبحث في الموضوع الذي جئتَ لأجله

قلت : ـ ولماذا يا عائشة ؟

فلما اعادت كلماتها الاولى سألتها عما اذا كانت أحبت رجلاً آخر أم لا ، فامتعض وجهها وقالت :

ـ وهل لاحظتَ أية بادرة بدرت مني تدل على ذلك ؟

ففكرت في كلامها ، ورأيت انه لم يحدث شيء ظاهر يدل على صحة هذا الظن ، فاني لم الاحظ شيئاً . ولكن قلبي يقاسي عذاباً أليماً . وفي نفسي رغبة تشبه الجنون في ان اتكلم عن حشمت بك ، غير أني آثرت السكوت خوفا من أن لا أجد ما يؤيد ظني . فقلت لها :

ـ وهل الذي سمعته منك ياعائشة هو كلمتك الأخيرة ؟

قالت : ـ أرى أن نطوي هذا الموضوع يا أحسان . وتعال نخرج ، فاني ذاهبة لتدليك ساعد حشمت بك ، وسنتكلم معاً في الطريق ولكن لاعن الايام السالفة ، بل عما ينتظر وقوعه في الايام الآتية من مدهشات الامور

فوقفت على قدمي اذعاناً لها كأني ما كنة ، وشعرت بأني جمدت . اما هي فلبست بذلتها ، وخرجنا طالبين الطريق . فجعلت هي تتكلم تحت ذلك الظلام ، وقد عامت أنا مصيري ، وقررت في نفسي ما عزمت عليه . وكان قلبي الذليل ينتظر معجزة تخرجه مما هو فيه ، ويحدثني طول الطريق بأننا لن نصل

الى القرية حتى يكون حبل المشنقة قد انحل وتخلص منه عنقي . وفيما نحن كذلك قالت فجأة :

ـ لقد حضرت أنا صباح اليوم الى الفيلق لامور تتعلق بالقوة السيارة ، ودخلتُ غرفتك . . .

قلت : ـ نعم

قالت : ـ ورأيت صورة الفتاة التي تحبك

قلت : ـ نعم

وشعرت بفؤادي يخفق وبالنار تضطرم فيه . ثم قالت عائشة :

ـ ولماذا لم تتزوّج ؟

قلت : ـ لعلكِ تخافين أن أزعجك ياعائشة اذا لم اتزوّج ؟

قالت : ـ لا ، لا !

قلت : ـ تأكدي أني لن أزعجك قط ، وسأبقى صديقك الساكن المطيع كما كنا قبل أيام (أسكي شهر)

فتنهدت وقالت : ـ ان الزمان يحلّ كل شيء يا احسان !

ولست أدري لماذا قالت ذلك . ووصلنا الى باب تشتعل أمامه النار . فوقفت أنا وعائشة وجهاً لوجه على نور اللهيب ، وجعل كل منا ينظر الى الآخر فرأيت عينيها شديدتي الحمرة وهما تحدقان النظر في عيني ممعنتين فيهما إمعاناً غريباً . فعضضتُ على شفتيّ كأني أقول لها « كفى ! »

وكان المؤذن يؤذن العشاء على منارة القرية بصوت حزين حنون ، فأيقنت من صوته أنه استنبولي . وكان الجنود يمرون أمام النار قاصدين القرية ، فظللنا واقفين نتبادل نظرات العيون وكأننا عدوّان أو كأننا لغزان ، الى ان خمدت النار وكادت تصير رماداً . وأطال المؤذن كثيراً دون أن ينتهي من أذانه ، بينما كنت أنا وعائشة نستنزف دموع عيوننا . ثم قلت لها :

ـ هل أنت تبكين يا عائشة ، لماذا ، لماذا ؟

فهزت رأسـها ، ثم نظرت الى ساعتها على نور بقايا النار المنطفئة وقالت بصوت جهوري :

ـ لقد تأخرت . أستودعك الله يا احسان !

وسارت قاصدة مقر حشمت بك في الخيام المضروبة عن يسارنا

***

ولما انتهى احسان من حديثه أشعل سيجارته ، وكان في خارج غرفته ديك يصيح وبعض الخيل الحديثة السن تصهل ؛ فقال احسان ووجهه يدل على انه ابن مائتي سنة :

ـ لقد جاء وقت عملي يابيامي . قم فنم أنت أيها الصديق ، وأنا سأقدمك في الصباح الى من يخلفني ؛ ثم أنتقل الى الألاي الذي عينتُ له

قلت : ـ لامناص من أن تأخذني معك يا احسان !

فقال دون أن ينظر الى وجهي :

ـ حسن . ولعلك يابيامي تريد أن تتعرض مثلي لنار أحمى وأشد تأثيراً من القميص الناري الذي تلبسه على جسدك

فتعانقنا . ثم قال لي بصوته العسكري الهادىء الذي كنت أعهده من قبل :

ـ نم يابيامي . وأنا سأعمل الآن

وأطلت النظر الى رأسه المنكب على الاوراق ولبثت أفكر مدة الى أن نمت على أصوات العجول والخيل والديكة التي كانت ترتفع تحت الاشعة الحمراء الاولى المنبعثة من قرصة الشمس المشرقة

– ١١ –

الطود الاسود

– ٢٠ ديسمبر ، ١٩٢١ –

مضت علي أيام وأنا مريض منهوك القوى ، وكأن النصف الباقي من جسمي قد مات ولم يبق منه حياً غير دماغي . ويلوح لي من نظرات الطبيب وأطواره أنه لم يبق بيني وبين اجراء العملية الجراحيـة في رأسي غير يومين ، وهذا مما يخيفني جداً . وأظنهم اذا فتحوا دماغي سينظرون منـه الى قلبي فيكتشفوا ما فيـه من الأسرار . وحينئذ يقول هؤلاء القليلو الايمان « ياله من شاب مجنون ! » . ولعلهم متى انتهكوا حرمات دماغي وقلبي يضعون أحدهما في مكان الآخر ، غـير مبالين بتبديد ما في فؤادي من ملـكوت محبوب ، أعني ملكوت الدموع والآلام ، ملكوت النار والحب ! وأي شيء يبقى لي اذا بددوا ذلك الملـكوت ؟ لن يبقى لي حينئذ غير ساعدين تافهين وجسم أبتر ! بل لعلهم يذهبون أيضاً بما على هذا الجسم الابتر من القميص الناري ، وذاك هو العدم . . .

ان اليوم الذي تعرى فيه روحي من هذا القميص الاحمر ، وتزول فيه من دماغي آثار ذلك الملـكوت العزيز ، هو اليوم الذي تموت فيه روحي ، ويضمحل فيـه دماغي ، فاتحول الى مثل التراب الذي توارت تحته أجسام أولئك الاحباب في مقبرة القرية الصغيرة التي كأني أراها ماثلة الآن أمامي . فيا لجسم ذلك القائد الشاب الجميل – الشبيه بمجنّ الملك أتيلا الذي لا تأكله النيران – كيف انطوى تحتها ! ويالعيني بنت ازمير الخضراوين – اللتين اخترقت بهما جبال سقارية لترى ازمير من ورائها – كيف انطفأت النار الخضراء التي كانت تلمع فيهما وراء أهدابها السوداء ، بل كيف تجمد ذلك

الدم الحار الذي كان في شفتيها الحراوين ! ومن لي بأن يبقى جسمي المبتور قبراً لعواصف القلوب المتوارية وراء ماضي آمالي !

اني أشعر اليوم ببرد قارس غدت فيه يداي كالثلج ، ومابرح نصفا ساقي منجمدين . وهـذا الريح يهب اليوم عاصفاً من الهضبة السوداء الى أنحاء المستشفى ، حتى بعد مروره على نار فؤادي ، فيوقظ في نفسي شوقاً الى عودة اليوم الذي مر علي في تلك الهضبة لأنال ما ناله فيه أولئك الراقدون الآن في ظل جلاميدها الكبرى بعد أن أغمضوا عيونهم الى الأبد

سأضع نصب عيني في هـذا اليوم حوادث اليوم الأخير من أيام (الهضبة السوداء) ، وسأستعرض كل ما جرى يومئذ من أوله الى آخره غير مغفل شيئاً من ذلك . ولعل سكين الجرّاح التي ستعمل بعـد ذلك عملها في رأسي ستقطع ما بين رأسي وجسمي من اسلاك ذهبيـة ، ويكون ذلك آخر عهدي بالحياة !

*

سلم احسان ألايه الى القائد الذي يخلفه عليه ، ونقلني معـه بوظيفة « ضابط أوامر » . ومن ذلك اليوم لم أعد أرى لاحسان وجهاً ضاحكاً . وما أشد الفرق بين احسان هذا وبين احسان الذي ازاح لي عن قلبه تلك الحجب الفولاذية في (كوكجه بينار) !

لقد صار من دأب احسان بعد أن انتقلنا الى الألاي الجديد أن يمضي بياض نهاره بين الجنود . وقد فرز منهم المستجدّين ، وجعـل يخرج بهم كل يوم الى تلك الطرائق الصفراء في السفوح الواقعـة وراء المعسكر ، معانياً تعليمهم . وكأني لا أزال أنظر اليهم الآن بملابسهم الخاكيـة وهم يبدون لي صغار الاجسام لما بيننا من مسافة شاسعة ، واحسان وراءهم بملابسه الزرقاء يهز ساعديه بنشاط كأنه شاويش عليهم يوعز اليهم باجراء الحركات العسكرية

واذا صار الليل يعود احسان الى الخيمة فيبيت يكتب ويصـدر الاوامر

الصارمة حتى الصباح . فاذا رأيت منه هذه الحال أبتسم في نفسي ابتسامة تشبه البكاء ؛ ويخطر على بالي أن أدعوه باسم « الجندي من قصدير » المذكور في قصة (هندرسون) ؛ وذلك أن ألعوبة بشكل جندي من قصدير موضوع على منصة في منزل ، ومع أنه فاقد احدى ساقيه فقد كانت له أطوار الجندي . وفي قصة هندرسون أن هذا الجندي من قصدير عشق فتاة ، وبينما كانت الخادمة تنظف الغرفة في أحد الايام ألقت الجندي من قصدير في الموقد ، ولما أخرجوه من النار وجدوه تحوّل الى صورة قلب . واني كلما تأملت في أحوال احسان كنت أشبهه في نفسي بهذه الالعوبة : فهو عاشق للفتاة الخضراء العينين الموجودة في القوة السيارة ، وسيندفع في نار الحرب الناشبة حول الهضبة التي أمام المعسكر ، وسيذوب فيها فيدفن في التراب بشكل قلب ، فيا لذلك الجندي الفولاذي المحبوب !

وعزمت ذات يوم على أن أذهب لزيارة عائشة . وكنت متأكداً من محبتها لأحسان . اذ لا يعقل أن تنقض العهد الذي قطعته على نفسها بأن تتزوجه قبل أن يحول على هذا العهد حول واحد . زد على ذلك أنهما لما افترقا للمرة الاخيرة عند النار الخامدة على ابواب القرية وقفا يبكيان . فلما أردت أن اذهب لزيارتها طلبت الاذن بذلك من احسان ؛ وكانت في صوتي غنة ذات معنى . ولكن وجه احسان لم يتغير ؛ وقال لي بلهجة رسمية وهو عابس ومنهمك بعمله :

ـ لك أن تغيب ساعة واحدة

ثم جعل يخاطب شاويشاً من الفرسان عظيم الجسم دخل عليه ليتلقى أوامره .. وبينما أنا أقطع السفح المؤدّي الى الوادي الذي فيه معسكر القوة السيارة كنت أخاطب سنابل الحشيش التي تتموج هناك ذاكراً لها الجمل التي سأقولها لعائشة . وكنت أكلمها بحماسة واهتمام واصفاً حالة احسان ومايعانيه من بؤس وألم حتى كاد يموت بحبها ؛ وما زلت كذلك حتى أثر كلامي في قلبي فشرعت أبكي . وقلت في نفسي ان عائشة ستبكي بكاء الطفل اذا أفضيت

اليها بهذا الحديث ، وستتوسل الي بأن اتوسط في توحيد قلبيهما وأيديهما ولما انتهيت مما سأقوله في استمالتها الى احسان أردت أن أذكر لها اني أنا أيضاً . . . ولكن ضربات قلبي ازدادت حينئذ كثيرا ، وقلت يجب أن يقف الخيال عند هذا الحد

وكان قد أمسى المساء ، ولمعت مصابيح الخيام في قلب الوادي ، واوقدت النيران وسط حلقات سوداء من جماعات الجند . وخيل الي أن سنابل الحشيش التي كنت أحدثها بما سأقوله لعائشة قد أجابتني بأمور غريبة قبل أن توارت عن عيني تحت الظلام . فضحكت حينئذ ، وتذكرت قصة (لونغ فيلو) وهي قصة غريبة وقعت في أمريكا أيام توحشها المهيب ، وكانت أمريكا يومئذ ارضاً قفراء موحشة ذات جبال سوداء كوادي سقارية اليوم ٠ وكان فيمن يسكنها من الاقدمين كاتب في كثير الخجل يعيش بين دفاتره وأوراقه ، وله صديق من رجال القوة والسلاح ضخم الجثة ذو قلب من ذهب وساعدين من فولاذ يعجب به كل من وقع نظره عليه ، وكلا الصديقين احبا امرأة جميلة ، وكان النساء في تلك الديار يحببن رجال القوة والبسالة ؛ بل ان ذلك مما فطر عليه كل نساء العالم ٠ فأدرك الكاتب الصغير هذه الحقيقة وصار اذا جلس الى المرأة الجميلة التي احبها يجلس صامتا كأنه قط ٠ ومن جهة اخرى كان صديقه القوي الشجاع ايضاً يجلس عند حبيبته صامتاً خائفاً ، لا لأن ذلك من مقتضى طبيعته الوحشية بل لانه كان يخاف عيني المرأة الجميلتين ٠ فقال ذات يوم لصديقه النحيف المهزول الجالس بين دفاتره وأوراقه :

ـ أذهب الى هذه المرأة المحبوبة وأخبرها بغرامي ٠ انك فتى تفهم بلغة الكتب والأوراق ، فاذكر لها ما أعانيه بلسان مؤثر ، واحملها على الرضى بي !

وذهب الفتى ـ الذي كان مثلي من رجال المحابر والاوراق ـ فوصل الى الحبيبة وثار امامها كما يثور البركان ذاكراً للمرأة الجميلة حكاية قلب صاحبه كما فعلت انا فيما قلته لسنابل الحشيش . وكانت المرأة الحسناء تنظر بعينيها الجميلتين

الى قلب الفتى وتبتسم ابتسامات مبهمة . ثم قالت له :

— والآن فتكلم من أجل نفسك ايضاً

تلك هي قصة (لونغ فيلو) التي تذكرتها في ذلك الموقف ، فيا لنفسي من نفس سوء ! حقاً اني خائن ! ولو لم أكن كذلك لم يخطر ببالي أن عائشة ستقول لي اذا وقفنا في الظلام معاً أمام باب خيمتها :

— والآن فتكلم من أجل نفسك أيضاً يابيامي !

وشعرت بقلبي يخفق بشدّة استنكاراً لهذا الخاطر ، لأني لم أكن رجل سوء بهذا المقدار • فجلست وراء مضارب القوة السيارة لتهدأ نفسي وتعود اليّ سكينتي • وجعلت أقول لولم أكن أحمل في جسمي منذ عشرة أعوام روح الموظف الصغير في وزارة الخارجية لما كتبت اليوم قصتي بهذا الشكل • بل كان يكون موقفي مع عائشة موقف أخ لها متوسط السن ، أو كنت أكون برزانة الصديق وسكينة ابن العمة ، فتثق بما أقوله لها وتعود الى احسان

ووصلت الى باب خيمتها ، فشممت رائحة الاتير وصبغة اليود • وكان في جوف الخيمة محفات متوارية في العتمة وعليها بعض المرضى والجرحى الذين تمرضهم عائشة وهي جالسة الى جانب عمود الخيمة تصب ماء بارداً على رأس جندي ضخم الجثة ، ولم يكن في الخيمة أحد آخر . فسمعت احد الجرحى يقول لها بصوت متقطع : — هل اليونان ذاهبون من هنا يااختي ؟

اجابت : — انهم ذاهبون ياأحمد • وبعد ثلاثة أيام تكون هذه الجهات نظيفة منهم . ان الخرق الذي أصبت به في صدرك لم يذهب عبثاً !

وقال لها جندي آخر : — أعطيني قليلا من الماء يااختي !

وقال لها آخر : — اني أشعر بالالم في رجلي ، متى يأتي الطبيب ؟

وصاح آخر : — آه يا امي ، آه يا امي !

وقال لها جريح آخر : — هلا تعطيني ليمونة يا اختي ؟

فأردت أن يكون لي نصيب من هذه الطلبات فقلت لها :

— هلا تأتين اليّ قليلاً ياعائشة ؟

اجابت : — هذا انت يابيامي ؟ انتظر قليلاً فأني آتية

وأمرت الشاويش مصطفى بأن يقف أمام الجرحى ، وخرجت اليّ فوقفنا أمام باب الخيمة ؛ وكان وجهها مختلطاً بالنور الاسمر ، وعيناها وما حولها ممزوجا بالسواد !

فسألتني : — ان انسحاب اليونانيين حقيقي ، أليس كذلك يابيامي ؟

قلت : — نعم ياعائشة

قالت : — ان فرقة حشمت بك وجمالاً سيدخلان الحرب غداً

قات : — وألاي احسان أيضاً

قالت : — انك تهذي يا بيامي

قلت : — ألم تعلمي بأن احساناً تولى قيادة الألاي رقم ••• ؟

قالت : — لقد رأيته قبل ثلاثة ايام فلم يخبرني . وأين معسكره ؟

قلت :— في هذه السفوح

فقالت ضاحكة : — اذن فالثلاثة سيسيرون غداً في طريق ازمير

ثم سألتني : ـ وهل أنت التحقت بالفيلق يا بيامي ؟

قلت : ـ صرت ضابط أوامر لاحسان

ففتحت عينيها بدهشة وقالت :

ـ وستحوم غدا حول النار مع جماعة الفراش • اذن لم يبق احد غيري !

وسمعنا صوتا ينادي من الخيمة : ـ آه يا اختي ، آه يا أختي !

فقالت : ـ هذا صوت الشاويش حسن يابيامي . انه مجروح من ساعده ، وهو مصرّ على الرجوع الى الألاى . وكان في اسكي شهرمصابا في الغشاء الداخلي ، وبينما أنا امرضه زعم انه شفي • ويقول الآن انه سيخوض الحرب ولا يعود منها بأقل من تسعة جروح

ولاحظت على وجهها البارد المقطب علامات الحرارة والتهيج فقلت :

ـ ألا ترغبين في رؤية احسان قبل أن يدخل الحرب غداً • ان حرب سقارية قد ذهبت بعدد كبير من القواد شهداء الى الجنة

فأدارت لي ظهرها وصارت تنظر الى الآفاق البعيدة . ثم عادت فتوجهت الي ، وكان الظلام حالكاً فلم أميز وجهها ، غير انها مدت الي ذراعيها العريانين متحببةً وقالت :

ـ ستذهبون غداً الى الحرب جميعاً : أنت وجمال وذاك ، ولعل الشاويش حسيناً يذهب أيضاً . ليس من الصواب أن يثني عزم أحد عن القتال في هذه الايام . ان الجيش كله سيسير في طريق ازمير ، وسأكون أنا أيضاً معكم . استودعك الله يايامي . أنا عائدة الى الجرحى

قلت : ـ هل أبلغ احساناً سلامك ؟

أجابت : ـ أبلغه أنني أدعو له بالنصر

***

وبت أفكر في أن لغز عائشة من الالغاز التي لا تحل • وفي منتصف الليل استلقى احسان على سريره بحذاءيه ومهمازيه • وكان البرد قارساً ، والجندي الحارس يتمشى في الخارج بلا انقطاع • وجعلت أتساءل في نفسي : هل احدّث احساناً بامر عائشة ، ولكن حالة وجهه لم تشجعني على الكلام • فقد ألقى بقلنسوته على المنصة ووضع كفيه تحت رأسه وأخذ يجيل عينيه في أعلى الخيمة • فلبثتُ صامتاً نصف ساعة ، ثم تشجعت • وفيما أنا أهم بالكلام سمعته يهذي في نومه :

ـ أطلقوا النار • الى الهضبة أيها الفتيان ، الى الهضبة ! ها ان العدو يفر !

وكان يتنفس بشدة ويلهث ! فعلمت انه يحمل في الحلم بندقية بيده ، ويجري مع جنوده قاصداً الهضبة • وأثار ذلك في نفسي احساساً غريباً ، نفكرت بأني سأدخل غداً في المعارك النارية العظمى للمرة الاولى ، وسأكون من ذلك الفريق الممتاز ، فريق الجند الذي يقف في وجه الموت

مختاراً . وحينئذ لن أكون في نظر عائشة أو غيرها من الطبقات المنحطة

ولما استيقظت في الصباح رأيت احساناً مسنداً ظهره الى عمود الخيمة وهو يشرب القهوة . فنهضت في الحال . وشعرت بالتجلي الذي نشعر به في صباح العيد ؛ فالمدافع كانت تطلق قذائفها بشدة ورهبة ؛ والناس جميعاً في صمت وسكينة . ورآني احسان مستيقظاً فابتسم لاول مرة ولآخر مرة وقال : ـ هذا عمنا الحارس . تعال يا بيامي !

وكان ازيز الطيارات اليونانية مسموعاً من الخارج ؛ والظاهر أن هذه الطيارات اكتشفت مضرب المعسكر ، فهلعت نفسي لاحسان اذ رأيته خرج الى الباب وجعل ينظر الى السماء كالطفل الذي يتلهى برؤية طيارة الورق . وسقطت قذائف قليلة من الطيارات هنا وهناك فلم يعبأ أحد بها ؛ وكان الجنود ذاهبين آيبين وفي أيديهم السطول يحملون فيها طعام الجيش . ثم ازدادت المدافع نشاطاً في اطلاق القنابل فهي تتساقط حولنا فتغور في التراب ثم يفور بها . وكان احسان متهيج الاعصاب جداً ؛ والحرب تتحول من السفوح التي أمامنا الى (أكمة الدعاء) التي تبعد عنا قليلاً . فكنا نرى كتائب الجند تنفصل عن القوة السيارة وتسير بملابسها الخاكية ؛ حتى اذا كادت تبلغ الخط الأعلى من السفوح التي أمامنا تقف قليلا ، ثم تغلي بهم مواضعهم الى ان يجتازوا الخط فيغيبوا عن الانظار ؛ لأن وراء ذلك خط النار . فقلت في نفسي ان هذا طريق سنجتازه نحن أيضاً . ولكن ما بال الدقائق والثواني تسير بمهل وبطء ؛ وما بال الصمت يتجسم حتى نكاد نراه محيطاً بنا وملموساً بأيدينا !

وبعد أن انتهى الجيش من تناول طعامه أخذ يستعد لخوض الوغى . واستدعي القائد حشمت بك احساناً ، فلما عاد من عنده بعد ساعة جمع القواد أمام خيمته وأبلغهم التعليمات والاوامر . وكنا على أهبة التقدم الى الحرب ؛ غير أن الاي جمال سبقنا اليها بينما كنا لا نزال في مواضعنا على ظهور خيولنا .

ولما اجتاز الجندي الأخير من جنود جمال الخط الاعلى من السفوح التي أمامنا كان احسان يحاول ان يخفي عنا اهتمامه بالقوة السيارة ؛ فجعل يحوّل نظره عنها ويقول بصوت يتصنع به كتمان ما في نفسه :

— لقد ذهب ألاي جمال قبل كل أحد

وكنت واثقاً من أنه وجه أنظاره كثيراً الى القوة السيارة ، وذلك لما أعلمه من أن عنده مثل ما عندي من الآلام المتغلغلة في عظامي ولحمي وقلبي ودماغي . بل ان هذه الآلام العظمى يحملها قلب واحد متوزع في جسمين ؛ وأظن ان ذلك هو السر في اني واحساناً صرنا شيئاً واحداً

وماجت الارض موجة أخرى بكتائب جيشنا فأخذت تقرع الارض بوقع أقدامها سائرة الى الحرب ؛ والى جانبيها ضباطها بوجوههم الفولاذية وهم على متون خيولهم . وحين كان التابور الاول من ألايتا يجتاز الخط الاعلى من السفوح ليدخل خط النار كنا نحن لا نزال في قلب الوادي . ووصل بعده التابور الثاني الى الخط الأعلى . وكان احسان معنا متمكناً من ظهر جواده بقوّة وثبات ، وهو يجري يميناً ويساراً يصدر أوامره . وكنا نحن من حوله وراء كتائب الفرسان ، وليس يسمع صوت في الجوّ بعد هزيم القنابل غير وقع حوافر الخيل . وكان الملازم محسن بك ـ وهو ياور الألاي ـ لا يفتأ يقترب مني في خلال أعماله الكثيرة ليهيمن عليّ باعتبار اني ضابط احتياطي ، مع أني كنت أقوم بمهمة ابلاغ الاوامر بأسرع مما يقوم هو بها

وفيما نحن سائرون في طريق الحرب لم يبق في احسان شيء من صفات الانسان ، ولم يعد يشعر بمن حوله من الناس ؛ بل كان وهو يصدر أوامره ينظر اليَّ ولا يراني . وحينما كانت الكتيبة الاخيرة تجتاز الخط الأعلى أرسلني احسان الى قائد التابور . وشعرت وأنا أمرّ من هناك برغبتي الشديدة في أن أخرج منديلي من جيبي وأشير به الى القوة السيارة ، ولكني لم أفعل ؛ واجتزت الخط الأعلى وأنا لا ألوي على شيء ؛ فنزلنا وادياً تحيط

الجبال بأطرافه ، وفي وسطه طريق تعلوه عجاجة تتراءى الجنود في جوفها بشكل خطوط سوداء. والقنابل تتطاير من جبل الى جبل فتثير في مواقع سقوطها سحائب من تراب والناس منتشرون في سفوح الجبال المؤدية الى الوادي كأنهم النمل

وكان الخط الذي أمامنا يؤدي الى (بولادلي) ثم ينتهي بمضيق صغير، وعن يمينه (أكمة النسر) وعن يساره (آكام بولادلي)، والقنابل تتساقط في الحقل الواقع على يمين المضيق كأنها القطن المحلوج أو العهن المنفوش.

ولم يكن لنا مناص من المرور في ذلك الحقل. فسرنا فيه بين عجاجات التراب التي تثيرها القنابل من يميننا ويسارنا فتجفل منها الخيل وينظر اليها الجنود بصمت وسكينة

وواصلنا السير غير مبالين بما يتساقط من القذائف يميناً ويساراً الى أن لاحت لنا الاكمة المرتفعة كالهرام فوق (الهضبة السوداء) الواقعة وراء (بولادلي). وكان يجب أن نصل الى هذه الهضبة وأن نستولي عليها. وان ارادة كل واحد منا كانت في يد من هو فوقه، لذلك لم يكن أحد يفكر كيف نجتاز مزرعة النار التي نحن سائرون فيها؛ بل كانت كل كتيبة تلتئم وتتدرج وترتبط بحسب الايعازات الصادرة اليها الى أن تتوارى بين السفوح فتغيب عن الانظار

وقطعنا نحن هذه المسافة بساعة، ومرت بنا أثناء ذلك سيارة تسير بسرعة البرق حاملة أوامر من القيادة العليا الى قائد الفرقة؛ ثم جاء ضابط ينهب الارض بجواده فاقترب من احسان وحياه التحية العسكرية وأبلغه أمراً. وفي مدة وقوفه لابلاغ الأمر تمكنا من ايقاف خيلنا بصعوبة. ولما عاد الضابط الفارس واستأنفنا سيرنا بدا البشر على وجه احسان وقال لي:

ـ سيكون هجومنا من قلب الجيش يا بيامي؛ فاول نار تطلق ستكون منا

قلت: ـ اذن فالعيد اليوم كان لاجلنا، فقد اختصونا بأجمل المناديل

والحلويات

وكنت أنتقل على جوادي بسرعة من مكان الى مكان لأبلغ الكتائب تعليمات القائد في اجتياز مزرعة النار بأقل ما يمكن من التضحيات . وبينما نريد أن نقطع بعض الموانع الواقعة على يسار الطريق انفجرت قذيفة في السفوح الحمراء من آكام بولادي فقتلت اثنين من جنودنا أظنهما كانا الضحية الاولى من ضحايا هذه المعركة. وبعد أن عبرنا المضيق وسلكنا وراء (بولادلي) في منحدر مهم ظهر لنا سفح آخر اضطرّنا الى تغيير طريقنا

لقد كنت ممن يخافون دوّار البحر خوفاً شديداً . فلما أبحرت في احدى المرات من مرسيليا عصفت عاصفة هائلة جعلت السفينة تلعب بين الامواج كأنها زورق ؛ فصرت اراقب وجه ربان السفينة ووجوه البحرية قائلا في نفسي اني ارجيء الخوف الى أن اقرأ في وجوه هؤلاء علامة حلول الخطر الحقيقي . وكلما ازدادت العاصفة شدة كنت أطمئنّ الى ما في صوت الربان من نغمات الطمأنينة فيبتعد عني الخوف

والآن لما صرت وسط هذه السكينة الرهيبة التي تتجاوب فيها المدافع بأصوات تمزق الآذان جعلتُ أصغي الى الايعازات الحربيـة التي ينادي بها احسان ومَن تحته من الضباط بأصوات هي برنين الفولاذ أشبه منها بصوت الانسان ، فأطمئنّ الى ما فيهـا من معاني العزم ؛ وأقتنع بأن ساعـة الخطر لم تحلّ بعد ، هذا بينما نحن نتخطى جثث اخواننا الذين نزرعهم في تلك الارض جماعة بعد جماعة بين مشاة وفرسان

.ومن غريب احوال الحرب أن الشيء المخيف فيها هو الخوف نفسه ؛ فحيثما لا يصاب الجيش بهزيمة أو رجعـة لا يكون هنالك أثر للخوف ؛ لان الحرب في ذاتها بمنتهى البساطة

وأقبلتْ عتمة المساء ، فاشتدّ البرد ؛ وهبت الريح على صفوف الجيش عاصفة من اليمين ومن الشمال . وكان شبح الموت يمرّ من فوق رءوسنا

و يتخطانا . فكان نظري يقع على الجندي مجندلاً على الارض وهو في معطفه الطويل والى جانبه زمزميته وهي من قصدير تلمع ببقايا نور العشية . وأرى المحفات ذاهبــة آيبة وراء الصفوف تنقل الجرحى . وأسمع أصوات الضباط وهي تنادي بالايعازات الحربية ، وقد صارت في المساء أشدّ شبهاً بصوت الفولاذ مما كانت في الصباح

وكان بيننا وبين الخط الا على من السفح حفرة كبيرة سوداء محجوبة عن مرمى القنابل ، فاتخذناها موضعاً لتضميد الجراح ، ومقراً لقيادة الألاي ، وصارت حركة الهجوم الحقيقي تصدر من ذلك الموضع

وانتقشت في دماغي قبيل عتمــة المساء صورة من صور الحرب . وذلك أننا بعد الهجوم الأخير صار بيننا وبين (الهضبة السوداء) واد ذو انحدار قليل جداً ، وكان هذا الوادي هــدفاً لجميع القنابل التي تقذف من (آكام النسر) و (آكام بولادلي) ومن (الهضبة السوداء) نفسها . ولا بد لقلب جيشنا الذي يقوم بالهجوم من ان يجتاز هذا الوادي الذي تنصب عليه النار من كل جانب . وأراد القائد أن يجيل نظره في هذا الوادي قبل أن يحلولك الظلام . فأمر الألاي بأن يقف قليلا عن التقدم . وتسلق الا كمة هو وياوره الى أن بلغ أعلى ذراها . وكانت حمرة الشفق تتحول الى سمرة سوداء ، فأراد اليونانيون أن يمنعوا جيشنا من اجتياز الوادي قبل أن يهجم الليل ، فصبوا عليه قذائف ظننا أنهــا خارجة من فوهات كل المدافع الموجودة في الدنيا

في تلك اللحظة رأيت سـحابة من تراب تثور على طول طريق يقطعـه جوادان ادهمان في الخط الاعلى ، وسمعت أصواتا تنادي :

ــ القائد ، القائد !

وتبددت سحابة التراب فانجلت عن احد الجوادين الأدهمين واقفاً على رجليه فوق الخط الاعلى ، والفارس الذي على ظهره يحاول تسكينه . ثم حول

الجواد وجهه الى الوراء ; و بعد دقيقة واحدة انحدر في سفح الجبل بسرعة • وسمعت صوت احسان ينادي بعد ذلك من بعيد :

— يابيامي ، ان محسناً اصيب بجرح ، فأرسل رجال الصحة حالاً !

ولم نبلغ سفح (الهضبة السوداء) الا بعـد أن تركنا في طريقها ضحايا كثيرة

ودعا احسان قواد التوابير وفاوضهم في الأمر ، ثم قرر ان يصل الى الجبل تحت جناح الظلام ، وكان قد عرف كل ما في الوادي من العوارض الطبيعية عنـد ما أشرف عليها من الذروة ونظر اليها على نور القـذائف التي كانت تسقط بجوانبها . فوقفنا الآن ننتظر هجوم جيش الظلام ، وجعلت أنا أتأمل في معنى الحرب وأقول في نفسي « ان الشيء المخيف في الحرب هو الخوف نفسه »

ولما صار الليل استأنفنا سيرنا فدخلنا الوادي ، وحينئذ علمت أن الحرب ليست قاصرة على أوامر القيادة ، بل ان للبصـيرة والقوة أوامر اخرى توعز بها • وما انتصف الليل حتى صرنا في سفح (الهضبة السوداء) فرأيناها ماثلة أمامنا كالشبح بشكلها المخروطي الاسود . وكانت الأنوار التي يطلقها اليونانيون من مسدسات التنوير تجعل لميدان القتـال منظراً بديعاً • وان تجاوب مدافع الفريقين ورشاشاتهم والمبارزة بين مشاتهم بالقنابل اليدوية كانت قد بلغت اشد ادوارها . والاشباح التي كانت تتسلق الهضبة لتستولي عليها كانت تظهر وتختفي تحت الأنوار الخضراء والحمراء المنبعثة من قذائف المدافع التي كانت تحصد اجسام الرجال وتنجلهم نجلاء كأنهم أغصان الشجر • ومع ذلك فان الحرب كانت مستمرة بلا انقطاع

وكان اليونانيون متحصنين في الهضبة وراء متاريس من الصخر فما لبث التابور الاول من ألايـنا ان صار على مقربة منهم والتابور الثاني قد تجاوزه • وان قائدي التابورين وقعا شهيدين • وشعرت في بعض الأحيان بوقفة معنوية

في الجيش لأن خسائره بلغت نصف عدده تماماً . ولما احلولك الظلام سكتت المدافع ، ولست أدري ما اذا كان ألالاينا لا يزال يتقدم الى الامام أم انه في حالة التوقف

ثم انبعث نور القمر رويداً رويداً من جانب الافق ، فجعل ينتشر في ركام الظلام فيضيء ما تحته . وكنت أسمع صوت احسان بصعوبة لشدة ما يطلق من الرصاص ؛ وأخيراً تولى هو قيادة التابور الثالث بنفسه وسار به الى الامام في طريق ذي عوارض ربما لا تستطيع المعزى أن تجتاز بعضها . فكان احسان أمام جميع جنوده يتسلق الاكمة بخطوات ثابتة لاتدع للتردّد سبيلا الى نفوس الكتائب السائرة وراءه . ولم نكن نسمع من الجنود غير أنين من يصاب منهم في الطريق . ورأيت الرصاص يمرّ من فوق رأس احسان ، والقنابل تتساقط عن يمينه وعن يساره ؛ وهو يتسلق الهضبة ببندقيته غير مبال بما يحيط به

وشعرت بأننا صرنا على مقربة من ذروة الهضبة فسمعت احساناً يشتم اليونانيين بصوت عال كأنه صادر من نفس مفترسة امتلأت بالحقد والغضب على هؤلاء الذين دخلوا الاناضول وتوغلوا في أحشائه حتى بلغوا هذه الصخور السوداء . وسمعوا هم شتائمه ورأوه يهاجمهم فقابلوا شتائمه بمثلها وهم ينادون « توركوس ، توركوس » ؛ وحاولوا أن يردوا هجومه بالقنابل اليدوية والرصاص والأحجار والوحل

ووصل الى رأس الأكمة بعض الابطال من بقايا التابور ؛ فخالطوا اليونانيين في متاريسهم ؛ وأمسك بعضهم بخناق بعض ، وتقاتلوا بأيديهم وبالسلاح الابيض ، واحسان يناديهم بأعلى صوته :

— الى ذروة الهضبة أيها الجند ، الى ذروة الهضبة !

وأضاءت رمية من مسدس التنوير ؛ فرأى بها جنودنا قائدهم احساناً وهو معتمد صخرة ليقفز منها الى موضع مرتفع في الهضبة . وكان الجنود

يسيرون فوق جرحاهم وشهدائهم ليمسكوا بخناق اليونانيين . ولم يكن أحد من رجالنا القليلي العدد يعقل شيئاً في تلك الساعة التي استهدفوا فيها لرصاص الرشاشات والبنادق بينما هم يتسلقون ذروة الهضبة . وشعرت بأني سكران ، فكنت مثلهم أشتم اليونانيين وأصيح بملء فمي

وبعد قليل رأينا احساناً واقفاً على صخرة بأعلى الذروة ، وكان القمر قد ارتفع في قبة السماء ، وفرش في الكون شبكته البيضاء . وفيما هو واقف صوّب اليونانيون عليه رصاصهم فسقط من أعلى الذروة الى الموضع الذي كنا واقفين فيه كأنه الشجرة المقطوعة من جذورها . ففتحنا له سواعدنا ، وناديته حين سقط في أحضاننا :

ـ أخي احسان ، أخي احسان !

فجعل يقول : ـ رباه ، رباه !

والظاهر ان اليونانيين تركوا متاريسهم ، لأنهم كفوا ساعتئذ عن اطلاق النار . فحملت احساناً بين ذراعي وأعانني الجنود بسواعدهم وهم ينادونه :

ـ ياحضرة القائد ، ياحضرة القائد ؟

وكلهم يريدون أن يقتربوا منه وأن يطمئنوا على حياته . وصاح من بينهم شاويش ذوشاربين منتصبين ، وعينين ذاهلتين ، ووجه ملطخ بسواد البارود ، والدماء تسيل من رأسه وصدره ، فجعل يقول :

ـ الحقوا بي أيها الاخوان ، فسننتقم لقائدنا !

وسار هؤلاء الرجال على الصخور ذاكرين اسم الله وهم يطلقون الرصاص فما زالت أصواتهم وأصوات بنادقهم تبتعد عنا بينما كنت أنحدر باحسان حتى وصلت به الى أصل صخرة ، فبللت شفتيه بماء من زمزميتي . ورأيته مجروحا في صدره ، ومعطفه ملطخ بالدماء ، وقد ارتخى رأسه الى كتفه ، وعيناه شبه مغمضة . وكان يقول اثناء أنينه بين حين وحين «يا الهي ، ياالهي !»

ولست أدري متى أوصلناه الى الحفرة التي اتخذناها موضعاً لتضميد

الجرحى ، ولا متى وضعناه على المحفة . ووجدنا في سفح الجبل عربة من عربات الصحة فوضعته فيها ، وجعلت أناديه :

ـ احسان ، أخي احسان !

فحاول أن يلتفت الي ، ولكنه لم ينقطع عن الأنين . وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً عند ما وصلنا الى المستشفى الحربي الكبير . فأسرعت الى داخل الخيمة ، وكان فيها طبيب فتى يغير ضماد الجرحى الذين غصت الخيمة بمحفاتهم . فقلت له :

ـ جئنا باحسان بك قائد الألاي مجروحاً . أليست الأخت عائشة هنا ؟

فنادى الطبيب : ـ ياشاويش مصطفى ، أيها الممرضون ! خذوا القائد الى خيمة الأخت عائشة فليس عندنا محل له هنا

فوضعناه في سرير عسكري لئلا ينزعج ، ونقلناه الى خيمة عائشة . واعتنى الطبيب بتجريده من معطفه برفق وحذق . وكانت عيناه لا تزالان مفتوحتين قليلا ، وشفتاه بلون البنفسج ، وعلى وجهه ابتسامة غريبة ، وكأنه ينظر الينا من عالم آخر بعيد منا وغريب عنا . فسألت الطبيب :

ـ أين الأخت عائشة ؟

قال : ـ لقد ذهبت مع الحملة الصحية . وكن مطمئن البال فانه لاحاجة الى وجودها . وبعد نصف ساعة سينتهي كل شيء !

وكنت قد فقدت صبري ، فشعرت بشيء من الحنق على عائشة ، لأن احساناً حرم حتى من تغميضها عينيه . وجثوت الى جانب سريره ، فوضعت رأسي على حديد السرير وجعلت أبكي حتى اقتنعت بأن موت هذا الفتى الذي يعيش الدقائق الأخيرة من حياته قد أورثني أشد الآلام . ووضعت يده الباردة بين يدي وضغطت عليها قليلا ، فشعرت بمقاومة تكاد تكون غير محسوسة . وكان الفتى المسكين يصغي الى ماحوله كأنه يترقب شيئاً ، فقلت في نفسي : ـ آه ، لو استطعت أن أجد عائشة !

ولما كانت الديكة تصدح في الخارج ازداد وقع أقدام السائرين، والجنود يتكلمون بأصوات عالية • وقد زالت السكينة التي كانت سائدة ساعة الفجر وأما الهواء فصار أخف مما كان قبل حين• وسمعت قائلا يقول :

ـ لقد انسحب اليونانيون من (الهضبة السوداء) وهم يفرون من كل مكان

ثم سمعت صوتاً رهيباً يقول : ـ ارنع المحفة ، وأدرها جانباً !

فنهضت لأرى ماذا جرى فرأيتهم يدخلون محفة أخرى الى الخيمة . وما لبثت حين رأيتها أن صحت :

ـ أهذه عائشة ، وهل عائشة أيضاً أصيبت ؟

ولما قلت ذلك توترت يد احسان التي كانت لاتزال بين يدي ، والتفتْ أصابعه الباردة على أصابعي التي ظننتها انخلعت عند ما تمكنت من سحبها • ولما كشفت المعطف الطويل الذي كان موضوعاً على عائشة فوق المحفة رأيت خمارها ومن تحته شعرها الاسود المقصوص . وان قميصها الابيض ملطخ بالدماء ، وهي مضطجعة على جانبها الأيمن ، وعلى حاجبها الأيسر جرح كبير رهيب يبتدئ من أول الحاجب وقد شطره شطرين ، والدماء السائلة على جفنها المغمض منجمدة على رءوس أهدابها الطويلة . وخيل اليّ ان وجهها وجه تمثال ولد صنع من الشمع العسلي . أما شفتاها فساكنتان !

وسألت جندي الصحة عنها كيف أصيبت . فأجابني بصوت تخنقه العبرات ولكن فيه نغمة الاعجاب بها والحب لها :

ـ لقد جرحت بشظية قنبلة فماتت في الحال . وكانت سمعت أن جناب القائد قتل ، فخرجت بمحفة من الحملة الصحية . وبينما هي في الطريق رأت جنديا جريحاً فوقفت تضمد جرحه ، وعندئذ أصابتها الشظية فماتت دون أن تنطق بكلمة

فقلت للجندي :ـ قربها الى هنا يابني

ووضعناها بمحفتها الى جانب سرير احسان وقلت له :

ـ أنظر ياأخي يااحسان . هذه عائشة عندك

وظننت انه تحرّك أولاً . ولكني لما انحنيت عليه لا نظره رأيته قد التحق بها • فهما الآن نائمان جنباً الى جنب في خيمة واحدة . غير ان احساناً كان كأنه غاضب منها وعاتب عليها ، فانه ولىظهره ناحية عائشة ووجهه بعيد عنها وعلامات الألم بادية عليه • وأما عائشة فكان وجهها أشبه بوجه الولد اذا كان في حالة الندم على ذنب سبق منه • والدم الذي سال من جرحها وانجمد على اهدابها الحريرية كان كأنه دموع حمراء تتضرّع عائشة بها الى احسان لتسترضيه • وخيل اليّ انها ستقوم الآن فتعتنق احساناً بساعديها وتمنحه بقية القبلة التي بدأ بأخذها في (اسكي شهر)• فقلت لهما بصوت ينمّ على ما وراءه من ألم :

— ها انكما قد تزوجتما ، ودخلتما ازمير !

واعتقدت انهما تزوجا حقيقةً ، فهربت من خيمتهما حالاً

وفي الصباح غطينا نعشيهما برايتين حمراوين ، ووضعناهما مع بقية الشهداء في عربة ذهبت بهم الى المقبرة الصغيرة الخاصة بالقرية • فانحنى حشمت بك عليهما يسترهما بتراب قبرهما الغضّ ، ووقف جمال ينظر اليهما بعينين انتفختا من البكاء • وشعرت أنا بفراغ في يدي وفي حياتي • كيف لا وأنا الذي زففت عائشة الى احسان ، فوضعت يدها في يده ، فهما نائمان الآن جنباً الى جنب تحت ذاك التراب الاصفر

وعدنا من دفنهما ، وكنت منهوك القوى ، فأمسكني حشمت بك ، وسرت معه متمايلاً الى الامام والى الوراء وأنا بين يديه الحديديتين • ورأيت عينيه السوداوين المتوقدتين كالنار تحدقان في عيني ، وجعل يناديني ـ أنا يامي الغائب عن الوجود ـ فقال :

— ستكون يايامي بك ضابط أوامر عندي . فنطارد اليونانيين من ورائهم حتى نبلغ ازمير مدينة عائشة

ورأيتني بعد ساعة جالساً بين حشمت بك وجمال في غرفة بقرية بصري •
وكان جمال يبكي ويقول لي : — أخي ، أخي !

وكان صوابي قد عاد الي تمـاماً ••• فنظرت الى حشمت بك ، وكان قد أزيح عن روحــه ذلك الستار الذي يحجبها ، ففهمت كل ما في نفسه : فهو يريد أن يسرع الى الالتحاق بعائشــة قبلي . ولـكن أي فائدة له في ذلك ؟ أليست عائشة نائمة الآن مع احسان جنباً الى جنب ؟ آه يا ربي ، ما أشد الحقد الذي أشعر به الآن نحو احسان ! انه قد فعل كل ما فعله من المدهشات في الهضبة السوداء ليميت عائشة ، ويضطرها الى الالتحاق به . وأين مازعمه من أنه سيدخل ازمير ؟ انه لم يسر في ذلك الطريق غير خمس خطوات ، ثم مات كما يموت الحيوان

وخطر حينئذ ببالي خاطر جميل خفق له قلبي بشدة . فقد قلت في نفسي اني سأحرص على ان أكون أول داخل الىازمير ، وأجيء بعد ذلك الى قبر عائشه في (كوكجه بينار) فأخبرها بذلك . أنا متأكد من أنهــا وعدت احساناً بزواجها مكافأة له اذا كان أول داخل الى ازمير ، ولم يكن ذلك لأنها تحبه ، فهي لم تحبّ أحداً قط ، وانما كانت تحبّ من يسبق الىدخول ازمير أياً كان . ثم تذكرتُ أن حشمت بك منتبه الى هــذه الفكرة ، وسيحاول تحقيقها ، ولـكني ضحكت وقلت :

ـ اني سأسبقه ، ولن يرفع أحد الراية الحمراء قبلي على مرفأ ازمير

***

— صباح ٢٧ ديسمبر ، ١٩٢١ —

لقد قام نزاع بيني وبين الطبيب في صــباح اليوم ، حيث منعني من الـكتابة . وقــد لفوا رأسي بلفافة باردة وأضجعوني في سريري ، على أن يعملوا لي العملية الجراحية غداً . واذا نجحت العملية وبقيت حياً فانه لم يبق لي أحد أعرفه في هذه الحياة : ان جمالاً دفن مع ساقيّ تحت التراب ، وحشمت

بك دفنته بيدي في (كوكجه بينار) ، فهو لا يزال على طريق ازمير . . .

وأنت ياعائشتي ، أنظري ! اني لا أزال أملك ساعدين قويين ، وقد أقسمت أنْ أقاتل لأجل ازمير الى أن أفقد كل عضو سليم في جسمي

امسحي عن عينيك هذه الدموع الدموية ، وأحبي احساناً ان شئت ، فان ذلك الفتى البائس قد أحبك كثيراً : انه لبس على جسمه قيصاً من نار مدة سنتين ، وأخيراً هبط الى ازمير بين ذراعيك ، وحسب فتى مثله كل هذه السعادة . أما أنا فان قيصي الناري لن ينزع عن جسمي قط ، وسأظل مرتدياً به في الحياة والموت والى الابد . اني أحب هذا القميص وما فيه من نار وألم

افسحي لي ياعائشة موضع كف من الارض تحت أرجلكما لأحرسكما ، بل لأكون قريباً منك . واني أنام اذا شئتِ تحت رجلي احسان مادام صاحبك . اني ياعائشة أشعر بآلام لم يشعر بها أحد قبلي منذ برأ الله هذه الكائنات !

***

— مساء ٢٧ ديسمبر ، ١٩٢١ —

لقد أوصيت سالماً في صباح هذا اليوم بكل شيء . واني أشعر بأن في صدري خصلة من الشعر الاسود مسروقة من رأس ميت

وكتبت أطلب أن يكون قبري تحت أرجل أولئك ، فهل في ذلك خيانة لهم ياترى ؟ لا تغضب ياأخي يا احسان ، فان صدرك قد سال الدم منه مرة واحدة في العمر ، أما أنا فما برح صدري يسيل دما ، وسيظل يسيل في الجانب الآخر من قبري ، وتحت التراب ، وعند قدميك ، الى الأبد . لا تغضب يا أخي احسان . . . انظر فاني سأنام تحت أرجلكما . وأما انتما فأحدكما الى جانب صاحبه !

أنظر ، أنظر ! ها ان عائشة قامت من محفتها ، واعتنقت احساناً بساعديها . يالها من قُبلة لا نهاية لها ! وما عليهما أن يفترقا قليلاً ؟ ولكن لا بأس ، انهما طالما اشتهيا هذه القبلة ، وطالما انتظراها

الخـاتمة

بينما كان اثنان من الاطباء خارجين من مستشفى (جبه جه) في أنقره كان أحدهما يقول لصاحبه :

ـ لقـد انتهيت من البحث عن الاسماء الواردة في مذكرات ضابط الاحتياط بيامي أفندي

فسأله صاحبه : ـ وماذا فهمت من ذلك ؟

قال : ـ لم تكن توجد في فيلق من الفيالق أخت اسمها (عائشة) ، ولا قائد ألاي اسمه (احسان)

فسأله صاحبه : ـ وهل له أقارب ؟

قال : ـ له ابن خالة اسمه جمال ، وقد قتـل في الحرب . ويقال ان لجمال أختا ، ولـكن لم يعرف أحد اسمها ولا شيئاً عنها

سأله صاحبه : ـ اذن ؟

أجاب : ـ اذن فالقصة خيال ارتسم في دماغه بتأثير الرصاصة التى في رأسه

*

ودخل الطبيبان في مناقشـة علمية طويلة جـداً . ثم اتفقا على وضع اسم مغلق باللغة اللاتينيـة للمرض الذي دعا الضابط بيامي الى وصف ما يسميه «القميص من نار »

انقرة : ١٥ ابريل ١٩٢٢

خالدة أديب